

من زبدة الحلب من تاريخ حلب لابن العديم

وأما (١) سليمان بن قطلمش فإنه حاصر حلب مدة ، ثم تردت الرسل الى أهل حلب في التسليم ، فاستقرت الحال بينهم على موادة مدة .

وسير سليمان بن قطلمش قطعة من عسكره لاتباع العرب النين كانوا مع شرف الدولة ، فهربوا ، ولحقهم شدة عظيمة من دخول البرية في حزيران .

وتوجه سليمان الى معرة النعمان وكفرطاب ، وتسلمها ، ثم سار الى شيزر ، فقاتلها وقرر أمرها على مال يحمل اليه ، وأخذ لطمين ، وشحنها بالرجال ، وعدل أصحابه بالشام عما عرف من سيرة العرب . (٢)

وجرت بالمعزة اسباب وصل لأجلها حسن بن طاهر وزير سليمان ، في النصف من جمادى الاولى ، يطلب أصحابه فثارت فتنة بالبلد ، وأخرجوه منه فخرج لوقته ، وأصبح قاتل البلد ، وقتل جماعة من أهله في الحرب ، وأمن الناحية الغربية ، وأمن الباقي (منها وجعل) (٣) على أهل البلد عشرة الاف دينار .

وأما بلاد شرف الدولة فملكها (بعده أخوه) (٣) ابراهيم ، ماخلا حلب ، وكاتب من بحلب في تسليمها اليه فلم (يرده الخبر) (٣) .

وأما الشريف حسن الحيتي فإنه كان متقدما الأحداث ورئيسهم ، فعمر لنفسه في صفر من سنة ثمان وسبعين قلعة الشريف المذسوبة اليه ، وبنى عليها سورا دائرا ، وفصل بينها وبين المدينة بسور وخندق خوفا على نفسه ان يسلمه أهل حلب ، وكانوا يبغضونه ، ويكرهون ولايته عليهم .

واتفق الشريف وسالم بن مالك صاحب القلعة الكبيرة على أن

كاتباً السلطان ملك شاه يبذلان له تسليم حلب اليه ، ويحدثانه على الوصول أو وصول نجدة تدفع سليمان بن قطلمش .

وعمر سليمان بن قطلمش قلعة قنسرين وتحول إليها وتزوج منيعة بنت محمود بن صالح زوجة مسلم بن قريش .

ونزل على حلب وطال انتظار الشريف حسن لنجدة تصله من السلطان ، فاجتمع بمبارك بن شبل أمير بني كلاب ، واتفقا على أن سار مبارك بن شبل إلى تاج الدول تتش يستدعيه إلى حلب ليتسلمها .

وعرفه ما استقر بينه وبين الشريف الحتيتي عن تسليمه حلب ، ورغبة الكافة في مملكته ، ففرح بذلك وجمع العسكر ، وخرج من دمشق في المحرم من سنة تسع وسبعين وأربعمائة إلى حلب ، فحصر حصن سليمان بن قطلمش في قنسرين .

ووصل إلى تاج الدولة جماعة من بني كلاب ، ورحل إلى الناعورة وعول على مراسلة الشريف حسن فان سلم اليه تفلت والا عاد لحربه ، فبادر سليمان وهو نازل في عسكره على حلب ، وعارضه في طريقه على عين سليم (٤) ، وتراءى العسكران ، فدبر ارتق عسكر تاج الدولة احسن تدبير ، والتقوا فانهزم عسكر سليمان .

وقتل سليمان ، وأسر وزيره الحسن بن طاهر وخلق من عسكره في يوم الأربعاء الثامن عشر من صفر ، فأطلق تاج الدولة الوزير ومن أسر ، وغنم عسكره والعرب الذين معه جميع مساكن في العسكر .

واختلف في قتل سليمان ، ف قيل : عارضه فارس من فرسان تاج الدولة فرماه في صدغه بسهم فقتله .

وقيل : بأنه لما يئس من النصرة نزل عن فرسه ، وقتل نفسه بسكين خفه ، وقيل : ان المصامدة تتبعت اسلاب القتلى فظفروا بدرع مرصع بالياقوت والعقيان الذهب .

ونمى الخبر الى تاج الدولة ، فأحضره فقال « هذا يشبه سلب الملوك » ، وسار الى الموضع واذا به مختلط بدمه فقال : « يشبه أن يكون هذا » . وقد كان قال لهم : « لا تبيذوه لي حتى اريكموه من بين القتلى » ، فقيل له : « ومن أين علمت ذلك ؟ » فقال : « قدمه تشبه قدمي وأقدام بني سلجوق تتشابه » .

ثم قال بلسانه : « ظلمناكم ، وأبعدناكم وذقتكم ! » ثم مسح عينيه واغتم لقتله ، وترحم عليه ، وأحضر أكفانا ذفيسة فكفنه ، وصلى عليه ، وحمله الى حلب فدفنه الى جانب مسلم بن قريش قبل ان ينقل مسلم الى سر من رأى ، وقيل : دفن معه في قبر واحد .

ولما جرى ماجرى من قتل سليمان وسار تاج الدولة الى حلب عدل الشريف حسن الحتيتي عما كان اتفق عليه مع مبارك بن شبل ، وامتنع من تسليم حلب الى تاج الدولة ، واحتج بأن كتب ملك شاه وصلته بتجهيز العساكر اليه .

فأقطع تاج الدولة بلد حلب وأعمالها لعسكره الا ماكان لبعض العرب الذين وفدوا عليه ، فانه أقره في أيديهم ، ثم رحل الى مرج دابق (هـ) وأقام أياما .

ثم عاد ونازل حلب ، فعمد رجل من تجار حلب يعرف بابن البرعوني الحلبي ، وراسل تاج الدولة في تسليم حلب اليه ، ورفع بعض اصحابه بحبال الى بعض ابراج السور ، وساعده قوم من الأحداث ونادوا بشعار تاج الدولة في ذلك الموضع ، وتسامع الناس فنادوا بشعاره في البلد جميعه ، وذلك في ليلة السبت السادس والعشرين من شهر ربيع الاول من السنة .

فانهزم هبة الله أبو الشريف حسن من قلعة ابنه الى القلعة الكبيرة الى سالم بن مالك ، (٦) وبقي الشريف حسن في قلعته المجددة ، ومعه فيها رجال من أحداث حلب ، فخافوا على اهلهم بحلب ، فخرجوا منها وبقي الشريف حسن في قلعته في نفر قليل ، فطلب الامان فأمنه تاج الدولة بوساطة ظهير الدين ارتق .

وخرج الى ارتق وصار عنده بماله وأهله ، وسلم القلعة الى تاج الدولة تتش ، وسيره ارتق الى بيت المقدس بماله فأقام به .

وعصى سالم بن مالك بالقلعة الكبيرة ، وكان شرف الدولة بن قريش لما ولاه فيها أوصاه أن لا يسلمها الا الى السلطان ملكشاه ، فالتزم بوصيته ، وامتنع ان يسلمها الى تتش .

وأقام تتش بمدينة حلب الى اليوم السابع والعشرين من شهر ربيع الآخر ، وأحسن الى أهلها ، وخلع على أحداثها ، فوصله الخبر أن السلطان ملك شاه وصلت عساكره الى نهـر الجوز (٧) قاصدين مدينة حلب ، فسار تاج الدولة الى دمشق ، وترك بعض أصحابه بقلعة الشريف ومعه عدة في اليوم المذكور ، ومعه قوم من بياض حلب ، فأقام نائبه اياما يسيرة ، ثم سار ولحقه في دمشق .

ووصلت عساكر ملك شاه حلب مع برسر ق واياز وبـوزان وغيرهم ، ونزل بعضهم إلى بلد الروم ، وامتدوا فيما بينها وبين أنطاكية ، ووصل بعضهم إلى حلب ، وسارع أهل حلب وسالم بن مالك ومبارك بن شبل الى طاعة الواصل وخدمته .

ثم إن السلطان وصل بعدهم الى الرها فسلمها اليه الفلاردوس (٨) وأسلم على يده ، وسار منها الى قلعة دوسر - وهي المعروفة بجعبر - فتسلمها في طريقه من جعبر بن سابق القشيري ، وقتله لما بلغه عنه من الفساد وقطع الطريق .

وسار حتى وصل حلب في الثالث والعشرين من شعبان من سنة تسع وتسعين وأربعمائة .

وتسلم حلب وقلعتها وسائر قلاع الشام ، وعوض سالم بن مالك عن قلعة حلب بقلعة دوسر ، وأقطعها معها الرقة وعدة ضياع .

وتوجه السلطان الى انطاكية فتسلمها من الحسن بن طاهر وزير سليمان بن قطلمش ، ورتب بأنطاكية بغى سيان بن الب في عسكر واستخدم حسن بن طاهر في ديوانها ، وتم الى السويبية (٩) وصلى على البحر ، وحمد الله على ما أنعم عليه مما تملكه من بحر المشرق الى بحر المغرب .

وعاد الى حلب ، ورتب بها الأمير قسيم الدولة آق سنقر (١٠) ومعه عسكر ، واستخدم بها تاج الرؤساء بن الخلال في جمع الأموال .

ووصل اليه الشريف حسن الحتيتي وهو بحلب يلتمس العونة الى حلب ، ويذكر خدمته وما جرى عليه ، فتظلم منه أهل حلب فلم يأذن له السلطان فيما التمس .

وكان هذا السلطان من أعظم الناس هيبة وأكثر الملوك عدلا حتى أن أحدا لا يقول : أن أحدا من ذلك العالم العظيم من عسكره - وحزره أربعمائة ألف - أخذ لأحد من الرعايا قسرا وظلما ما يساوي درهما واحدا ، حتى أن البازيار الذي له اقتنص طائرين من الدجاج من الأثارب (١١) طعما للبزة في الطريق ، فعلم بذلك فعظم عليه حين رآه وهده حتى أعادها الى صاحبها بعد عونة من أنطاكية .

وخرج هذا السلطان الى ضياع معرة النعمان يتصيد ، ويات بضيفة بينها وبين المعرة ثلاثة فراسخ ، فابقاع منها أصحابه

ما احتاجوه بأوفى ثمن ، ووضع السلطان في هذه السنة المكوس من جميع بلاده ، ولم يبق من يستخرج مكسا في مملكته .

وأقام السلطان بحلب الى أن عيد بها عيد الفطر ، وعاد منكفئا الى الجزيرة ، وقد قرر ولاية حلب ، وولى بقلعتها نوحا التركي ، وبلغه عصيان تكش (١٢) بترمز فزار السلطان ، وقطع ما بين حلب ونيسابور في عشرة أيام ، وعاد منكفئا الى الجزيرة وقد قرر ولاية حلب لقسيم الدولة أق سذر التركي في سنة تسع وسبعين وأربعمائة ، وجعل معه أربعة آلاف فارس ومكنه فيها .

وقيل انه مملوك لملك شاه ، وقيل انه لصيق وأن اسم ابيه آل ترغان ، وولى على جمع المال بحلب في الديوان تاج الرؤساء أبا منصور بن الخلال الرحبي ، وقال شاعر حلبى فيه وفي الوزير ابن النحاس :

قد زجر العيش على الناس
ما بين « خلال » و « نحاس »

فأحسن قسيم الدولة في حلب السيرة وأجمل السياسة وأقام الهيبة ، وأفنى قطاع الطريق ، وتتبع الذعار في كل موضع فاستأصل شأفتهم .

وعمرت حلب في أيامه بسبب ذلك لورود التجار والجلابيين اليها من كل مكان .

وحكى لي والدي - رحمه الله - : أنه استأصل أرباب الفساد الى حد بلغ به أن نادى في قرى حلب وضياعاها أن لا يغلق أحد بابه ، وأن يتركوا الاتهم التي للحرث في البقاع في الليل والنهار .

فخرج متصيذا فمر على فلاح وقد فرغ من عمله ، وأخذ آلة

الحرث معه الى منزله ، فانفرد من عسكره وقال له : « ألم تسمع مناداة قسيم الدولة بأن لايرفع أحد من أهل القرى شيئاً من آلة الحرث ؟ » فقال: « بلى والله - حفظ الله قسيم الدولة - والله لقد أمنا في أيامه من كل ذاعر ومفسد ، ومارفعت هذا خوفاً عليها ممن يأخذها ، وإنما ههنا دويبة يقال لها ابن أوى إذا تركنا هذه العدة ههنا جاءت وأكلت هذه الجلود التي عليها » .

فلما عاد قسيم الدولة أمر بالصيادين وبثهم في أقطار بلد حلب لصيد بنات أوى حتى أفنوها من ضواحي حلب ، وكان ذلك سبباً لقلتها في بلد حلب الى يومنا هذا ، دون غيرها من البلاد .

وفي أيام قسيم الدولة جدد عمارة منارة حلب الموجودة في زماننا هذا ، وجددت في سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة .

وجرى خلاف بين أهل لطمين (١٣) وبين نصر بن علي بن منذر في سنة احدى وثمانين ، فخرج أق سنقر الى شيزر ، وقاتلها ، وقتل من أهلها مائة وثلاثين رجلاً ، وعاد الى حلب بعد أن نهب ربضها ، واستقرت المودعة بينه وبين نصر صاحب شيزر .

وكان أق سنقر قد تزوج خاتون داية السلطان ملك شاه (١٤) ، وكانت جالسة معه في بعض الأيام في داره بحلب ، وفي يده سكين فأوماً بها اليها على سبيل المداعبة والمزاج ، ف وقعت في قلبها للقضاء المحتوم غير متعمد لها ، فماتت وحزن عليها حزناً شديداً ، وتأسف لفقدائها ، وحملها في تابوت لتدفن في مقابر لها بالشرق ، وخرج من حلب لتوزيع تابوتها في مستهل جمادى الآخرة .

وتسلم أق سنقر حصن برزويه (١٥) ، في شعبان سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة ، من الأرمن - وهو آخر ما كان قد بقي في أيدي الكفار من أعمال أنطاكية - وأقام في يده تسعة أشهر ، وهدمه في ربيع الاول من سنة ثلاث وثمانين .

وكتب ولاية الشام الى السلطان ملك شاه يشكون مايلقونه من
خلف بن ملاعب بـحمص من قطع الطريق واخافة السبيل ، فكتب الى
قسيم الدولة وتاج الدولة ويغي سيان وبوزان صاحب
الرها ، فساروا في عساكرهم ، فحاصروها وضايقوها
ففتحوها ، واعطاها السلطان تاج الدولة تتش .

ونزل قسيم الدولة على افامية ، فأخذها من خلف بن ملاعب
وسلمها إلى نصر بن منذر .

ثم إن السلطان أمر بحمل ابن ملاعب في قفص حديد الى
اصبهان ، فحبسه الى أن مات ملك شاه ، وتوجه إلى مصر وعاد
إلى الشام ، واحتال حتى ملك افامية بالحيلة بعد ذلك .

ولما فتحت حمص تسلمها قسيم الدولة الى أن ورد عليه أمر
السلطان بتسليمها الى تتش (١٦) .

ومات السلطان ملك شاه ببغداد في الليلة السادسة عشر من
شوال سنة خمس وثمانين وأربعمائة ، وكان أق سذقر قد خرج من
حلب وافدا عليه ، فلما بلغه الخبر عاد الى حلب ، وخطب لابنه
محمود مدة يسيرة ، ثم انه خطب بعد ذلك لتاج الدولة تتش - على
مايذكر - (١٧) .

ولما عاد الى حلب قبض على شبل بن جامع أمير بني كلاب وعلى
ولده مبارك ، واعتقلهما بالقلعة ، وراسل تاج الدولة قسيم الدولة
ويغي سيان وبوزان وجذبهم الى طاعته ، والكون في جملته ليسيروا
معه الى بلاد أخيه ليفتحها ، ويأخذ المملكة فأجابوه الى
ذلك ، وخطبوا له في أعمالهم .

فسار في أول سنة ست وثمانين ، وسار إليه قسيم الدولة ويغي
سيان وبوزان ، ووثق به أق سذقر ، وفتح تاج الدولة الرحبة
ونصيبين ، فجمع ابراهيم بن قريش وتاهب للقاء تاج الدولة .

والتقى العسكران على دارا (١٨) ، وعاد كل فريق الى موضعه ، فركب الامير قسيم الدولة في خلق من العسكر ، وحمل حتى توسط عسكر ابراهيم فلم يثبت العرب ، وتبعه بساقي العسكر ، فقتل منهم ما يقارب عشرة آلاف .

وأسر ابراهيم بن قريش وعمه مقبل وغيرهم ، فقتلهم تاج الدولة صبرا وسبيت الحرم ، وقتل جماعة من نساء العرب ذفوسهن .

وأمر تاج الدولة بعد ذلك بجمع الأسرى ووهبهم من محمد بن شرف الدولة - وكان قد صار في جملته قبل الحرب - وأقطعه نصيبين (١٩) .

وعظمت هيبة تاج الدولة بعد هذه الواقعة ، وراسلته زوجة أخيه تحته على الوصول ، واستقر الحال على أن تتزوجه ، فسار عند ذلك بعد أن تسلم من ابن جهير أمد وجزيرة ابن عمر ، حتى وصل الى تبريز ، ففسخ عنه قسيم الدولة أق سنقر صاحب حلب وعماد الدولة بوزان وسارا الى بر كيارق ليكونا في خدمته - وكان بالقرب من الري (٢٠) -

وكان سبب ذفار قسيم الدولة وبوزان تقريب تاج الدولة يفي سيان وميله اليه ، وقيل : لأنه لم يولهما شيئا من البلاد التي افتتحتها ، فرجع تاج الدولة الى نيار بكر ، وشحنها بالرجال ، وسار منها الى سروج فأخذها وولى فيها بعض ثقاته .

ووصله الخبر بوصول أق سنقر وبوزان الى باب السلطان بر كيارق ، واكرامه لهما ، وانهما وجدا خاله مستوليا على أمره ، فقتلاه وبعض الأمراء .

فانبطت يد بر كيارق ، واستقامت أحواله ، وخاطبه أق سنقر وبوزان ان يسير معهما إلى بلالهما حلب والرها وحران ، لئلا

يجري عليهما حادث من تاج الدولة عند عودته ، وضمننا له أن يكونا بينه وبين تاج الدولة ، فسار معهما إلى الرحبة ، وعقد بينهما وبين علي بن شرف الدولة حلفا .

وسار علي بن قريش ، ومعه جماعة من بني عقيل وقطعه من عسكر السلطان بر كيارق مع قسيم الدولة ، فأوصلوه إلى حلب ، فدخلها في شوال من سنة ست وثمانين وأربعمائة .

وسار بوزان إلى بلاده ، وعاد من كان معهما إلى السلطان ، وأما تتش فإنه قطع الفرات وتوجه إلى انطاكية ، وأقام بها مع يغى سيان مئة ، فغلت بها الأسعار ، فسار إلى دمشق في ذي القعدة من هذه السنة .

وكان وثاب بن محمود مع نفر يسير من بني كلاب ، فأندذاق سنقر بعد مسير تتش إلى دمشق من أحرق حصن أسفونا (٢١) وحصن القبة ، وقبض اقطاع وثاب .

وفي سنة سبع وثمانين ، قبض على الوزير أبي نصر محمد بن الحسن بن النحاس بسعاية المجن بركات الفروعى به إلى قسيم الدولة ، ولم يزل به إلى أن أمره بخذقه ، وهو معتقل عنده ، فخذقه في هذه السنة .

وفي شهر ربيع الأول من سنة سبع وثمانين وأربعمائة ، خرج تاج الدولة تتش من دمشق ، ومعه خلق عظيم من العرب ، ولقيه يغى سيان بعسكر انطاكية بالقرب من حماة وأقاموا هناك أياما ، وزوج ولده الملك رضوان من ابنة يغى سيان ، وسيره عائدا إلى دمشق .

وسار تاج الدولة بعساكره فنزل تلمذس (٢٢) ، وأقام بها أياما ، فوصله الخبر بوصول كربوقا صاحب الموصل وبوزان صاحب الرها ، ويوسف بن أبى صاحب الرحبة ، في ألفين

وخمسمائة فارس الى حلب ، لنجبة أق سنقر ، فعدل تاج الدولة إلى الحاذوته ، ورحل إلى الناعورة ، وعول على قصـد الوادي (٢٣) وأن يسير منه إلى أعمال انطاكية ، وأخذ العسكر دواب الذقـرة و(أحرق) بعض زرعها .

فخرج أق سنقر ومن وصله من النجبة وجماعة كثيرة مع شبل بن جامع ومبارك بن شبل من بني كلاب - وكان قد اطلقهما من الاعتقال في هذه السنة - ومحمد بن زائدة في جماعته وجماعة من أحداث حلب والديلم والخراسانية ، وعدة عسكره تزيد عن ستة الاف فارس وراجل ، في أحسن أهبة وأكمل عنة .

وقصد عسكر الملك تاج الدولة ، يوم السبت تاسع جمادى الاولى من السنة ، والتقوا على « سبعين » (٢٥) ، وكان أول من قطع السواقي التي كانت بين العسكرين وبرز للحرب أق سنقر ، ورتب مصاف عسكره .

وبقي عسكر بوزان وكربـوقا لم يتمـكن من قطع السواقي ، فيختلطون بالعسكر ، ولم يستنصح أق سنقر العرب الذين معه ، وخاف ميلهم إلى تاج الدولة ، وكان عسكر تاج الدولة في مثل هذه العدة من العرب والرجالة ، وكان الترك معه في قلة لأن اصحابه وخواصه كانوا متفرقين في البلاد التي افتتحها .

وحمل عسكر تاج الدولة على عسكر أق سنقر فلم يثبت لحظة واحدة ، وانهزمت العرب وبوزان وكربـوقا نحو حلب فنجلاها ، واستأمن يوسف بن أبـق إلى تاج الدولة .

واسر أق سنقر وجماعة من خواصه ووزيره أبو القاسم بن ببيع ، وأحضر بين يدي تاج الدولة أسيرا ، فقتله صبـرا ، وقال له تاج الدولة : « لو ظفرت بي ماكنت صـنعت ؟ » قال : « كنت أقتلك » فقال له : « فأنا أحكم عليك بما كنت تحكم علي » فقتله .

وحكى وثاب بن محمود قال : « جالس تاج الدولة ، وطلب قسيم الدولة ، فأحضر مكشوف الرأس ، مكتوفا ، فقام تاج الدولة ، وكلمه كلاما كثيرا ، فلم يرد عليه جوابا ، فضربه بيده اطار رأسه » .

وحمل رأسه الى حلب والى دمشق ، ودفن جسده في القبة التي على سطح جبل قرنييا (٢٦) ، غربي المشهد الذي ابتناه بقرنييا ، ثم نذله ابنه زنكي لما فتح حلب إلى مدرسة الزجاجين (٢٧) ، ووقف شامر - قرية من بلد حلب - على من يقرأ على قبره .

واختار قسيم الدولة وقتا للخروج الى اللقاء ، وهو وقت قران زحل للمريخ في برج الأسد - وهو طالع بيت السلطان بحلب - وكان موقنا بالظفر ، فخرج وأمرهم أن يلحقوه بالحبال لكتافهم بها ، وكان تاج الدولة قد عزم على ماذكرناه ، ولم يكن مؤثرا لقاؤه ، فنصره الله تعالى كما شاء وأراد ، ولامعقوب لحكمه ، ولاتأثير لشيء في ملكوته .

واسر شبل بن جامع أمير بني كلاب فوهبه تاج الدولة لابن أخيه وثاب بن محمود .

وعول بوزان وكربوقا على الاعتصام بحلب ، وانتظار النجدة من بر كيارق ، لأن كتاب الطائر وصل الى حلب يخبر بوصول النجدة الى الموصل ، وقرروا مع الأحداث ذلك .

فوصل تاج الدولة بعسكره الى حلب ، وتحرير أهلها فيما يفعلونه ، فبادر قوم من الأحداث ممن لا يعرف ولا يذكر ففتحوا باب انطاكية .

وبخل وثاب بن محمود في مقدمة أصحاب تاج الدولة الى حلب ، وسكن البلد ، فنزل الوالي بقلعة الشريف ، وسلمها الى تاج الدولة فدخلها ، وبسات بها ، فراسله نوح والي القلعة

الكبيرة ، وسلمها اليه بعد ان توثق منه ، وطلع تاج الدولة اليها في الحادي عشر من جمادى الاولى من السنة ٠ (٢٨)

وقبض تاج الدولة على بوزان فضرب رقبتة صبرا ، واخذ كربوقا واعتقله بدمص ، واقطع الشام لعسكره ، واقطع معرة النعمان واللاذقية ليغي سيان ، ورتب ابا القاسم بن بديع وزيرا بحلب .

واقام ثلاثة ايام ثم توجه فقطع الفرات ، وتسلم حران ، وسار الى الرها فتسلمها ، وقيل : بأن واليها امتنع من تسليمها الا بعلامة من بوزان ، وأن بوزان كان محبوسا بحلب ، فانفذ اليه من قطع رأسه ورماهم به ، فسلموا الرها اليه ، وتسلم بيار بكر .

وسار الى ميفارقين فقتل بني جهير بعد ان قطع رؤوس اولادهم وعلقها في رقابهم .

وعدل عن الموصل ، وسار للقاء زوجة أخيه خاتون الجلالية لاتمام ماكان استقر بينهما فماتت في الطريق .

وتوجه تاج الدولة الى الري ، فوصله خلق كثير من التركمان وعساكر أخيه ، وملك كل بلدة مر بها ، وخطب له على منابر الاسلام : الشام والفرات ، وبغداد .

وعند وصوله الى همزان كتب الى ولده الملك رضوان يستدعيه من دمشق فتوجه إليه ومعه بقية من تخلف من أصحابه بالشام .

وبخل تاج الدولة الري وملكها في المحرم سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ، وخرج بركيارق من أصبهان ، والتقوا على خمسة فراسخ من الري في يوم الأحد السابع عشر من صفر ، فانهزم عسكر تاج الدولة تتش ، واستبيح ونهب ، وقتل ذلك اليوم تاج الدولة وخواصه في الحرب .

وقتل تاج الدولة بعض أصحاب قسيم الدولة بعد أن اصطنعه وقربه ، ضربه بنشابة في ترقوته اليسرى فوق ، وقطع رأسه وطيف به العسكر ، ثم حمل الى بغداد فطيف به ، وتفرق من سلم منهم إلى مواضعهم .

ووصل الخبر الى ولده الملك رضوان ، وهو نازل على الفرات بعانة (٢٩) متوجها الى والده ، فقلق وخاف من وصول من يطلبه فحط خيمه في الحال (٣٠) .

ورحل مجدا حتى وصل حلب في جماعة من غلمانه وحاشيته ، وترك باقي عسكره من ورائه ، فسلم وزير أبيه أبو القاسم بن بديع إليه المدينة والقلعة ، وصعد إليها ، وأخذوا الأهبة لمن يقصدها .

ووصل إليه إلى حلب من الفل أخوه أبو نصر دقاق (٣١) وجناح الدولة حسنين ، فاستولى جناح (٣٢) الدولة على تدبير ملك الملك رضوان ، وكان تاج قد جعله مدبرا له ، وهو أتابكه في حياته ، وجعل دقاق مع أتابك ظهير الدين .

ولما افتتح بيار بكر سلمها الى ظهير الدين ، وشمس الملوك دقاق معه ، ولم يزل بها الى أن سار الى الري فسارا معه .

وعاد دقاق الى حلب فأقام بها مدة يسيرة ، ورأسه الأمير ساوتكين الخادم - وكان نائب تاج الدولة بدمشق في حفظ القلعة والبلد - وقرر لدقاق مملكة دمشق سرا ، وخاف من أخيه رضوان ، فخرج من حلب وهرب الى دمشق من غير أن يعلم به أحد ، وجد في السير ، وتبعه رضوان ، وأنفذ خلفه عدة من الخيل فقاتهم ، فدخل دمشق فسارع ساوتكين الى طاعته ، وصارت دمشق وبلاها بحكمه .

وقتل رضوان أخويه أبا طالب وبهرام أبني تتش (٣٤) ، وكان أتابك طغتكين معتقلا عند السلطان بركيارق ، وقبض في الواقعة فطلبوا منه كربوقا والجماعة الذين معه ، وكانوا في يد رضوان فاتفق رأيهم أن يسيروا غضب الدولة أبق بن عبد الرزاق الى رضوان لاستخلاص كربوقا .

وكان أبق أيضا من جملة من قبض عليه من الجماعة الذين كانوا مع تتش فخطبوا السلطان في إطلاقه وتسييره فأجابهم الى ذلك ، وسيره إلى حلب ، فلما وصله أكرمه رضوان وأطلق كربوقا في شعبان وسيره مكرما .

فأطلق بركيارق أتابك طغتكين (٣٥) وجميع من كان في اعتقاله من خواص تاج الدولة ، ووصل دمشق فابتهج دقاق بوصله وقويت نفسه ، وألقى تدبير أموره اليه ، فقام فيها أحسن قيام .

فاستأنن غضب الدولة الملك رضوان في الوصول اليه فأنن له ، وقرر معه قرب العوبة الى حلب وترك اقطاعه بحلب على حاله ، فوصل دمشق واختار المقام بها ، وكتب الى اصحابه بعزاز يأمرهم بتسليمها الى رضوان فسلموها .

ولما وصلت هذه الاخبار وثب أهل أغامية على حصنها فأخذوه من الأتراك ، وقتلوا بعضهم ، وكان تاج الدولة قد أخذه من ابن منقذ ، وسار جماعة من أهلها الى مصر يستدعون واليا من قبلهم ليحلهم (٣٦) الى الاسماعيلية ونفورهم من الترك .

ووصل خلاف بن ملاعب في سنة تسع وثمانين وأربعمائة وتسلمها ، وعاد الى الفساد وقطع الطريق ، وقتل خاقا من أغامية .

وأما الملك رضوان فانه خرج في سنة ثمان وثمانين من حلب ، ومعه جناح الدولة حسين ، ووصله يغي سيان ويوسف بن

أبق من انطاكية بعسكرهما ، وتوجهوا الى الرها ، ومعهم رهائن
أهلها ليتسلمها الملك رضوان من المقيمين فيها من أصحاب والده .

فلما نزلوا الرها أراد يغي سيان ويوسف ان يقبضا جناح الدولة
ويتفردا بتدبير رضوان ، فهرب منهما ، وقطع الفرات ، ووصل
حلب وتبعه رضوان ، فدخل حلب ، وهرب رهائن الرها من العسكر
وبخلوا ، وعاد يغي سيان ويوسف بن أبق ، وقد استودش
رضوان منهما .

وكتب رضوان الى سكمان (٣٧) واقطاعه
سروج (٣٨) يستدعيه الى حلب لمعونته ، فسار وقطع الفرات
فلقية يوسف بن أبق في علة وافرة فخافه سكمان ، فظهر موافقته
وصار معه .

وخاف جناح الدولة من اجتماعهم ، وكان عقيب وصول رضوان
من الرها قد سير جماعة من عسكر حلب الى معرة النعمان مع
غضب الدولة لاختها من يغي سيان .

وكاتب وثاب بن محمود فوصل ببني كلاب لمساعدته على أخذ
المعرة ، فأخرجوا ابن يغي سيان وأصحابه منها ، وتسلموها .

وعاد غضب الدولة ووثاب ، فلما وصلا حلب حدث ما ذكرناه من
أمر سكمان ويوسف بن أبق ، فخرج جناح الدولة بالعسكر فلقية
يوسف بالقرب من مرج دابق فهرب يوسف ونهبوا
عسكره ، وأعانهم على ذلك سكمان ، وبخل يوسف انطاكية ، وعاد
جناح الدولة وسكمان ووثاب وأبق الى حلب .

واقطع الملك رضوان معرة النعمان سكمان بن أرتق
وأعمالها ، ثم سار رضوان وسكمان لقصد دمشق وانتزاعها من
أخيه دقاق ، وترك جناح الدولة بحلب .

فلما نزلا دمشق ، وصل اليهما أن دقاق قبض على نجم الدين ايلغازي بن ارتق ، واعتقله لتهمة وقعت به ، فعاد الملك رضوان الى حلب ، وسار سكرمان الى بيت المقدس وتسلمها من نواب أخيه وأقام بها .

وراسل يوسف بن أبق الملك رضوان واستأننه في الوصول الى خدمته فأنن له ، ووصل حلب وسكنها .

ثم خاف رضوان وحسين منه فتقدما الى بركات بن فارس رئيس حلب المعروف بالمجن (٣٩) بقتله ، فهجم عليه وأصحابه فقتلوه ونهبوا داره وأخذوا رأسه ، وسيروه الى بـزاعا ومنبج ، فتسلموها من أصحابه ، وقبضوا على إقطاع أخيه وأصحابهما ، وهربوا من حلب ، وكان الملك قد توهم منه الارتداد عن الاسلام .

ثم ان رضوان وجناح الدولة خرجا في سنة تسع وثمانين الى تل باشر ، وشيخ الدير (٤٠) ، وفتحها بالسيف من أصحاب يغبي سيان ، وأغاروا على أعمال أنطاكية ، وعادا الى حلب ، وسارا في أول شهر رمضان منها الى دمشق .

فسار يغبي سيان منجدا لدقاق فضعفت نفس رضوان ولم يتمكن من العود ، فسار الى بيت المقدس ، فتبعه دقاق وطفكتين ويغبي سيان وأقاموا متحابين مدة .

وأشرف عسكر رضوان على التل فسادفصل عنه جناح الدولة ، وهرب على طريق البرية الى حلب ، وتبعه الملك رضوان بعد مدة وحصلا بجميع العساكر بحلب .

وعاد دقاق وطفكتين الى دمشق ويغبي سيان الى أنطاكية ، وعاد سكرمان بن ارتق من القدس على البرية حتى وصل حلب على البرية في المحرم من سنة تسعين وأربعمائة .

واجتمع بجناح الدولة واتفقا على قصد بلاد يغي سيان فخرج دقاق وطفغتكين ، فوصلوا حماه وعاث العسكر في بلادها ووصلهما يغي سيان ، وساروا الى كفر طاب في الثاني من ربيع الاول ، فقاتلوا ، ونهبوها ، وقرروا على اهلها مالا .

وهرب أصحاب سكمان من المعرة فتسلمها يغي سيان وقرر عليها مالا ، وتنقل العسكر في الجزر (٤١) وغيرها من أعمال حلب ، فاستنجد رضوان بسليمان بن ايلغازي صاحب سميساط (٤٢) فوصل بعسكر كثير الى حلب .

وجمع رضوان من قدر عليه من الترك والعرب وأحداث حلب ، ونزل عسكر دقاق بقنسرين .

ونزل عسكر حلب بحاضر قنسرين فاتفق الامر على أن يجتمعوا على نهر قويق ويتحدثوا ، فاجتمعوا وتحدثوا ، والنهر بينهم ، فلم يتفق الصلح ، فقال يغي سيان لسكمان : « هؤلاء الملوك يقتتلون على ملكهم ، أنت يا بياح اللبـن بخـوك معهم لأي صفة ؟ » قال : « غدا تبصر ايش أنا » .

فأصبحوا والتقوا يوم الاثنين خامس شهر ربيع الآخر من سنة تسعين وأربعمائة فأبلى سكمان بلاء حسنا .

ولم تزل الحرب بينهم الى آخر النهار ، فانهزم يغي سيان الى أنطاكية ، ودقاق وطفغتكين الى دمشق ، واسر في الحرب اصباوه (٤٣) ، فاعتقل بحلب ثم أطلق ، فهرب الى دمشق ولم يقتل من العسكر الا القليل .

وقتل الفلاحون في الطريق وقت الهزيمة من الأرمن الذين كانوا مع يغي سيان جماعة كثيرة ، وتغيرت نية الملك رضوان على جناح الدولة حسين فهرب من حلب الى حمص ، وخرج من حلب ليلا ومعه زوجته أم الملك رضوان وأقام بـحمص لأنها كانت في يده وحصنها .

ووصل يغي سيان الى حلب عقيب ذلك ، وخدم رضوان ، ودبر أمره ، وتزوج رضوان ابنة يغي سيان خاتون جيجك (٤٤) .

وعول رضوان على قصد جناح الدولة بجمص ، وقصد دقاق بدمشق ، ووصله رسدول الافضل (٤٥) من مصر يدعوه الى طاعة المستعلي واقامة الدعوة له ، وعلى يده هدية سنوية من مصر ، ووعد به بأن يمهده بالعساكر والاموال .

فتقدم بالدعوة للمصريين على سائر منابر الشام التي في يده ، ودعا الخطيب أبو تراب حيدرة بن أبي اسامة ، بحلب للمستعلي ثم للأفضل ثم لرضوان ، في يوم الجمعة السابع عشر من شهر رمضان من هذه السنة .

وكان قد ولي الخطابة أبو تراب وعزل جد أبي أبا غانم محمد بن هبة الله بن أبي جرامة عن القضاء والخطابة بحلب ، لأن توليته كانت على قاعدة أبيه من بغداد في سنة ثمان وثمانين وأربعمائة .

وكان أبوه القاضي أبو الفضل هبة الله قد مات في هذه السنة المذكورة ، وهو على القضاء والامامة بحلب .

وولى رضوان قضاء حلب في سنة تسعين القاضي فضل الله الزوزني العجمي الحنفي ، وسيره رسولا الى مصر ، وناب عنه في القضاء حال غيبته أبو الفضل أحمد بن أبي اسامة الحلبي ، ودامت الدعوة بحلب الى رجب من سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة ، وقيل : لم تدم أكثر من أربع جمع (٤٦) .

وأعادها رضوان للامام المستظهر ثم للاسلطان بركيارق ثم لنفسه ، ولم يصح له مما التمسه من المصريين شيء .

وأعاد القضاء والخطابة الى جد أبي أبي غانم على قاعدته الاولى ، في سنة خمس وتسعين وأربعمائة ، حين قتل

الزوزني ، وكان خرج من بين يدي رضوان ، فقتل في بعض الدروب ، وكان ازرى على الباطنية وعلى معتقدهم فقبل انهم قتلوه .

ولما سار رضوان ويغي سيان وصلا الى شيزر متوجهين الى حمص لقصد حمص (٤٧) فتواصلت الاخبار بوصول خلق من الفرنج قاصدين أنطاكية ، فقال يغي سيان : « عوبنا الى أنطاكية ولقاء الفرنج أولى » ، وقال سكمان : « مسيرنا الى بيار بكر واختها من المتغلبين عليها ونتقوى بها ، وأنزل أهلي بها ونعود الى حمص أولى » واختلفوا .

فسار الملك رضوان نحو حلب جفلا وكان معه وزيره أبو النجم بن بديع أخو وزير أبيه تتش أبي القاسم ، وكان قد ولاه وزارته حين ملك حلب ، فاتفهما أنه هو الذي يفسد حال رضوان ، فطلع الى حصن شيزر ، وأقام به عند ابن مذقذ خشية من يغي سيان وسكمان ، فلما سارا عن شيزر سار الى حلب ولحق بالملك رضوان بها .

ولما عاد رضوان مغاضبا ليغي سيان وسكمان عاد (٤٨) والامراء من شيزر الى أنطاكية ، وبلغهم نزول الفرنج البلانة (٤٩) ونهبها .

ولما دخل يغي سيان أنطاكية أخرج ولديه شمس الدولة ومحمدا ، فسار أحدهما الى دقاق وطغتكين يستنجدهما ، وبث كتبه الى جناح الدولة ووثاب بن محمود وبني كلاب ، وسار محمد ابنه الى التركمان وكربوقا وأمراء الشرق وملوكه ، وسارت كتبه الى جميع أمراء المسلمين .

وفي ثامن شهر رمضان ، وصل من قبرس الى ميناء اللاذقية اثنتان وعشرون قطعة في البحر ، فهجموه وأخذوا منه جميع ما كان

للتجّار ، ونهبوا اللاذقية وعادوا ، ووصلت الفرنج الى الشام ، واعتبروا عسكرهم فكانوا ثلاثمائة ألف وعشرين ألف انسان ، لأنهم وصلوا من جهة الشمال .

وفي اليوم الثاني من شوال نزلت عساكر الفرنج على بغراس (٥١) وأغاروا على أعمال أنطاكية ، فعند ذلك عصى من كان في الحصون والمعازل المجاورة لأنطاكية ، وقتلوا من كان بها ، وهرب من هرب منها .

وفعل أهل ارتاح (٥٢) مثل ذلك واستدعوا المدد من الفرنج ، وهذا كله لقبح سيرة يغي سيان وظلمه في بلاده .

ونزل الفرنج على أنطاكية اليلتين بقيتا من شوال من سنة تسعين وأربعمائة .

وخرج في المحرم من سنة إحدى وتسعين وأربعمائة نحو ثلاثين ألفا من الفرنج الى أعمال المسلمين ببلد حلب ، فأفسدوا ونهبوا وقتلوا من وجدوا .

وكان قد وصل الملك دقاق وأتابك ومعهما جناح الدولة ، ونزلوا أرض شيزر ، ومعهم ابن يغي سيان وهم سائرون لانجاد أبيه ، فبلغهم خبر هذه السرية ، فساروا إليها بقطعة من العسكر ، فلقوهم في أرض البارة (٥٢) فقتلوا منهم جماعة .

وعاد الفرنج الى الروج (٥٣) ، وعرجوا منه الى معصرة مصرين (٥٤) ، فقتلوا من وجدوا وكسروا منبرها ، وحين عاد العسكر الدمشقي من البارة فارقهم ابن يغي سيان ووصل الى حلب يستنجد بالملك رضوان ، فأخذ عسكر حلب وسكمان ، ودخل بهما الى أنطاكية فلقبهم من الفرنج دون عدتهم ، فانهزم عسكر المسلمين الى حارم (٥٥) وذلك في آخر صفر ، وتبعهم عسكر الفرنج الى حارم فانهزموا الى حلب ، وغلب أهل حارم من الأرمن عليها .

وفي شهر ربيع الأول من السنة وصل خلق من الأرمن الى تل قباسين بناحية الوادي فقتلوا من فيه ، وخرج المسلمون الذين بالوادي وجماعة من الأتراك تبعوهم وقتلوا منهم جماعة ، والتجأ الباقون الى بعض الحصون الخربة ، فأدركهم عسكر حلب فقاتلهم يومين ، وأخذوهم فقتلوا بعضهم ، وحمل الباقي أسرى الى حلب فقتلوا ، وكانوا يزيدون عن ألف وخمسمائة .

ولما نزل الفرنج - لعنهم الله - بأنطاكية جعلوا بينهم وبين البلد خندقا لأجل غارات عسكر انطاكية عليهم وكثرة الظفر بهم ، ولايكاد يخرج عسكر أنطاكية ويعود الا ظافرا .

وجعل يغني سيان الناس على البعد والقرب ، وكان حسن التدبير في سياسة العسكر .

وجمع كربوقا صاحب الموصل عسكرا عظيما ، وقطع به الفرات ، ووصل دقاق وطفثكين وجناح الدولة ، ووصل سكمان بن أرتق ، وفارق رضوان وسار مع دقاق .

ووصل وثاب بن محمود ومعه جماعة من العرب ووصلوا تل مذس وقاتلوها لأنه بلغهم أنهم كاتبوا الفرنج وأطعموهم في الشام ، وقرر عليهم دقاق مالا أخذ بعضه ورهائن على الباقي ، وسيرهم الى دمشق .

وسار دقاق بالعساكر الى مرج دابق ، واجتمع بكربوقا فيه في آخر جمادى الآخرة ، ورحلوا منه نحو أنطاكية .

فلما كان ليلة الخميس أول ليلة من رجب واطأ رجل يعرف بالزراد من أهل أنطاكية وغلمان له على برج كانوا يتولون حفظه ، وذلك أن يغني سيان كان قد صادر هذا الزراد وأخذ ماله وغلته ، فحملة الحنق على أن كاتب بيمند وقال له : « أنا في البرج

الفلاني ، وأنا أسلم اليك أنطاكية إن امنتني وأعطيتني كذا وكذا » فبذل له ماطلب ، وكتم أمره عن باقي الفرنج .

وكان بعسكر الفرنج تسعة قوامص مقدمين عليهم — كندفري ، وأخوه القمص ، وبيمند ، وابن أخته طنكريد وصنجيل وبغدوين وغيرهم ، فجمعهم بيمند وقال لهم : « هذه أنطاكية إن فتحناها لمن تكون ؟ » فاختلّفوا ، وكل طلبها لنفسه ، فقال : « الصواب أن يحاصرها كل رجل منا جمعة ، فمن فتحت في جمعته فهي له » فرضوا بذلك .

فلما كانت نوبته دلى لهم الزراد — لعنه الله — حبلا ، فطلعوا من السور ، وتكاثروا ورفع بعضهم بعضا وجاءوا الى الحراس فقتلوه ، وتسلمه بيمند بن الانبرت (٥٦) .

وطلع الفرنج في سحرة هذه الليلة الى البلد وصاح الصائح من ناحية الجبل ، فتوهم يغي سيان ان القلعة قد أخذت فخرج من البلد في جماعة منهزمين فلم يسلم منهم أحد .

ولما حصل بالقرب من أرمناز ومعه خادم من غلمانة وقع عن ظهر فرسه ، فحمله الخادم الذي كان معه ، وأركبه ، فلم يثبت على ظهر الفرس ، وعاد فسقط ، وأدركه الأرمن فهرب الخادم عنه ، وقتله الأرمن وحملوا رأسه الى الفرنج .

واستشهد في ذلك اليوم بأنطاكية مايفوت الاحصاء ويجاوز العدد ، ونهبت الأموال والآلات والأسلح ، وسبي من كان بأنطاكية ، ووصل هذا الخبر الى عم وإنب (٥٧) ، فهرب من كان بها من المسلمين وتسلمها الأرمن .

وبلغ الخبر الى دقاق وكربوقا ومن كان معهما ، فرحلوا الى أرتاح ، وسار بعضهم الى جسر الحديد (٥٨) وقتلوا من كان فيه

من الفرنج ، وتوجهوا نحو أنطاكية ، فعرفوا ان قلعتها باقية في ايدي المسلمين ، فأعلموا العساكر الاسلامية بذلك ، فوصلوا الى أنطاكية سحرة يوم الثلاثاء سادس رجب ، فانهزم من كان بظاهر البلد من الفرنج إليها .

ونزل المسلمون بظاهرها مما يلي الجبل ، ودخلوا البلد من ناحية القلعة ، وقاتلوا الفرنج في جبل المدينة ، وأشرف الفرنج على التآلف فبنوا سوراً على بعض الجبل يمنع المسلمين من النزول اليهم ، وأقاموا أياماً وعدم القوت عندهم .

واحتوى كربوقا على كثير مما كان في قلعة أنطاكية ، وولى فيها أحمد بن مروان ، وترادفت رسل الملك رضوان في أثناء ذلك الى كربوقا ، فتوهم دقاق من ذلك ، وخاف جناح الدولة من أصحاب يوسف بن أبق وأخيه .

وجرت بين الأتراك والعرب الذين مع وثاب منافرة عادوا لأجلها ، وتفرق كثير من التركمان بتدبير الملك رضوان ورسالته .

وتخيل بعض الأمراء من بعض ثم اجتمع رأيهم على التحول الى المنازلة في السهل بظاهر أنطاكية ، فنزلوا باب البحر ، وجعل المسلمون بينهم وبين البلد خندقاً .

وأكل الفرنج بأنطاكية الميتات والدوات ، فخرجوا من أنطاكية يوم الاثنين السادس والعشرين من شهر رجب .

فأشار وثاب بن محمود أن يمنعوا من الخروج ، وأشار بعض الأمراء أن لا يمكنوا من الخروج بأجمعهم ويقتلوا أولاً فأولاً ، فلم يعرج المسلمون على شيء من ذلك لأنهم ايقنوا بالظفر بالفرنج ، وخرجوا بأجمعهم في خلق عظيم .

وعاث التركمان في العسكر فانهزم ، وتوهم الفرنج أن ذلك مكينة

فتدوقوا عن تبعهم ، فكان ذلك سببا لسلامة من أراد الله سلامته ، ولم يبق غير كربوقا ومعه اكثر عسكره ، فأحرق سرادقه وخيامه وانهزم نحو حلب .

وقتل من المطوعة والغلمان والسوقة خلق كثير ، ولم يقتل المذكور ، ونهب من المسلمين من الآلات والخيام والكراع والغلات مالا يحصى ، ومن انقطع من العسكر نهبه الأرمن (٥٩) .

وعاد الفرنج الى قلعة انطاكية ، وبها أحمد بن مروان ، فراسله الفرنج وأمذوه ، ومن كان معه ، وسلمها اليهم يوم الأحد الثاني من شعبان من السنة ، وأنزلوه في دار بأنطاكية ، وأطلقوا أصحابه وسيروا معهم من يوصلهم الى أعمال حلب ، فخرج الأرمن فأخذوا بعضهم وقتلوا بعضهم ، ولم يسلم منهم الا القليل .

ولما وصل كربوقا الى حلب خرج اليه الملك رضوان ، وحمل له خياما وغيرها ، ورحل عنها ، وعاد عسكر دمشق اليها وتقدمت العساكر .

وبعد أيام من هذه الواقعة خرج جماعة من الفرنج في شعبان ، وزحفوا مع أهل تلمذس وجميع نصارى بلد المعرة على المعرة وقَاتَلوها ، فوصلت قطعة من عسكر حلب اليهم ، فالتقوا بين تل مذس والمعرة ، فانهزم الفرنج وبقي الرجالة منهم ، فقتل منهم زائدا عن ألف رجل، وحملت رؤوسهم الى معرة النعمان .

وفي هذه السنة - وهي سنة احدى وتسعين - في جمادى الاولى عزل الملك رضوان وزيره أبا النجم هبة الله بن محمد بن بديع ، وولى وزارته أبا الفضل هبة الله بن عبد القاهر بن الموصل ، وكان أبو الفضل حسن السيرة جوادا كثير المعروف والصدقات ، ووافق ذلك شدة الغلاء ، والجوع بحلب ، حتى أكلوا الميتات ، فأخرج غلة كثيرة ، وتصدق بها على الناس .

وقيل : انه كان يخرج في كل سنة صدقة وبراً ثلاثة آلاف مذكوك غلة سوى ما يطلقه لمن يسأله معونته من الوفود والضيوف ، وغير ما يطلقه من العين والورق وغير ما كان يعتمد من افتكاك الأسرى من المسلمين .

وفيها قتل الملك رضوان رئيس حلب بركات بن فارس الفدوعي المعروف بالمجن ، وكان هذا المجن أولاً من جملة اللصوص الشطار وقطاع الطريق الذعار فاستتابه قسيم الدولة أق سنذر ، وولاه رئاسة حلب لشهامته وكفايته ومعرفته بالافوسيين ، وكان في حال اللصوصية يصلي العشاء الآخرة بالفوعة (٦٠) ، ويسري الى حلب ويسرق منها شيئاً ويخرج ، ويصلي الفجر بالفوعة فإذا اتهم بالسرقة أحضر من يشهد له أنه صلى العشاء بالفوعة والصبح فيبرئونه .

واستمر على رئاسة حلب في أيام قسيم الدولة وأيام تاج الدولة وبعده في أيام رضوان ، وامتدت يده وحكم على القضاة والوزراء ومن دونهم ، وهو الذي قتل الوزير أبا نصر بن النحاس في أيام قسيم الدولة .

وبلغني أنه حذق عليه بسبب حصر أراد شراءها فاشتراها المجن ، فشق على أبي نصر ، فسيرها المجن اليه ، فريها عليه أبو نصر ، وتكلم في حقه بكلام قبيح فحذق بسببها على ابن النحاس ، فاعتقله بعد ذلك عنده وخنقه .

وكان كثير السعاية في قتل النفوس وسفك الدماء وأخذ الأموال وارتكاب الظلم ، فعصى على الملك رضوان ، ثم ضعف واختفى بعد أن حصر رضوان في قلعة حلب في سنة تسعين وأربعمائة .

فأمر رضوان منادياً نادى بالقلعة بأن الملك قد ولى رئاسة حلب صاعد بن بديع فأنقلب الأحداث عنه لبغضهم إياه ، ومضوا الى

صاعد فاخدتى المجن ، ثم ظهر عليه فعجل الله المكافأة له على قبيح فعله .

وسلط عليه الملك رضوان فسجنه في ذي القعدة من سنة تسعين وعذبه عذابا شديدا بأنواع شتى ، وأراد بذلك أن يستصفي ماله .

فمما عذبه به أنه أحمى الطست حتى صار كالنار ، ووضعها على رأسه ، وذفخ في دبره بكير الحداد ، وذهبت كعابه ، وضرب فيها الرزز والحلق .

ولما وضع النجار المذقبة على كعبه قطع الجلد واللحم ولم يدر المذقبة ، فلطمه المجن وقال : « ويلك لاتعرف أحضر خشبة ، وضعها على الكعب » فأحضر خشبة ووضعها على كعبه ، فدار المذقبة ونزل ، وذهبت الكعب .

فلما فرغ قيل له : « كيف تجد طعم الحديد ؟ » فقال : « قدولوا الحديد كيف يجد طعمي » ولم يقر المجن مع هذا كله بـ درهم واحد ، ولم يحصل للملك رضوان من ماله الا ما أقر به غلام أو جارية ، وذلك شيء يسير ، واستغنى جماعة من أهل حلب من ماله .

ولما طال الأمر على رضوان أشير عليه بقتله ، فأخرج الى ظاهر باب الفرج من نحو الشرق ، ومعه ابنان له شابان مقتبلا الشباب ، فقتلا قبله ، وهو ينظر اليهما ولا يتكلم .

ثم قتل بعد ذلك في سنة احدى وتسعين ، وسلمت رئاسة حلب الى صاعد بن بديع ، ولما قدم المجن للقتل صاح بصوت عال : « يامعشر أهل حلب ، من كان لي عنده مال ، فهو في حل منه » .

وكان ابن بديع من أولاد الديلم الذين كانوا في أيام سيف الدولة ، وولد أبوه بحلب .

وفي سنة احدى وتسعين وأربعمائة عصى عمر والي عزاز على الملك رضوان فخرج عسكر حلب وحصره ، فاستنجد بالفرنج ، فوصل صنجيل بعسكر كبير ، فعاد عسكر حلب فنهب صنجيل ما قدر عليه وعاد الى أنطاكية ، وأخذ ابن عمر رهينة ، فمات عنده ، فوقع الملك رضوان على عمر الى ان أخذه من تل هراق (٦١) فسلم اليه عزاز وأقام عنده بحلب مدة ، ثم قتله .

وخرج صنجيل في ذي الحجة ، وحصر البارة فقل الماء فأخذها بالأمان ، وغدر بأهلها ، وعاقب الرجال والنساء ، واستصفي أموالهم وسبى بعضا وقتل بعضا ، ثم خرج بقية الفرنج من أنطاكية والأرمن الذي في طاعتهم والنصارى ، وانضموا اليه ، ووصلوا الى معرة النعمان الليلتين بقيتا من ذي الحجة في مائة ألف .

وحصروا معرة النعمان في سنة اثنتين وتسعين ، وقطعوا الأشجار ، واستغاث أهلها بالملك رضوان وجناح الدولة فلم ينجدهم أحد .

وعمل الفرنج برجا من خشب يحكم على السور وزحفوا الى البلد ، وقاتلوه من جميع نواحيه حتى لصق البرج بالسور فكشفوه واسندوا السلالم الى السور وثبت الناس في الحرب من الفجر الى صلاة المغرب ، وقتل على السور وتحتة خلق كثير ، ودخلوا البلد بعد المغرب ليلة الأحد الرابع والعشرين من محرم سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة .

ودخل عسكر الفرنج جميعه الى البلد ، وانهزم بعض الناس الى دور حصينة ، وطلبوا الأمان من الفرنج فأمذوهم ، وقطعوا على كل دار قطيعة ، واقتسموا الدور ، وهجموها وناموا فيها ، وجعلوا يهدئون الناس حتى أصبح الصبح ، فاخترطوا سيوفهم ، ومالوا على الناس ، وقتلوا منهم خلقا ، وسبوا النساء والصبيان .

وقتل فيها أكثر من عشرين ألف رجل وامرأة وصبي ، ولم يسلم إلا القليل ممن كان في شيزر وغيرها من بني سليمان وبني أبي حصين وغيرهم ، وقتلوا تحت العقوبة جمعا كثيرا ، فاستخرجوا نخائر الناس ، ومنعوا الناس من الماء ، وباعوه منهم فهلك أكثر الناس من العطش ، وملكوها ثلاثة وثلاثين يوما بعد الهجمة ، ولم يبقوا نخيرة بها الا استخرجوها .

وهدموا سور البلد واحرقوا مساجده ودوره وكسروا المناير (٦٢) وعاد ييمند الى انطاكية وقمص الرها اليها ، وفي هذه السنة فتحو بيت المقدس وفعلوا فيها كما فعلوا بالمعرة (٦٣) .

وفي سنة ثلاث وتسعين ، وصل مبارك بن شبل أمير بني كلاب في جمع كثير من العرب فخالف الملك رضوان ، ورعوا زرع المعرة ، وكفر طاب ، وحماة ، وشيزر والجسر وغير ذلك .

وخلت البلاد ، ووقع الغلاء في بلد حلب ، ولم يزرع شيء في بلدها ، وسلط الله الوباء على العرب ، فمات شبل ومبارك ولده ، واضمحلت دولة العرب .

وتوجه الملك رضوان في سلخ رجب من هذه السنة الى الأثارب وأقام عليها أياما ، وتوجه الى « كلا » في الخامس والعشرين من شعبان لخراج الفرنج منها ، ومن كان في الجزر وزرنا وسرمين من الفرنج والتقوا فانهزم رضوان ، واستبيح عسكره ، وقتل خلق كثير واسر قريب من خمسمائة نفس وفيهم بعض الأمراء (٦٤) .

وعاد الفرنج الى الجزر وأخذوا برج كفرطاب (٦٥) وبرز الحاضر ، وصار لهم من كفرطاب الى الحاضر ، ومن حلب غربا سوى تل مذس فان اصحاب جناح الدولة كانوا بها .

وسار رضوان عقيب هذه الزكبة الى حمص مستنجدا بجناح الدولة فأجابه ، وعاد الى حلب ومعه جناح الدولة ، وقد عاد الفرنج

الى انطاكية ، فأقام جناح الدولة بظاهر حلب أياما ، فلم يلتفت رضوان فعاد عنه الى حمص .

وتجمع الفرنج بالجزر وسرمين وأعمال حلب وجمعوا العدد والغلال لحصار حلب ، وعولوا على حصارها في سنة خمس وتسعين ، وقيل قبلها .

ووصل بيمند وطنكريد الى قرب حلب فنزلوا المشرفة - من الجانب القبلي على نهر قويق - لما بلغهم من ضعف رضوان وتمزيق عسكره ، وعزموا أن يبنوا مشهد الجف ، ومشهد الدكة ، ومشهد قرنبيا حصونا ، وان يقيموا على حلب ويستغلوا بلدها .

فأقاموا في تدبير ذلك يوما أو يومين فبلغه خروج اندوشتكين الداشمند ، وأنه قد نازل بعض معاقل الفرنج ، وهي ملطية فعادوا للدفع عنها ،

فخرج الداشمند فلقى بيمند وجمعا من الفرنج بأرض مرعش فأسره ، وقتل عسكره ، ولم يفلت منهم أحد ، فخبى الله ظن الفرنج ، وهربوا من أعمال حلب ، وتركوا جميع ما كانوا أعدوه ، فخرج رضوان وأخذ الغلال التي جمعوها ، ونزل سرمين .

وسار جناح الدولة الى أسفونا وبه جماعة من الفرنج فهجمه وقتل جميع من فيه ، وسار الى سرمين فكبس عسكر الملك رضوان ونهبه ، وانهزم رضوان وأكثر عسكره وأسر الوزير أبا الفضل بن الموصول وجماعة وحملهم الى حمص .

وطلب الحكيم المنجم الباطني فلم يظفر به ، وكان هذا الحكيم قد أفسد ما بينه وبين رضوان واستمال رضوان الى الباطنية جدا ، وظهر مذهبهم في حلب ، وشايعهم رضوان وحفظ

جانبهم ، وصار لهم بحلب الجاه العظيم والقدرة الزائدة ، وصارت لهم دار الدعوة بحلب في أيامه ، وكاتبه الملوك في أمرهم ، فلم يلتفت ولم يرجع عنهم ، فوصل هذا الحكيم حلب سالما في جملة من سلم في هذه الواقعة .

واستغل جناح الدولة سربين ومعرفة النعمان وكفر طاب وحماة ، وفدى الوزير ابن الموصل نفسه من جناح الدولة بأربعة آلاف دينار وفدى اصحاب الملك نفوسهم ايضا بمال حملوه اليه .

ولم يبق في أيدي المسلمين في سنة خمس وتسعين إلا حصن بسرفوث (٦٦) - من عمل بني عليم -

وتسلم دقاق الرحبة في سنة ست وتسعين وأربعمائة ، وكان المقيم بها زوج أمنة بنت قيمان (٦٧) ، وكان قيمان من أصحاب كربوقا فمات ، وكانت الرحبة له ، وكان جناح الدولة قد خرج اليها فوجد الامر قد فات ، فعاد ونزل الذقرة وخرج اليه رضوان الى الذقرة واصطالحا ، وأخذه معه الى ظاهر حلب ، وضرب له خياما ، وأقام في ضيافته عشرة أيام ، ولم يصف قلب أحد منهما لصاحبه .

وسار جناح الدولة الى حمص فسير الحكيم المنجم الباطني ثلاثة أعجام من الباطنية فاغتالوه ، وقد نزل يوم الجمعة الثاني والعشرين من شهر رجب ، لصلاة الجمعة فقتلوه ، وقتلوا بعض اصحابه وقتلوا ، وقيل : « ان ذلك كان بأمر رضوان ورضاه .

وبقي المنجم الباطني بعده أربعة وعشرين يوما ومات ، وقام بعده بأمر الدعوة الباطنية بحلب رفيقه أبو طاهر الصائغ العجمي .

ووصل صنجيل الفرنجي ونزل حمص بعد قتل جناح الدولة بثلاثة أيام ، فسيرت زوجته خاتون أم الملك رضوان تستدعيه لتسلم اليه

حمص ويدفع الفرنج ، فكره المقدمون ذلك ، وخافوا منه لسوء رأيه فيهم ، وسيروا الى نواب دقاق الى دمشق ، وكان دقاق بالرحبة فسار ايتكين الحلبي من دمشق وبخلها وطلع القلعة .

ووصل رضوان الى القبة (٦٨) فبلغه الخبر وعاد ورحل صنجيل عنها بعد أن قرر عليهم مالا ، ووصل دقاق فتسلم حمص وأحسن الى أهلها ونقل أهل جناح الدولة وأولاده الى دمشق ، وسلم حمص الى طغتكين .

وسار والي عزاز وأغار على الجومة - وهي من عمل انطاكية - فخرج عسكر أنطاكية وعسكر الرها فنزلوا المسلمية (٦٩) وقتلوا بعض أهلها ، وقطعوا على عدة مواضع قطائع أخذوها ، وأقاموا ببلد حلب أياما ، وراسلوا الملك رضوان .

واستقر الحال على سبعة آلاف دينار وعشرة رؤوس من الخيل ، ويطلقون الأسرى ما خلا من أسروه على المسلمية من الأمراء ، وذلك في سنة ست وتسعين .

ثم خرج الفرنج من تل باشر ، وأغاروا على بلاد حلب الشمالي والشرقي ، وأحرقوه ، وتكرر ذلك منهم ، ونزلوا على حصن بسرفوث ، وفتحوه بالأمان ، ووصلوا الى كفرلثا (٧٠) فكبسهم بنو عليم فانهزموا الى بسرفوث .

ووقع بين الفرنج وبين سكمان وجكرمش وقعة عظيمة استظهر فيها المسلمون ، وهلك الفرنج ، وأسر القمص ، وغنم المسلمون غنيمة عظيمة (٧١) .

وكان الملك رضوان قد سار إلى الفرات ينتظر ما يكون من خبر الفرنج ، فلما وصله الخبر انفذ إلى الجزر وغيره من أعمال حلب التي في أيدي الفرنج ، فأمرهم بالقبض على من عندهم من

الفرنج ، فوثب أهل الفدوة وسرمين ، ومعة مصريين وغيرها ففعلوا ذلك .

وطلب بعض الفرنج الأمان من رضوان فأمنهم من القتل ، وحملهم أسرى ، ولم يبق بأيدي الفرنج غير الجبل و « هاب » (٧٢) ، وحصون المعرة ، وكفر طاب ، وصوران (٧٣) .

فوصل شمس الخواص وفتح صوران ، فهرب من كان بلطمين وكفر طاب وبلد المعرة والبارة الى أنطاكية ، وسلموها الى رضوان وأصحابه ما خلا « هاب » .

واسترجع رضوان بالس والفايا ممن كان بهما من أصحاب جناح الدولة وجرى بحماسة خاف ، وخافوا من شمس الخواص ، فكاتبوا رضوان ، وسلموها اليه وسلمية ، فأمنت أعمال حلب وتراجع أهلها اليها وقوي جأش رضوان .

واتصلت غارات عسكر حلب الى بلد أنطاكية ، وعرف بيمند ضعفه عن حفظ البلد ، وأنه لم يفلت من وقعة سكرمان الا في نفر قليل ، وخاف من المسلمين فصار الى بلاده في البحر يستنجد بمن يخرج بهم الى البلاد ، واستخلف ابن أخته طنكريد يدبر أمر أنطاكية والرها (٧٥) .

ومات الملك دقاق سنة سبع وتسعين في رمضان ، وأوصى بالملك لولد له صغير اسمه تقيش (٧٦) ، وجعل التسيير الى أتابك طغتكين ، فتوجه الملك رضوان نحو دمشق ، وحاصرها ، وقرر له الخطبة والسكة ، فلم تستتب أموره وعاد الى حلب .

ثم إنه خرج في شهر رجب من سنة ثمان وتسعين ، وجمع خلقا كثيرا ، وعزم على قصد طرابلس معونة لآخر الملك بن عمار على الفرنج النازلين عليه .

وكان الأرمن الذين في حصن أرتاح قد سلموه الى الملك رضوان لجور الأفرنج ، فخرج طنكريد من أنطاكية لاستعادة أرتاح ، وخرج جميع من في أعماله من الأفرنج معه ، ونزل عليها ، فتوجه نحوه رضوان في عساكره وجموعه وجميع من أمكنه من عمل حلب والأحداث .

فلما تقاربا نشبت الحرب بين الفريقين فثبت راجل المسلمين وانهزمت الخيل ، ووقع القتل في الرجالة فلم يسلم منهم الا من كتب الله سلامته ، ووصل الفل الى حلب ، وقتل من المسلمين مقدار ثلاثة الاف مابين فارس وراجل ، وهرب من بأرتاح من المسلمين .

وقصد الأفرنج بلد حلب فأجفل أهله ، ونهب من نهب وسبى من سبى ، وذلك في الثالث من شعبان .

واضطربت أحوال بلد حلب من ليلون الى شيزر ، وتبدل الخوف بعد الأمن والسكون ، وهرب أهل الجوزر وليلون الى حلب ، فأدركهم خيل الأفرنج فسبوا أكثرهم ، وقتلوا جماعة .

وكانت هذه الزكبة على أعمال حلب أعظم من الزكبة الأولى على كلا .

ونزل طنكريد على تل أعزى - من عمل ليلون - وأخذنه وأخذ بقية الحصون التي في عمل حلب .

ولم يبق في يد الملك رضوان من الأعمال القبلية الا جماعة ومن الغربية الا الأثارب ، والشرقية والشمالية في يده ، وهي غير أمنة .

وسير أبو طاهر الصائغ الباطني جماعة من الباطنية من أهل سمرمين الى خلف بن ملاعب بتدبير رجل يعرف بسابن القنچ السرميني ، من دعاة الاسماعيلية ، فقتلوه ووافقهم جماعة من أهل

أفامية ، ونقبوا سور الحصن ، ودخلوا منه ، وطلع بعضهم الى القلعة فأحس بهم ، فخرج فطعنه أحدهم بخشيت (٧٧) فرمى بنفسه ، فطعن أخرى فمات ، ونادوا بشعار الملك رضوان .

ووصل ابو طاهر الصائغ الى الحصن عقيب ذلك وأقام به ، وسار طنكريد الى أفامية ، فقطع عليها مالا أخذه ، وعاد فوصله مصبح بن خلف بن ملاعب وبعض اصحابه ، فأطمعوه في أفامية ، فعاد ونزلها ، وحاصرها فتسلمها في الثالث عشر من محرم من سنة خمسمائة بالأمان .

وقتل ابن القنج السرميني بالعقوبة ، ولم يف لابي طاهر الصائغ بالأمان ، وحمله معه اسيرا فاشتري نفسه بمال ، ودخل حلب .

وفي سنة احدى وخمسمائة ، عصى ختلف بقلعة عزاز ، واستقر ان يسلمها الى طنكريد ، ويعوضه عنها موضعا غيرها ، فसार رضوان اليها فتسلم عزاز منه .

وبلغ رضوان ، في سنة احدى وخمسمائة ، ما ذكر به من مشايعة الباطنية ، وأنه لعن بذلك في مجلس السلطان محمد بن ملكشاه ، فأمر أبا الغنائم ابن أخي ابن القنج الباطني الذي عمل في قتل ابن ملاعب ماديبر الخروج من حلب فيمن معه ، فاندسل وخرج بجماعة من اصحابه بعد ان قتل افراد منهم .

وفي سنة احدى - وقيل : اثنتين - وخمسمائة اجتمع جاولي سقاوة وجوسلين الفرنجي ، على حرب طنكريد صاحب انطاكية ، واستنجد طنكريد بالملك رضوان ، فأمدّه بعسكر حلب والتقوا ، فقتل من الفرنج جماعة .

ووصل الى جاولي من أخبره أن الفرنج يريدون الاجتماع عليه فمال على أصحابه من الفرنج وقتل فيهم ، وهرب بعد أن قتلهم عن آخرهم وهلك جميع رجاله طنكريد وأكثر خيله .

وعاد الى أنطاكية وعاد عسكر حلب إلى رضوان ، فتسلم بالاس
من أصحاب جاولي ، وخرج بيمنند من بلاده ومعه خلق عظيم ، ثم
عاد وتوفي سنة أربع وخمسمائة ، وكفي المسلمون شره .

وفي سنة ثلاث وخمسمائة ، كاتب السلطان الأمير سركمان
القطبي صاحب أرمينية ومودود صاحب الموصل ، يأمرهما بالسير
الى جهاد الفرنج ، فجمعا وسارا ، ووصل اليهما نجم الدين
ايلغازي بن أرتق في خلق كثير من التركمان ، فرحلوا الى الرها
فنزّلوا عليها وأحرقوا بها في شوال من هذه السنة .

فاتفق الفرنج كلهم ، وأزالوا ماكان بينهم من الشحناء ، وكان
المسلمون في جمع عظيم ، فتصافى طنكريد وبغدوين وابن صنجيل بعد
النفار ، وقصدوا انجاد من بها من الفرنج ، وأحجموا عن العبور
الى الجانب الجزري لكثرة من به من عساكر المسلمين .

فاندفع المسلمون عن الرها الى حران ليعبر الفرنج ويتمكنوا
منهم ، ووصلهم عسكر دمشق .

فحين عبر الفرنج وبلغهم خبر المسلمين عادوا ناكسين على
الاعقاب الى شاطئ الفرات ، فنهض المسلمون في
أثرهم ، وأدركتهم خيول الاسلام ، وقد عبر الأجلاد منهم ، فغزم
المسلمون جل سوادهم وأكثر أثقالهم ، واستباحوهم قتلا واسرا
وتغريقا في الماء ، وأقام المسلمون بازائهم على الفرات .

ولما عرف الملك رضوان هزيمة الفرنج عن الرها خرج ليتسلم
أعمال حلب التي كانت في أيدي الفرنج ، وقاتل ماامتنع عليه
منها ، وأغار على بلد أنطاكية وغنم منها مايجل قدره ، وكان بينه
وبينهم مهادنة نقضها .

وكاتب الفرنج رضوان يوهذون رأيه في نقض الهدنة ، فلما تحقق
سلامة طنكريد وعوبه رجع الى حلب .

وعاد الفرنج من الفرات فقصدوا بلد حلب من شرقيها ، فقتلوا من وجدوا ، وسبوا أهل الذقرة ، وأخذوا ماقدروا عليه من المواشي .

وهرب الناس نحو بـالس ، وعاد طنكريد ، فنزل على الأثارب (٧٨) ، وطيب قلوب الفلاحين من المسلمين ، وأمنهم ونصب على الأثارب المناجيق وكبشا عظيما ينطج به شرفات الأسوار فيلقبها ، فحرب أسوارها وكان يسمع نطحه من مسيرة نصف فرسخ .

وبذل رضوان لطنكريد في الموضع عشرين ألف دينار على أن يرذل فامتنع ، وقال : « قد خسرت ثلاثين ألف دينار ، فإن دفعتموها الي وأطلقتهم كل عبيد بحلب منذ ملكت أنطاكية فأنا أرحل » فاستعظم ذلك واتكل على الحوادث .

وكان الذي بقي في القلعة مقدار مائة دينار ، وأخذها الخازن على وسطه ، وهرب إلى الفرنج ، وهرب جماعة آخر من المسلمين إليهم فكتبوا إلى الملك رضوان كتابا على جناح طائر يخبرونه بما تجدد من قوة الحصار وقلة الذققة وقتل الرجال ، وأرسلوا الطائر فسقط في عسكر الفرنج ، فرماه أحدهم بذشابة فقتله .

وحمل الكتاب إلى طنكريد ، ففرح وقويت نفسه ، وبذل رضوان المال المطلوب له على أن يكون أقساطا ويضع عليه رهائن فلم يفعل ، ويؤس من في الأثارب من نجدة تصل إليهم فسلموها إلى طنكريد في جمادى الآخرة منها ، وأمن أهلها وخرجوا منها .

ثم صالح رضوان على عشرين ألف دينار وعشرة رؤوس من الخيل ، وقبضها وعاد إلى أنطاكية .

ثم عاد وخرج إلى الأثارب ، وقد أدركت الغلة ، وضعفت حلب بأخذ الأثارب ضعفا عظيما ، وطلب من حلب المقاطعة التي قررها على حلب وأسرى من الأرمن كان رضوان أخذهم وقت اغارته على

بلد انطاكية ، والفرنج على الفرات ، فأعادهم اليه ، وطلب بعض خيل الملك رضوان فأعطاه ، وطلب حرم الفلاحين المسلمين من الأثارب ، وكانوا وقت نزول طنكريد على الأثارب حصلوا بحرهم في حلب فأخرجهن اليه .

وضاق الأمر بأهل حلب ، ومضى بعضهم الى بغداد واستغاثوا في أيام الجمع ، ومنعوا الخطباء من الخطبة مستصرخين بالعساكر الاسلامية على الفرنج .

وقلت المغلات في بلد حلب ، فباع الملك رضوان في يوم واحد ستين خربة من بلد حلب لأهلها بالثمن البس ، وطلب بذلك استمالتهم ، وأن يلتزموا بالمقام بها بسبب أملاكهم ، وهي ستون خربة معروفة في دواوين حلب الى يومنا هذا ، غير ما باعه في غير ذلك اليوم من الأملاك (٧٩) .

ولذلك يقال أن بيع الملك من أصبح أملاك الحلبين لأن المصلحة في بيعها كانت ظاهرة لاحتياج بيت المال الى ثمنها ، ولعمارة حلب ببقاء أهلها فيها بسبب أملاكهم .

ولما استصرخ الحلبيون العساكر الاسلامية ببغداد وكسروا المنابر ، جهز السلطان العساكر للذب عنهم ، فكان أول من وصل مودود صاحب الموصل بعسكره الى شبختان ، ففتح تل قراد (٨٠) وعدة حصون .

ووصل أحمد بن الكردي في عسكر ضخم وسلكمان القطبي ، وعبروا الى الشام فنزلوا تل باشر ، وحصروها حتى اشرفت على الأخذ ، وكان طنكريد قد أخذ حصن بكسرايل (٨١) ، وتوجه مغيرا على بلد شيزر ونازلها .

وشرع في عمارة تل ابن معشر (٨٢) وضرب اللبن وحفر الجباب ليودع بها الغلة ، فلما بلغه نزول عساكر السلطان محمد على تل

باشر رحل عنها وأما العساكر الاسلامية النازلة على تل باشر فان
سكمان مات عليها - وقيل : بعد الرحيل عنها - وأشرف المسلمون
على أخذها فتطارح جوسلين الفرنجي صاحبها على أحمد ديل
الكردي وحمل اليه مالا ، وطلب منه رحيل العسكر عنه فأجابه الى
ذلك .

وكتب الملك رضوان الى مودود وأحمد ديل وغيرهما : « انني قد
تلفت وأريد الخروج من حلب ، فبادروا الى الرحيل » فحسن لهم
أحمد ديل الرحيل عنها بعد ان اشرفوا على أخذها ، ورحلوا الى
حلب ، فأغلق رضوان أبواب حلب في وجههم ، وأخذ الى القلعة
رهائن عنده من أهلها لئلا يسلموها .

ورتب قوما من الجند والباطنية الذين في خدمته لحفظ السور
ومنع الحلبيين من الصعود اليه ، وبقيت أبواب حلب مغلقة سبع
عشرة ليلة .

وأقام الناس ثلاث ليال ، ما يجدون شيئا يقتاتون به ، فكثرت
الأمراض من الضعفاء ، وخاف الأعيان على أنفسهم .

وساء تدبير الملك رضوان فأطلق العوام الأسنتهم بالسب له
وتعيبه ، وتحدثوا بذلك فيما بينهم ، فاشتد خوفه من الرعية أن
يسلموا البلد ، وترك الركوب بينهم .

وضبر (٨٣) انسان من السور فأمر به فضربت عنقه ، ونزع
رجل ثوبه ورماه الى آخر فأمر به فألقي من السور الى
أسفل ، فعاث العسكر فيما بقي سالما ببلد حلب بعد نهب الفرنج له
وسبيهم أهله .

وبث رضوان الحرامية تتخطف من يذفر من العساكر
فيأخذونه ، فرحلوا الى معرة النعمان في آخر صفر من سنة خمس

وخمسمائة ، وأقاموا عليها أياما ووجدوا حولها ماملاً صدورهم
مما يحتاجون اليه من الغلات وماعجزوا عن حمله .

وكان أتابك طغتكين قد حصل معهم ، فراسل رضوان بعضهم
حتى أفسد ما بينه وبينهم ، فظهر لأتابك منهم الوحشة ، فصار في
جملة مودود صاحب الموصل ، وثبت له مودود ووفى له .

وحمل لهم أتابك هدايا وتحفا من متاع مصر ، وعرض عليهم
المسير الى طرابلس والمعونة لهم بالأموال ، فلم يعرجوا وسار
أحمد بن برسق وعسكر سكمان نحو الفرات ، وبقي
مودود مع أتابك ، فرحلا من المعرة الى العاصي فنزلا على
الجلالي .

فنزل الفرنج أفامية : بغدوين وطنكرين وابن صنجيل وساروا
لقصد المسلمين فخرج أبو العساكر بن منقذ من شيزر بعسكره وأهله
واجتمعوا بمودود وأتابك وساروا اليهم .

ونزلوا قبلي شيزر والفرنج شمالي تل ابن معشر ، ودارت خيول
المسلمين حولهم ومنعواهم الماء ، والاتراك حول الشرائع بالقسي
تمنعهم الورد ، فأصبحوا هاربين سائرين ، يحمي بعضهم
بعضا .

ووصل الى حلب في هذه السنة في شهر ربيع الأول من سنة خمس
وخمسمائة ، رجل فقيه تاجر كبير يقال له أبو حرب عيسى بن محمد
الخندي ، ومعه خمسمائة جمل عليها اصناف التجارات ، وكان
شديدا على الباطنية انفق أموالا جلية على من يقاتلهم ، وكان قد
صحب من خراسان باطني يقال له أحمد بن نصر الرازي وكان أخوه
قد قتله رجال الخندي .

فدخل أحمد الى حلب ، (٨٤) ومضى الى أبي طاهر الصائغ
العجمي رئيس الباطنية بحلب ، وكان متمكنا من رضوان ، فصعد

الى رضوان ، وأطمعه في مال الفقيه أبي حرب ، وأراه أنه بريء من التهمة في بابه ، إذ هو معروف بعداوة الباطنية .

فطمع رضوان في ماله وطار فرحا ، وبعث غلمانا يتوكلون به ، وسير أبو طاهر الباطني معه جماعة من أصحابه ، فبينما أبو حرب الخجندي في غلمان له يستعرض أحماله وحوله جماعة من مماليكه وخدمه إذ هجم عليه أحمد بن نصر الرازي في جماعة من أصحاب أبي طاهر الباطني ، فقال لغلمانه : « أليس هذا رفيقنا ؟ » فقالوا : « هو هو » فوقعوا عليه فقتلوه .

وقتل الجماعة الذين معه من أصحاب أبي طاهر الباطني العجمي بأسرهم ، ثم قال أبو حرب : « الغياث بالله من هذا الباطني الغادر ، أمنا المخاوف وراعنا الى أن جئنا الى الأمانة ، فبعث علينا من يقتلنا »

فأخبر رضوان بذلك فأبلس ، وصار السنة والشيعية الى هذا الرجل ، وأظهروا انكار ماتم عليه ، وعبث أحدا ثم بجماعة من أحداث الباطنية فقتلوه ، ولم يتجاسر رضوان على انكار ذلك .

وكاتب الفقيه أبو حرب أتابك طغتكين وغيره من ملوك الاسلام فتوافت رسلهم الى رضوان يذكرون عليه ، فأذكر وحلف أنه لم يكن له في هذا الرجل نية .

وخرج الرجل عن حلب مع الرسل فعاد الى بلده ، ومكث الناس يتحدثون بما جرى على الرجل ونقص في أعين الناس ، فتوثبوا على الباطنية من ذلك اليوم .

ثم ان رضوان حين ضعف أمره بحلب رأى أن يستميل طغتكين أتابك اليه ويستصلحه ، فاستدعاه الى حلب عندما أراد أن ينزل طنكريد على قلعة عزاز ، وبذل له رضوان مقاطعة حلب عشرين ألف

دينار وخيلا وغير ذلك ، فامتنع طنكريد من ذلك ، فوصل طفتكين أتابك ، وتعاهدا على مساعدة كل منهما لصاحبه بالمال والرجال .

واستقر الأمر على أن أقام طفتكين الدعوة والسكة لرضوان بدمشق ، فلم يظهر منه بعد ذلك الوفاء بما تعاهدا عليه .

ومات طنكريد في سنة ست وخمسمائة ، واستخلف ابن اخته روجار وأدى إليه رضوان ما كان يأخذه منه طنكريد وهو عشرة آلاف دينار .

ووصل مودود الى الشام ، واتفق مع طفتكين على الجهاد ، وطلب نجدة من الملك رضوان فتأخرت الى أن اتفق للمسلمين وقعة استظهروا فيها على الفرنج ، ووصل عقيبا نجدة للمسلمين من رضوان ، دون المائة فارس وخالف فيما كان قرره ووعد به ، فأذكر أتابك ذلك ، وتقدم بإبطال الدعوة والسكة باسم رضوان من دمشق في أول ربيع الأول من سنة سبع وخمسمائة .

وكان رضوان يحب المال ، ولا تسمح نفسه باخراجه حتى كان أمراؤه وكتابه ينبزونه بأبي حبة ، وهو الذي أفسد أحواله وأضعف أمره .

ومرض رضوان بحلب مرضا حادا وتوفي في الثامن والعشرين من جمادي الآخرة سنة سبع وخمسمائة ، ودفن بمشهد الملك ، فاضطرب أمر حلب لوفاته وتأسف أصحابه لفقده ، وقيل : انه خلف في خزانته من العين والآلات والعروض والأواني ما يبلغ مقداره ستمائة ألف دينار .

وملك حلب بعده ابنه الب ارسلان ، ويعرف بالآخرس ، وعمره ست عشرة سنة ، وأمه بنت يغى سيان صاحب انطاكية ، وكان في كلامه حبسة وتمتمة فلذلك عرف بالآخرس ، وكان متهورا قليل

العقل ، ووضع عن أهل حلب ما كان والده جده عليهم من الرسوم والمكوس .

وقبض على أخوته ملك شاه ومبارك ، وكان مبارك من جارية وملك شاه من أمه ، فقتلهم ، وكذلك فعل أبوه رضوان بأخويه ، فانظر الى هذه المقابلة العجيبة ، وقبض جماعة من خواص والده فقتل بعضهم وأخذ أموال الآخرين .

وكان المتولي لتدبير أموره خادم لأبيه يقال له أولؤالييا ، وهو الذي أنشأ خازناته البلاط بحلب (٨٥) وكان قبل وصوله الى رضوان خادماً لتاج الرؤساء بن الخلال ، فدبر اسوأ تدبير مع سوء تدبيره في نفسه .

وكان أمر الباطنية قد قوي بحلب في أيام أبيه ، وتابعهم خلق كثير على مذهبهم طلباً لجاههم ، وصار كل من أراد أن يحمي نفسه من قتل أو ضيم التجأ إليهم .

وكان حسام الدين بن دملاج وقت وفاة رضوان بحلب ، فصاروا معه ، وصار ابراهيم العجمي الداعي من نوابه في حفظ القليعة بظاهر بالس .

فكتب السلطان محمد بن ملك شاه الى ألب أرسلان وقال له : « كان والدك يخالفني في الباطنية وأنت ولدي فأحب أن تقتلهم » .

وشرع الرئيس ابن ببيع متقدماً الأحداث في الحديث مع ألب أرسلان في أمرهم ، وقرر الأمر معه على الإيقاع بهم ، والنكاية فيهم ، فساعد على ذلك .

فقبض على أبي طاهر الصائغ وقتله ، وقتل اسماعيل الداعي وأخا الحكيم المنجم والأعيان من أهل هذا المذهب بحلب ، وقبض على زهاء مائتي نفس منهم .

وحبس بعضهم واستصفى أموالهم ، وشفع في بعضهم فمنهم من أطلق ومنهم من رمى من أعلى القلعة ، ومنهم من قتل ، وأفلت جماعة منهم ففرقوا في البلاد ، وهرب ابراهيم الداعي من القليعة الى شيزر ، وخرج حسام الدولة بن دملج عند القبض عليهم فمات في الرقة .

وطلب الفرنج من ألب أرسلان المقاطعة التي لهم بحلب ، فدفعها اليهم من ماله ، ولم يكلف أحدا من أهل حلب شيئا منها .

ثم أن ألب أرسلان رأى أن المملكة تحتاج الى من يدبرها أحسن تدبير ، وأشار خدمه وأصحابه عليه بأن كاتب أتابك طغتكين أمير دمشق ، ورغب في استعطافه ، وسأله الوصول اليه ليدير حلب والعسكر ، وينظر في مصالح دولته ، فأجابه الى ذلك ، ورأى موافقته لكونه صبييا لا يخافه الكفار ولا رأي له ، فدعا له على منبر دمشق بعد الدعوة للسلطان وضربت السكة باسمه ، وذلك في شهر رمضان .

وأوجبت الصلوة أن يخرج ألب أرسلان بنفسه في خواصه ، وقصد أتابك الى دمشق ليجتمع معه ، ويؤكد الأمر بينه وبينه ، فلقيه أتابك على مرحلتين ، وأكرمه ووصل معه وأنزله بقلعة دمشق .

وبالغ في اكرامه وخدمته والوقوف على رأسه ، وحمل اليه دست ذهب وطييرا مرصعا وعدة قطع ثمينة ، وعدة من الخيل ، وأكرم من كان في صحبته (٨٦)

وأقام بدمشق أياما وسار في أول شوال عائدا الى حلب ، ومعه أتابك وعسكره ، فأقام عنده أياما واستخلص كمشتكين البعلبكي مقدم عسكره ، وكان قد أشار عليه بعض اصحابه بقبضه ، وقبض جماعة من أعيان عسكره وقبض الوزير أبي الفضل بن

الموصل ، ففعل ذلك ، فاستوهب أتابك منه كمشتكين فوهبه إياه .

وقبض على رئيس حلب صاعد بن ببيع ، وكان وجيها عند أبيه رضوان ، فصادره بعد التضيق عليه حتى ضرب نفسه في السجن بسكين ليقتل نفسه ، ثم أطلقه بعد أن قرر عليه مالا ، وأخرجه وأهله من حلب ، فتوجه إلى مالك بن سالم إلى قلعة جعبر .

وسلم رئاسة حلب إلى إبراهيم الفراتي ، فتمكن ولقب ونوه باسمه ، وإليه تنسب عرصة ابن الفراتي بالقرب من باب العراق بحلب ، ثم رأى أتابك من سوء السيرة وفساد التدبير مع التقصير في حقه والأعراض عن مشورته ما أنكره ، فعاد من حلب إلى دمشق ، وخرجت معه أم الملك رضوان هربا منه .

وساءت سيرة ألب أرسلان ، وانهمك في المعاصي واغتصاب الحرم والقتل ، وبلغنا (٨٧) أنه خرج يوما إلى عين المباركة متنزها ، وأخذ معه أربعين جارية ، ونصب خيمة ، ووطئهن كلهن .

واستولى لؤلؤ اليايا على الأمر ، فصادر جماعة من المتصرفين وأعاد الوزارة إلى أبي الفضل بن الموصل ، وجمع ألب أرسلان جماعة من الأمراء ، وأدخلهم إلى موضع بالقلعة شبيه بالسرداب لينظروه ، فلما دخلوا إليه قال لهم : « ايش تقولون في من يضرب رقابكم كلكم ههنا ؟ » فقالوا : « نحن ممالكك وبحكمك » وأخذوا ذلك منه بطريق المزاح ، وتضرعوا له حتى أخرجهم .

وكان فيهم مالك بن سالم صاحب قلعة جعبر، فلما نزل سار عن حلب، وتركها خوفا على نفسه .

وخاف منه لؤلؤ اليايا فقتله بفراشه بالمركز بقلعة حلب، في شهر

ربيع الآخر من سنة ثمان وخمسمائة ، وساعده على ذلك قراجا التركي وغيره .

ولزم لؤلؤ اليايا قلعة حلب وشمس الخواص في العسكر ، ونصب لؤلؤ أخاه صغيرا عمره ست سنين ، واسمه سلطان شاه بن رضوان ، وتولى لؤلؤ تدبير مملكته ، وجرى على قاعدته في سوء التدبير .

وكتب لؤلؤ ومقدمو حلب أتابك طغتكين وغيره يستدعونهم الى حلب لدفع الفرنج عنها ، فلم يجب أحد منهم الى ذلك .

ومن العجائب أن يخطب الملوك لحلب فلا يوجد من يرغب فيها ، ولا يمكنه ذب الفرنج عنها ، وكان السبب في ذلك أن المقدمين كانوا يريدون بقاء الفرنج ليثبت عليهم ما هم فيه .

وقل الربيع ببلد حلب لاستيلاء الفرنج على أكثر بلداتها والخوف على باقيه وقلت الأموال واحتيج اليها لصرفها الى الجند ، فباع لؤلؤ قرى كثيرة من بلد حلب ، وكان المتولي بيعها القاضي أبا غانم محمد بن هبة الله بن أبي جرامة قاضي حلب ، ولؤلؤ يتولى صرف أثمانها في مصالح القلعة والجند والبلد .

وقبض لؤلؤ على الوزير أبي الفضل بن الموصول ، واستأصل ماله ، وسار الى القلعة فأقام عند مالك بن سالم ، واستوزر أبا الرجاء بن السرطان الرحبي مدة ، ثم صادره وضربه وطلب أبا الفضل بن الموصول فأعاده الى الوزارة بحلب .

وجاءت زلزلة عظيمة ليلة الأحد ثامن وعشرين من جمادى الآخرة من سنة ثمان بحلب وحران وأنطاكية ومصرعش والثغور الشامية ، وسقط برج باب أنطاكية الشمالي وبعض دور العقبة وقتلت جماعة .

وخربت قلعة عزاز ، وهرب واليها الى حلب ، وكان بينه وبين
لؤلؤ مواحشة ، فحين وصل الى حلب قتله وأنفذ اليها من تداركها
بالعمارة والترميم ، وخرب شيء يسير في قلعة حلب ، وخرب أكثر
قلعة الأثارب وزربنا .

وقيل : ان مؤذن مسجد عزاز كان حارسا بالقلعة فحرس ونام
على برج المسجد بالقلعة ، فلما جاءت الزلزلة ألقت به على كتف
الخدق وهو نائم لم يعلم بها ، فاجتاز به جماعة فظنوه
ميتا ، فأخذوا عنه الحاف فانتبه وسألهم فأخبروه بما جرى .

وصار شمس الخواص مقدم عسكر حلب ، ومتولي اقطاع
الجند ، وكانت سيرته اذ ذاك صالحة ، وكان لؤلؤ في أول أمره
مقيما بقلعة حلب لا ينزل منها ويدبر الأمور ، فكتب الى السلطان
على سبيل المغالطة يبذل له تسليم حلب والخزائن التي خلفها
رضوان وولده ألب أرسلان ، ويطلب انفاذ العساكر اليه .

فوصل برسق بن برسق مقدم الجيوش ومذكوبرس (٨٨) وغيرهم
من أمراء السلطان في سنة تسع وخمسمائة ، فتغيرت نية لؤلؤ
ال خادم عما كان كتب به الى السلطان ، وكتب الى أتابك طغتكين
يستصرخه ويستتجبه ، ووعده تسليم حلب اليه ، وأن يعرضه
طغتكين من أعمال دمشق ، فبادر الى ذلك (٨٩) .

ووصل حلب ، والعساكر السلطانية ببالس متوجهين الى حلب
فرحلوا منها الى المعرة ، ووصلهم الخبر ان ذلك اليوم وصل أتابك
الى حلب فأعرضوا عن حلب ، وساروا الى حماة فتسلموها .

وتسلموا رفيه (٩٠) من أولاد علي كرد ، وسلموها الى خير
خان بن قراجا ، فخاف طغتكين من عساكر السلطان أن يقصد
دمشق ، فأخذ عسكر حلب ، وشمس الخواص وايلغازي بن
أرتق ، واستنجد بصاحب أنطاكية روجار وغيره من ملوك الفرنج
ونزلوا أجمعين أفامية .

ونزلت العساكر السلطانية أرض شيزر ، وجعل أتابك يريث الفرنج عن اللقاء خوفا من الفرنج أن يكسروا العساكر السلطانية فيأخذوا الشام جميعه ، أو يذكسروا فتستولي العساكر السلطانية على ما في يده .

وخاف الفرنج وضائق صدور أمراء عسكر السلطان من المصابرة ، فرحلوا ونزلوا حصن الأكراد وأشرف على الأخذ ، فاتفق أتابك والفرنج على عود كل قوم الى بلادهم ، ففعلوا ذلك .

وتوجه أتابك الى دمشق ، وعاد عسكر حلب وشمس الخواص الى حلب ، فقبض عليه لؤلؤ الخادم واعتقله فعادت عساكر السلطان حينئذ عن حصن الأكراد ، وساروا الى كفر طاب ، وحصروا حصنا كان الفرنج عمروه بجامعها وأحكموه ، فأخذوا وقتلوا من فيه ، ورحلوا الى معرة النعمان .

وأمن الترك وانتشروا في أعمال المعرة واشتغلوا بالشرب والنهب ووقع التحاسد فيما بينهم ، ووصل رسول من بزاعا من جهة شمس الخواص يستدعيهم لتسليم بزاعا ، ويقول ان شمس الخواص مقبوض عليه عند لؤلؤ الخادم ، ولؤلؤ يكشف أخبار العساكر ويطالع بها الفرنج . ورحل برسق وجامدار صاحب الرحبة نحو دانيث (٩١) يطلبون حلب ، فنزل جامدار في بعض الضياع .

ووصل برسق بالعسكر الى دانيث بكرة الثلاثاء العشرين من شهر ربيع الآخر ، والفرنج يعرفون أخبارهم ساعة فساعة ، فوصلهم الفرنج ، وقصدوا العسكر من ناحية جبل السماق ، والعسكر على الحال التي ذكرناها من الانتشار والتفرق ، فلم يكن لهم بالفرنج طاقة ، فانهزموا من دانيث الى تل السلطان . (٩٢)

واستتر قوم في الضياع من العسكر فنهبهم الفلاحون وأطلقوهم ، وغنم أهل الضياع مما طرحوه وقت هزيمتهم ما يفوت الاحصاء ، وأخذ الكفار من هذا ما يفوت الوصف ، وغنموا من الكراع والسلاح والخيام والدواب وأصناف الآلات والامتعة ما لا يحصى ، ولم يقتل مقدم ولا مذكور .

وقتل من المسلمين نحو خمسمائة وأسر نحوها واجتمع العسكر على تل السلطان ، ورحلوا الى الذقرة مخذولين مختلفين ، ونزلوا الذقرة ، وكان أوبنا (٩٣) قد طلع أصحابه الى حصن بزاعا ، وكان قد تقدم العسكر اليها ، فلما بلغهم ذلك نزلوا ووصلوا الى العسكر .

وتوجهت العساكر الى السلطان والى بلادهم ، ووصل طغتكين من دمشق فتسلم ريفية (٩٤) ممن كانوا بها ، وأطلق لؤلؤ شمس الخواص من الاعتقال ، وسلم اليه ما كان أقطعه من بزاعا وغيرها ، فوصل الى طغتكين فرد عليه رفيه ، وعاد الى دمشق واستصحبه معه .

وأما لؤلؤ الخادم فانه صار بعد ملازمة القلعة ينزل منها في الاحيان ويركب ، فاتفق أنه خرج في سنة عشر وخمسمائة بعسكر حلب والكتاب الى بالاس ، وهو في صورة متصيد ، فلما وصل الى تحت قلعة نادر قتله الجند (٩٥).

واختلف في خروجه ، ف قيل: انه كان حمل مالا الى قلعة دوسر ، وأودعه عند ابن مالك فيها ، وأراد ارتجاعه منه والعود الى حلب ، وكان السلطان قد اقطع حلب والرحبة أق سذقر البرسقي (٩٦) ، فواطأ جماعة من أصحابه على أن أظهروا مفارقتة ، وخدموا لؤلؤا وصاروا من خواصه ، وواطأهم على قتل لؤلؤ ، وأمل أنهم اذا قتلوه تصح له اقطاع حلب فقتلوه .

وسار بعضهم الى الرحبة فأعلمه ، فأسرع أق سذقر البرسقي

المسير الى حلب من الرحبة ، وانضاف بعض عسكره الى بقية القوم الذين قتلوه ، وطمعوا في أخذ حلب لأنفسهم ، وساروا اليها فسبقهم ياروقتاش الخادم - أحد خدم الملك رضوان - وحلب .

وقيل : إن أولوا كان قد خاف فأخذ أمواله ، وخرج طالبا بلاد الشرق للنجاة بأمواله ، فلما وصل الى قلعة نادر قال سنقر الجكرمشي : «تتركوه يقتل تاج الدولة ويأخذ الأموال ويمضي!» وصاح بالتركية: «أرنب أرنب» فضربوه بالسهم فقتلوه .

ولما خرج عن حلب اقامت القلعة في يد أمنة خاتون بنت رضوان يومين الى أن وصل ياروقتاش الخادم مبادرا فدخل حلب ونزل بالقصر ، وأخرج بعض عسكر حلب ، وأوقع بالذين قتلوا أولوا ، وارتجع ما كان أخذه من عسكر حلب وانهزم بعض من كان في النوبة فالتقوا أق سنقر في بالس في أول محرم سنة إحدى عشرة وخمسمائة .

ولم يتسهل للبرسقي ما أمل ، وراسل أهل حلب ومن بها في التسليم اليه فلم يجيبوه الى ذلك .

وكاتب ياروقتاش الخادم نجم الدين ايلغازي بن أرتق ليصل من ماربين ويدفع أق سنقر ، وكاتب روجار صاحب انطاكية أيضا فوصل إلى بلد حلب ، وأخذ ما قدر عليه من أعمال الشرقية ، فحينئذ أيس البرسقي من حلب ، وانصرف من أرض بالس الى حمص فأكرمه خيرخان صاحبها ، وسار معه الى طغتيكين الى دمشق فأكرمه ، ووعدته بانجاده على حلب .

وهادن ياروقتاش صاحب انطاكية روجار ، وحمل اليه مالا وسلم اليه حصن القبة ، ورتب مسير القوافل من حلب الى القبة عليه ، وأن يؤخذ المكس منهم له .

ثم إن ياروق تاش طلع الى قلعة حلب ، وعزم على أن يعمل حيلة يوقعها بالمقدمين ويملكها مثل أولو ، فقبض عليه مقدمو القلعة بأمر بنات رضوان بعد تمام شهر من ولايته ، وأخرجوه من حلب وولوا في القلعة خادما من خدم رضوان .

ورد أمر سلطان شاه وتقدمه العسكر وتدير الأمور الى عارض الجيش العميد أبي المعالي الحسن بن الملحى ، فدبر الأمور وساسها ، وضعت حلب وقل ارتفاعها وخربت أعمالها .

ووصل ايلغازي بن أرتق الى حلب فأنزلوه في قلعة الشريف ، ومنعوه من القلعة الكبيرة ، واستولى على تدبير الأمور وتربية سلطان شاه في سنة إحدى عشرة وخمسمائة ، وسلموا اليه بالاس والقلعة .

وقبض على أبي المعالي بن الملحى ، وقصر ارتفاع حلب عما يحتاج إليه ايلغازي والتركمان الذين معه ، ولم ينتظم له حال ، واستوحش من أهل حلب وجندوها فخرج عنها الى ماربين ، وبقيت بالاس والقلعة في يده ، وأخرج ابن الملحى من الاعتقال وأعيد الى تدبير الأمور .

وأفسد الجند الذين ببالس في أعمال حلب فاستدعوا الفرنج ، وخرج بعض عسكر حلب ومعهم قطعة من الفرنج وحصروها ، فوصل ايلغازي في جمع من التركمان اليها ، فعاد عسكر حلب والفرنج عن بالاس وباعها لابن مالك ، وعاد الى ماربين ، وبقي تمر تاش ولده رهينة في حلب .

ووصل في هذه السنة أتابك طغتيكن وأق سذقر البرسقي الى حلب ، وراسل أهلها في تسليمها فامتنعوا من إجابته ، وقالوا : « ما نريد احدا من الشرق » وأنفذوا واستدعوا الفرنج من أنطاكية لدفعه عنهم ، فعاد أق سذقر الى الرحبة وأتابك الى دمشق .

واشتد الغلاء بأنطاكية وحلب ، لأن الزرع عرق ولحقه هواء عند ادراكه أتلغه ، وهرب الفلاحون للخوف ، واستدعى أهل حلب ابن قراجا من حمص ، فرتب الأمور بها ، وحصنها ، وسار إلى حلب ، ونزل في القصر خوفا من ايلغازي لما كان بينهما (٩٨).

وخرج أتابك إلى حمص ، ونهب أعمالها وشعثها ، وأقام عليها مدة ، وعاد إلى دمشق لحركة الفرنج ، وخرجت قافلة من حلب إلى دمشق فيها تجار وغيرهم ، وحملوا نضائرهم وأموالهم لما قد أشرف عليه أهل حلب ، فلما وصلوا إلى القبة نزل الفرنج اليهم ، وأخذوا منهم المكس ، ثم عادوا وقبضوهم وما معهم بأسرهم ، ورفعوهم إلى القبة ، وحملوا الرجال والنساء بعد ذلك إلى إفامية ، ومهرة النعمان ، وحبسوهم ليقروا عليهم مالا .

فراسلهم أبو المعالي بن الملحى ورغبهم في البقاء على الهدنة وأن لا ينقضوا العهد ، وحمل إلى صاحب انطاكية مالا وهدية ، فرد عليهم الأحمال والأثقال وغير ذلك ، ولم يعدم منه شيء .

وقوي طمع الفرنج في حلب لعدم النجد وضعفها ، وغدروا ونقضوا الهدنة ، وأغاروا على بلاد حلب ، وأخذوا مالا لا يحصيه إلا الله ، فراسل أهل حلب أتابك طغتكين ، فوعدهم بالانجاد ، فكسره جوسلين وعساكر الفرنج ، وراسلوا صاحب الموصل وكان أمره مضطربا بعد عودته من بغداد .

ونزل الفرنج بعد عودتهم من كسرة أتابك على عزاز ، وضايقوها ، وأشرقت على الأخذ ، وانقطعت قلوب أهل حلب إذ لم يكن بقي لحلب معونة إلا من عزاز وبلدها ، وبقية بلاد حلب في أيدي الفرنج ، والشرقي خراب مجذب ، والقوت في حلب قليل جدا ، ومكوك الحنطة بدينار ، وكان إذ ذاك لا يبلغ نصف مكوك بمكوك حلب الآن ، وما سوى ذلك مناسب له .

ويئس أهل حلب من نجدة تصلهم من أحد من الملوك ، فاتفق

رأيهم على أن سيروا الأعيان والمقدمين إلى ايلغازي بن ارتق ، واستدعوه ليدفع الفرنج عنهم وظنوا أنه يصل في عسكر يفرج به عنهم ، وضمنوا له مالا يقسطونه . على حلب يصرفه إلى العساكر .

فوصل في جند يسير والمدير لحلب جماعة من الخدم ، والقاضي أبو الفضل بن الخشاب هو المرجوع إليه في حفظ المدينة والنظر في مصالحها ، فامتنع عليه البلد ، واختلفت الآراء في دخوله ، فعاد فلحقه القاضي أبو الفضل بن الخشاب وجماعة من مقدمين ، وتلطفوا به ولم يزالوا به حتى رجع .

ووصل إلى حلب ، وبخلها ، وتسلم القلعة ، وأخرج منها سائر الجند وأصحاب رضوان وأنزل سلطان شاه بن رضوان وبنات رضوان في دار من دور حلب .

وقبض على جماعة ممن كان يتعلق بالخدم ويخدمهم ، وأخذ منهم ما كان صار إليهم من مال رضوان ومال الخدم الذين استولوا على حلب بعده .

وراسل الفرنج في مال يحمله عن عزاز ليرحلوا ، فلم يلتفتوا لقوة اطماعهم في أمر الاسلام ، وكان ايلغازي يعجز بحلب عن قوت الدواب ، وحلب على حد التلف .

فلما عرف من بعزاز ذلك ويئسوا من دفع الفرنج سالموها إلى الفرنج ، وراسلهم من بحلب في صلح يستأنفونه معهم ، فأجابوا إلى ذلك لطفا من الله بهم ، على أن يسلموا إلى الفرنج تل هراق ويؤدون القطيعة المستقرة على حلب عن أربعة أشهر ، وهي ألف دينار ، ويكون لهم من حلب شمالا وغربا .

وزرعوا أعمال عزاز وقوا فلاحها وعادوا إلى أنطاكية وصار يدخل إلى حلب ما يتبلغون به من القوت .

وسار إيلغازي الى الشرق ليجمع العساكر ويعود بها الى حلب ، فسار اليه أتابك طغتيكن ، والتقاءه بقلعة دوسر ، ووافقته على ذلك ، وسارت الرسل الى ملوك الشرق والتــــركمان يستجدونهم .

وكان ابن بديع رئيس حلب عند ابن مالك بقلعة دوسر ، فنزل الى ايلغازي ليطالب منه العود الى حلب ، فلما صار عند الزورق ليقطع الماء الى العسكر وثب عليه اثنان من الباطنية فضرباه عدة سكاكين ، ووقع ولداه عليهما فقتلاههما ، وقتل ابن بديع واحد ولديه وجرح الآخر ، وحمل الى القلعة فوثب آخر من الباطنية وقتله ، وحمل الباطني ليقتل فرمى بنفسه في الماء وغرق .

وتوجه ايلغازي الى ماربين ومعه أتابك ، وراسلا من بعد وقرب من عساكر المسلمين والتركمان ، فجمعا عسكرا عظيما ، وتوجه ايلغازي في عسكر يزيد عن أربعين ألفا في سنة ثلاث عشرة وخمسمائة ، وقطع الفرات من عبر بدايا وسنجة (٩٩).

وامتدت عساكره في أرض تل باشر وتل خالد وما يقاربهما ، يقتل وينهب ويأسر ، وغنموا كل ما قدروا عليه ، ووصل من رسل حلب من يستحثه على الوصول لتواصل غارات الفرنج من جهة الأثارب وأياس أهلها من أنفسهم ، فسار الى مرج دابق ثم الى المسلمية ، ثم الى قنسرين في أواخر صفر من سنة ثلاث عشرة وخمسمائة .

وسارت سراياه في أعمال الروج والفــــرنج يقتلون ويأسرون ، وأخذوا حصن قسطنطين في الروج ، وجمع سرجال صاحب انطاكية الفرنج والأرمن وغيرهم ، وخرج الى جسر الحديد ، ثم دخلوا ونزلوا بالبلاط بين جبلين ، مماليك درب سرمد ، شمالي الأثارب ، وذلك في يوم الجمعة التاسع من شهر ربيع الاول .

وضجر الأمراء من طول المقام ، وإيلغازي ينتظر أتابك طغتكين ليصل إليه ويتفقا على ما يفعلانه ، فاجتمعوا وحدثوا إيلغازي على مناجزة العدو فجدد إيل غازي الأيمان على الأمراء والمقدمين أن يناصحوهم في حربهم ، ويصابروا في قتال العدو ، وأنهم لا يذكرون ويبذلون مهجهم في الجهاد ، فحلفوا على ذلك بذفوس طيبة .

وسار المسلمون جرايد ، وخلفوا الخيام بقدرسين ، وذلك في يوم الجمعة السادس عشر من شهر ربيع الأول ، فباتوا قريبا من الفرنج وقد شرعوا في عمارة حصن مطل على تل عفرين والفرنج يتوهمون أن المسلمين ينازلوا الأتارب أو زرينا ، فما شعروا عند الصبح إلا ورايات المسلمين قد أقبلت ، وأحاطوا بهم من كل جانب .

وأقبل القاضي أبو الفضل بن الخشاب يحرض الناس على القتال ، وهو راكب على حجر وببده رمح ، فراه بعض العسكر فازدراه وقال : « إنما جئنا من بلادنا تبعا لهذا المعمم ! » فأقبل على الناس ، وخطبهم خطبة بليغة استنهض فيها عزائمهم ، واسترهدف همهم بين الصنفين ، فأبكى الناس وعظم في أعينهم .

ودار طغان ارسلان بن دملاج من ورائهم ونزل في خيامهم ، وقتل من فيها ونهبها ، وألقى الله النصر على المسلمين ، وصار من انهزم من الفرنج وقصد الخيام قتل .

وحمل الترك بأسرههم حملة واحدة من جميع الجهات صدقوهم فيها ، وكانت السهام كالجراد ، وكثرة ما وقع في الخيل والسواد من السهام عادت منهزمة وغلبت فرسانها ، وطحنت الرجالة والاتباع والغلمان بالسهام ، وأخذوهم بأسرههم أسرى .

وقتل سرجال في الحرب ، وفقد من المسلمين عشرون نفرا منهم سليمان بن مبارك بن شبل ، وسلم من الفرنج مقدار عشرين نفرا لا غير ، وانهزم جماعة من أعيانهم .

وقتل في المعركة ما يقارب خمس عشر ألفاً من الفرنج ، وكانت الواقعة يوم السبت وقت الظهر ، فوصل البششير إلى حلب بالنصر ، والمصاف قائم ، والناس يصلون صلاة الظهر بجامع حلب ، سمعوا أصيحة عظيمة بذلك من نحو الغرب ، ولم يصل أحد من العسكر إلى نحو صلاة العصر .

وأحرق أهل القرى القتل من الفرنج ، فوجد في رماد فارس واحد أربعون نصل نشاب ، ونزل ايلغازي في خيمة سرجال ، وحمل إليه المسلمون ما غنموه ، فلم يأخذ منهم إلا سلاحاً يهديه لملوك الاسلام ، ورد عليهم ما حملوه بأسره .

ولما حضر الأسرى بين يدي ايلغازي ، كان فيهم رجل عظيم الخلقة مشتهراً بالقوة ، واسره رجل ضعيف قصير قليل السلاح ، فلما حضر بين يدي ايلغازي قال له التركمان : «أما تستحي يا سرك مثل هذا الضعيف وعليك مثل هذا الحديد؟» فقال: «والله ما أخذني هذا ، ولا هو مولاي وإنما أخذني رجل عظيم أعظم مني وأقوى ، وسلمني إلى هذا ، وكان عليه ثوب أخضر وتحتة فرس أخضر» . (١٠١) .

وتفرقت عساكر المسلمين في بلد انطاكية والسويدية وغيرهما يقتلون ويأسرون وينهبون ، وكانت البلاد مطمئنة لم يبلغهم خبر هذه الواقعة ، فأخذ المسلمون من السبي والغنائم والدواب ما يفوت الاحصاء ، ولم يبق أحد من الترك إلا امتلاً صدره ويده بالغنائم والسبي .

ولقي بعض السرايا بغدوين الرويس وابن صنجيل في خيلهما بالقرب من جبلة ، وقد توجهوا لنصرة سرجال صاحب انطاكية ، فأوقع بهم الترك ، وقتلوا جماعة وغنموا ما قدروا عليه ، وانهزم بغدوين وابن صنجيل ، وتعلقوا بالحبال .

ورحل ايلغازي إلى ارتاح ، وبإدار بغدوين فدخل

انطاكية ، و سلمت اليه اخته زوجة سرجال خـزائنه
وامواله ، وقبض على اموال القتلى ودورهم ، وأخذها وزوج نساء
القتلى بمن بقي ، وأثبت الخيل ، وجمع وحشد واستولى على
انطاكية ، ولو سبقه ايلغازي الى انطاكية لما امتنعت عليه .

ووصل أتابك إلى نجم الدين أرتاح ، فعاد ونزل الأثارب ، وهجم
الربض ونهبه ، وقتل من قدر عليه ، وخرج احداث من حلب ونهبوا
حصنها فطلبوا الأمان فأمنهم بعد ان استأخذت ، وسيرهم الى
مأمنهم .

ورحل منها الى زرينا وكانوا قد حصنوها واحكموا
عمارتها ، وقتلها فطلبوا الأمان فأمنهم ، وسيرهم الى انطاكية
فلقبهم بعض التركمان ، فنهبوهم وقتلوا بعضهم ومضوا الى
أهلهم .

وكان صاحب زرينا لما بلغه منازلتها ، حمل بغدوين والفرنج على
الخروج لاستدقائها ، وقد عرفوا تفرق التركمان بالغنائم وعودهم
إلى أهلهم ، وأن إيلغازي في عدة قليلة ، فبلغه ذلك فجذ في قتالها
حتى أخذها - كما ذكرناه - ورتب اصحابه بها ، وتوجه بمن بقي
معه واستصحب معه عسكر اتابك وطغان أرسلان بن دملاج جرايد
الى دانيث بعد ان رد الأثقال والخيام إلى قدسرين .

ووصل إلى دانيث في يومه ، فوجد الفرنج قد نزلوها يوم فتحه
زرينا في مائتي خيمة وراجل كثير ، وقيل إنهم كانوا يزيدون على
أربعمائة فارس سوى الرجالة ، وذلك في رابع جمادى
الأولى ، والتقوا فحمل صاحب زرينا وأكثر خيل الفرنج على عسكر
دمشق وحمص وبعض التركمان ، فكشفوهم وأنهزموا بين
أيديهم ، وسار ليتدارك أمر زرينا ويكبس الأثقال والخيام فعرف
أخذها وتسيير الأثقال الى قدسرين فعاد .

وحمل بقية المسلمين على بغدوين ومن كان معه ، فقتلوه

ورودهم على أعقابهم ، فحينئذ حمل ايلغازي وطفته كين وطفان ارسلان فيمن بقي من الخواص على الفرنج ، فكسروهم وقتلوا أكثر الرجالة وبعض الخيالة ، وتبعوهم إلى أن دخلوا الى حصن هاب ، وغنموا أكثر ما كان معهم .

وعاد نجم الدين وطغتكين وطفغان أرسلان الى دانيث ، فوجدوا صاحب زرينا والفرنچ قد عادوا بعد أن هزموا من كان بين ايديهم من المسلمين ومعرفة اخذ المسلمين زرينا ، فلقوهم وقتلوا منهم جماعة كثيرة ، وانهزم الباقون الى هاب ، وعاد الترك بالظفر والغنيمة .

وحين بلغ من بقدرين مع الاثقال هزيمة من كان مقابلة صاحب
 زرينا رحلوا الى حلب ، وانزعج اهل حلب غاية الانزعاج فوصلهم
 البشير بعد ساعتين بما بدل غمهم سرورا وهمهم حيويا .

وكان البشير من الفرنج قد مضى الى بلادهم وأخبر بكسرة صاحب زرينا للمسلمين ، فزيدوا بلادهم ، وأظهروا فيها الجذل والمسرة فوصل ابن صنجيل من الكسرة بعد ذلك ، فانقلب سرورهم حزنا وراحتهم تعباً وعناء .

وكان صاحب زرينا ، وهو القومص الابرص واسمه رونارد (١٠٣) ،

سقط عن فرسه ، فأدركه قوم من أهل جبل السماق من أهل
مريمين ، فقبضوه وحملوه الى ايلغازي بظاهر حلب ، فأنفذه الى
أتابك طغتكين ، فقتله صبوا .

ثم بخل الى ايلغازي بظاهر حلب ، وأحضر الاسرى فأفرد أصحاب القلاع والمقدمين وابن بيمنند صاحب انطاكية ورسول ملك الروم ونفرا يسيرا ممن كان معه مال فأخذوه وأطلقهم ، وبقي من الاسرى نيف وثلاثون رجلا بذلوا من المال ما رغب عنه ، فقتلهم بأسرهم . وتوجه من حلب الى مارين في جمادى الاولى من سنة

ثلاث عشرة وخمسمائة ، ليجمع من التركمان من يعود به الى بلد حلب ، وكانت حلب ضعيفة عن مقامه فيها ، فخرج الفرنج الى بلد المعرة ، فسبوا جماعة ، وأدركهم جماعة من الترك فرجعوا . (١٠٤)

ثم خرج بغدوين من أنطاكية في عسكره ونزل على زور ، غربي الباره - وهو حصن كان لابن منقذ وسلمه اليهم - ولما جرت الواقعة الاولى على البلاط عاد وأخذه ، فقاتله بغدوين ، وأخذه في جمادى الاولى ، وأطلق من كان فيه .

ورحل الى كفر روما (١٠٥) فأخذ حصنها بالسيف ، وقتل جميع من كان فيه ، ووصلوا الى كفر طاب ، وقد احرق ابن منقذ حصنها ، وأخذ رجاله منه خوفا منهم ، فرمموه ، ورتبوا رجالهم فيه ، وساروا الى سمرين ومعره مصرين فتسلموها بالأمان ، ثم نزلوا زربنا ، ورحلوا عنها الى انطاكية .

ومع هذا ففارات عسكر حلب متواصلة على ما يقرب منهم ، وتعود بالظفر والغنيمة .

ووصل جوسلين الى بغدوين خاله وقت أخذه سمرين ، فأقطعه الرها وتل باشر ، وسيره اليهما ، فأسرى الى وادي بـطنان دفعتين ، وإلى ما يلي الفرات من جهة الشام ، وقتل وسبى ما يقارب ألف نفس ، وأغار جوسلين على منبج والذقره وأعمال حلب الشرقية ، وأخذ كل ما وجد من دواب ، وأسرى رجالا ونساء ، وأسرى الى الرواندون يتبع طائفة من التركمان كانت قطعت الفرات ، فاقتتلوا فانهزم الفرنج وقتل منهم جماعة .

وفي صفر من سنة أربع عشرة وخمسمائة ، وقعت مشاحنة بين والي الأتارب بلاق بن اسحاق صاحب نجم الدين ايلغازي وبين الفرنج ، فأسرى ومعه جماعة من عسكر حلب الى انطاكية ، فلقاهم عسكر انطاكية فكسروهم ، وعاد فتبعه الفرنج والتقوا ما بين ترمانين (١٠٧) وتل اعذى ، من فرضة ليلون .

ووصل في هذه السنة ايلغازي بجمع كثير من التركمان ، وقطع
الفرات في الخامس والعشرين من صفر ، وتوجه الى تل
باشر ، وأقام أياما ولم يقاتلها ، ورحل الى عزاز يريد اخذها ، ولم
يمكن أحدا من التركمان من تشعيث ضياعها ، ورحل الى أنطاكية
وأقام عليها يوما واحدا ، وأقام في أعمال الروم أياما يسيره .

ثم خرج الى قدسرين فتشوشت قلوب التركمان لأنهم املوا من
الغنائم مثل السنة الخالية ، ولم يقاتل بهم حصنا ، ولا غنموا
شيئا ، وباع الأسرى الذين اسرهم في الواقعة الاولى ، فعادوا الى
بلادهم ، وبالغوا في التشفي من المسلمين والقتل والسبي

وجرى من نجم الدين اساءة الى بعض التركمان على شيء أنكره
عليهم ، فبالغ في هـوانهم وحلق لحى بعضهم ، وقطع
اعصابهم ، فتفرق عسكره وبقي نفر يسير متفرقين في اعمال حلب .

فطمع الفرنج وخرجوا الى دانيث ، فوصل طغتيكن وعسكر
دمشق ، واجتمعوا مع ايلغازي في عسكر يقاوم الفرنج ، فساروا
الى الفرنج ، وهم في الف فارس وراجل كثير ، فدار الترك حولهم
فلم يخرج منهم احد ، وكرهوا ان يعودوا على اعقابهم فتكون
هزيمة ، فساروا نحو معرة مصرين لا ينفرد منهم فارس ولا راجل .

وأشرف الترك على أخذهم ، ومن خرج منهم قتل ، ومن وقفت
دابته تركها وأخذت ، ولا يقدرّون على الماء وهم على حالة
الهلاك ، وإيلغازي وطغتيكن يردان الناس بالعصا ، فنزلوا بقرب
معرة مصرين ، وعاد الترك عنهم الى حلب ، وعادوا الى
أنطاكية . (١٠٨)

وصالحهم ايلغازي الى آخر سنة أربع عشرة ، على أن لهم المعرة
وكفر طاب والجبل والبارة ، وضياعا من جبل السماق برسم هاب ،
وضياعا من ليلون برسم تل اعذى ، وضياعا من بلد عزاز برسم
عزاز .

وسار نجم الدين ايلغازي الى ماربين ليجمع العساكر ، وهدم ايلغازي زربنا في شهر ربيع الاول ، وكان أهل حلب قد شكوا اليه تجنيد رسوم جدد عليهم في ايام رضوان ، لم تجربها عادة في دولة العرب ولا دولة المصريين ولا في ايام أق سنقر ، فأمر بكشف مقدارها ، فأخبر أنها مبلغ اثني عشر الف دينار في كل سنة ، فرسم بحذفها ، ووقع لهم بذلك ، وكتب لوحا بذلك ، وسمره على باب الجامع وذلك في هذه السنة .

وخرج الفرنج فقبضوا على الفلاحين الذين تحت ايديهم في هذه الأعمال من المسلمين وعاقبوهم وصادروهم ، وأخذوا منهم من الاموال والغلات ما تقووا به ، وكانت الضياع التي في أيدي المسلمين قد عمّرت ، واطمأنوا بالصلح ، ففدّر اللعين جوسلين ، وخرج فأغار على الذقرة والأحص ، واحتج بأنه أسر له والي منبج أسير ، وأنه كاتب في ذلك فلم ينصف ، وذلك في شوال ، وقتل وسبى وأحرق كل ما في الذقرة والأحص ، ونزل الوادي وعاث فيه .

ثم سار الى تل باشر ، ثم عاد وحشد وخرج وعمل كفعله الاول ، وأخذ في غارته الاولى المشايخ والعجائز والضعفاء ، فنزع عنهم ثيابهم وتركهم في البرد عراة ، فهلكوا بأجمعهم .

فأنفذ والي حلب الى بغدوين في ذلك ، وقال: «إن نجم الدين لم يترك هذه البلاد خالية من العساكر الا ثقة بالصلح» فقال: «مالي على جوسلين يد». وتتابع من جوسلين غارات متعددة .

ثم خرج الفرنج من انطاكية عقيب ذلك ، وأغاروا على بلد شيزر وأخذوا مالا يحصى ، وأسروا جمعا ، وطلبوا المقاطعة التي جرت عادتهم قبل الوقعة بأخذها ، فبذل لهم ابن مذقذ ذلك على أن يردوا ما أخذوه ، فلم يجيبوه الى ذلك ، فجعل لهم مالا حملة ، وصالحهم الى آخر السنة .

وهرب ملك العرب دبب بن صدقة الأسدي من المسترشد والسلطان محمود ، فوصل الى قلعة جعبر ، فأكرمه نجم الدولة مالك ، وأضافه ، ثم سار الى ايلغازي الى ماردين ، وتزوج ابنته فاشتد به وأجاره ، ووصل معه الأموال العظيمة والنعمة الوافرة ، وحمل اليه ايلغازي ما يفوت الاحصاء .

فاشتغل ايلغازي بدبب عن العبور الى الشام فحرب بلد حلب ، واستولى الفرنج على معظمه ، وأغار جوسلين الى صفين (١٠٩) ، وسبى العرب والتركمان ، ونزل بزاعا وقتلها ، وأحرق بعض جدارها ، وصونع على شيء وبخل بلده .

ثم هجم الفرنج ، في صفر من سنة خمس عشرة وخمسمائة الأتارب ، وقتلوا جماعة وأحرقوها وأسروا من لم يعتصم بالقلعة .

ثم إنهم في ربيع الآخر من السنة ، نزلوا نواز (١١٠) وزحفوا الى الأتارب ثانية ، وأحرقوا الدور والغلة ، وسار بغدوين ، وأغار على حلب ، وأخذ الناس والدواب من حاضر حلب ومن الفنادق ، وأخذ ما يجلب قدره من الماشية ، وأسر نحو من خمسين اسيرا ، وصاح الصائح فخرج نفر يسير من العسكر فظفروا بالفرنج وخلصوا المواشي ، وعاد الفرنج الى أعمالهم .

وكان النائب بحلب شمس الدولة سليمان بن نجم الدين ايلغازي ، وكان ايلغازي قد ولي رئاسة حلب ، في سنة أربع عشرة في رجب ، مكى بن قرناص الحموي ، وجعله بين يديه ، فكتب الى ولده وذوابه يأمرهم بصلح الفرنج على ما يريدون ، فصالحوهم على سرمين والجزر ولبلون وأعمال الشمال على أنها للفرنج ، وما حول حلب للفرنج منه النصف ، حتى أنهم ناصدوهم في رحي الغربية (١١١) وعلى أن يهدم تل هراق بحيث يبقى للفئتين فيه حكم ، وطلبوا الأتارب فأجاب ايلغازي الى ذلك ، فامتنع من كان فيها من التسليم فبقيت في ايدي المسلمين .

وكان الذي تولى الصلح جوسلين وجفري ، وكان بغدوين في القدس ، فلما وصل رضي بذلك ، وشرع في عمارة دير خراب قديم ، بالقرب من سرمد (١١٢) . وحصنه ثم أطلقه لصاحب الأتارب سيران دمسخين .

وأمر أيلغازي ولده باخراب قلعة الشريف الجديدة بحلب وأخرج من كان فيها من جند رضوان ، فأخرجهم شمس الدولة وابن قرناص بعذر الاغارة على أعمال الفرنج ، وأغلقت أبواب حلب في وجوههم ، وتولى الرئيس مكي بن قرناص خرابها في جمادى الآخرة .

واستنجد الماك طغرل بإيلغازي بن أرتق على الكرج وملكهم داود ، فسار اليه في عالم عظيم ومعه ديبس بن صدقة ، فكسره المسلمون ، وبخلوا وراءهم في الدرب ، فكر الكرج عليهم في الدرب ، فانهزم المسلمون وتبعهم الكرج قتلا وأسرا ، ونهب لديس ما مقداره ثلاثمائة ألف دينار ، ووصل مع نجم الدين أيلغازي الى ماردين سالما (١١٣)

وأنفذ أيلغازي الى ابنه سليمان بحلب يلتمس منه أشياء فقبح ذلك عنده ، وقيل له أشياء أوجبت عصيانه على والده ، فعصى وأخرج الملوك سلطان شاه وأبراهيم وغيرهما من حلب ، فمضوا الى قلعة جعبر ، ومد يده في مصادرة أهل حلب وظلمهم والفساد .

وقيل: إن ديبس بن صدقة لما سار مع أيلغازي الى الكرج سأل أيلغازي في الطريق ان يهب له حلب وأن يحمل اليه ديبس مائة ألف دينار يجمع بها التركمان ويعاضده حتى يفتح أنطاكية ، فأجابه أيلغازي الى ذلك ، وأخذ يده على ذلك .

قلما وقعت كسرة الكرج بدا له من ذلك ، فأنفذ الى ولده سليمان ، وكان خفيفا ، وقال له: «أظهر أنك قد عصيت علي حتى يبطل ما بيني وبين ديبس». فحمله الجهل على أن عصى ونابذ

أباه ، ووافقهم مكى بن قرناص والحاجب ناصر ، وهو شحنة حلب وغيرهما .

وقبض سليمان حجاب أبيه فصفعهم وحلق لحالهم ، ومديده الى أموال الناس وظلمهم ، فطمع الفرنج وقربهم سليمان ، فنزلوا زربنا وعمروها لابن صاحبها كليام بن ابرص .

ثم سار الفرنج الى باب حلب ، فكبسوا في طريقهم حاضر طيء وغيرها ، فخرج اليهم الحاجب ناصر والعسكر فكسروهم وقتلوا منهم جماعة .

وخرج بغدوين في جمادى الآخرة ، فنازل خناصره ، وأخذها وخربها ، وحمل باب حصنها الى أنطاكية ، ونزل برج سينا ففعل به كذلك ، وكذلك فعل بغيرهما من حصون الذقرة والأحص ، وسبى وأحرق ونهب .

وعاد فنزل صلدع - على نهر قويق - وخرج اليه اتزر بن ترك طالبا منه الصلح مع سليمان ، فقال: «على شرط أن يعطيني سليمان الأثارب حتى أحفظه ، وأنا أذب عنه وأقاتل دونه» ، فقال له: «ما يجوز أن نسلم ثغرا من ثغور حلب في بدو مملكته ، بل التمس غير هذا مما يمكن ليوافقه عليه » فقال له: «الأثارب لا يقدر صاحب حلب على حفظها ، فاني قد عمرت عليه الحصون بما دارت ، وأنا أعلمكم أنها اليوم تشبه فرسا لفارس قد عطبت يداها ، وللفارس هري (١١٤) شعير ، يعلفها رجاء أن تبرا ويكسب عليها ، فنفد هري الشعير ، وعطبت الفرس ، وفاته الكسب » ثم رحل نحوها ، فحصرها ثلاثة أيام ، واتصل به ما أوجب رحيله الى أنطاكية .

ولما بلغ ايلغازي اصرار ولده على العصيان ضاقت عليه الأرض ، وأعمل في الوصول إليه وأخذ حلب منه ، فكاتبه أقوام وعرفوه أن ما بحلب من يدفعه عنها ، فسار حتى وصل الى قلعة

جعبر فضعت نفسه ابنه سليمان عن العصيان على أبيه ، فأنفذ اليه من استخلفه على الصفح عنه والاحسان اليه وإلى من حسن له العصيان مثل ابن قرناص وناصر الحاجب ، وأكد الايمان على ذلك .

وبخل حلب في أول شهر رمضان فخرج الناس للقاءه ، وبخل الى القصر ، وأحسن الى أهل حلب ، وسامحهم بشيء من المكوس ، وصرف الشحنة الذي كان يؤذي الناس في البلد .

وقبض على الرئيس مكي بن قرناص وعلى أهله ، وشق لسانه وكحله وأخذ ما وجد له ، وسلم أخاه الى من يعذبه ويستصفي ماله .

وكحل ناصر الحاجب ، فعني به من تولى أمره فسلمت إحدى عينيه ، وعرف طاهر بن الزائر ، وكان من أعوان الرئيس مكي .

وأعاد الملوك أولاد رضوان من قلعة جعبر الى حلب ، وخطب بنت الملك رضوان ، وتزوج بها ، وبخل بها بحلب ، وولى رئاسة حلب سلمان بن عبد الرزاق العجلاني الباسي ، وولى ابن أخيه بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار نيابته في حلب ، وصالح الفرنج مدة سنة كاملة ، وأعطاهم من الضياع ما كان في أيديهم أيام مملكتهم الأثارب وزربنا .

وسار في محرم من سنة ست عشرة وخمسمائة الى الشرق ليجمع العساكر ، فمات وزيره بحلب أبو الفضل بن الموصل في صفر وولى الوزارة أبو الرجاء بن السرطان .

وعبر ايلغازي وبلك في سابع عشر شهر ربيع الآخر الفرات - وكان بلك غازي ابن أخيه بهرام بن ارتق ، واستدعاه من أعمال الروم وببده عدة قلاع بالقرب من ملطية - وصحبتهما عدة

من التركمان دون ما جرت عادته باستصحابه ، فغزل ابا الرجاء ابن السرطان عن الوزارة ، وقبض عليه لسعاية سعي به اليه عليه .

ونزل ايلغازي زرينا ، نزل عليها في العشرين من جمادى الاولى ، وحصرها اياما واخذ حوشها ، وكان صاحبها قد سمع حين عبر ايلغازي الفرات انه ينزلها ، فجمع اصحابه واستدلفهم على المصابرة من وقت نزولهم عليها مدة خمسة عشر يوما و حلف هو لهم على ان ينجدهم ، ومض على أن يستجيش ، فان جازت هذه المدة ولم يصلهم فانه يبتاع دماءهم بكل ما يملكه ، وقال لهم: «والله لكم علي من الشاهدين ، لئن لم يخلصكم الا اسلامي ان قبله اسلمت على يبيه لخلصكم» .

وخرج حتى وصل الى بغدوين صاحب انطاكية ، وهو بأكناف طرابلس في حكومة بينه وبين صاحبها ، فأخبره بعبور ايلغازي وبما بلغه من قصده زرينا ، فقال: «مذ حالفنا له وحالف لنا ما نكثنا و حفظنا بلده في غيبته ونحن شيوخ ، وما أظنه يغدر ، بل ربما قصد طرابلس أو قصدني في القدس ، لأنني ما صالحته الا على أنطاكية وأعمالها ، بل يجب ان تعود الى أقامية وكفرطاب وتكشف ما يتجدد .» فعاد وكشف الأمر .

وسير الى بغداد دوين فــــــــــــــأعلمه بنزوله
على زرينا ، فصالح صاحب طرابلس ، وشرط عليه الوصول
اليه ، ووصل انطاكية ، واستدعى جوسلين ، ونصب المسلمون
مجانيق أربعة على زرينا ، وأخذوا الفصيل الأول ، فوصل الفرنج
بعد أربعة عشر يوما من منازل المسلمين لها ، فنزلوا تحت الدير .

وبلغ الخبر ايلغازي ، فترك ، زربنا وتوجه نحوهم ، فنزل نواز ، وطلب ان يخرج الفرنج من المضيق الى السعة فلم يخرجوا ، فـرحل الى تل السلطان ، وأتابك طغتيكن في صحبته ، فخرج الفرنج فنزلوا على نواز وهجموا ربض الأثارب وأحرقوا البدر والحدار .

وبخل صاحبها يوسف ميرخان قلعتها ، ونزلوا أبين ، ورحلوا منها فنزلوا دانيث ، وأقاموا عليها فلم يصلهم أحد ، فعادوا الى بلادهم ، فعاد ايلغازي فنزل زرينا ، وهجم الحوش الثاني ، وقتل جماعة من الفرنج .

فعاد الفرنج ونزلوا تحت الدير ، فرحل ايلغازي الى نواز ، وأقام ثلاثة ايام يزاحف الفرنج وهم لا يخرجون الى الصحراء ، فاتفق أن أكل ايلغازي لحم قبيد كثيرا وجوزا أخضر وبطيخا وفواكه ، فانتفخ جوفه وضاق نفسه ، واشتد به الأمر ، فرحل الى حلب ، وتزايد به المرض ، فسار طغتيكن الى دمشق وبك غازي الى بلاده .

وبخل ايلغازي ليتداوى بحلب ، فنزل القصر ، ولم يخلص من علته ، وخرج عسكر حلب في ألف فارس الى نبل (١١٥) من عمل عزاز ، ومعهم أمراء منهم دولت بن قتلмыш ، فنهبوا وعادوا ، فوقع عليهم عند حربل (١١٦) كليام في أربعين فارسا ، فانهزم المسلمون وقتل منهم جماعة .

وفي شهر رجب من هذه السنة ظفر بك غازي باللعين جوسلين وابن خالته قلران (١١٧) بالقرب من سروج ، فأسرهما وأسر ابن اخت طنكريد ، وقد كان أسره في وقعة لياون ، واشترى نفسه بألف دينار وأسر ستين فارسا .

وطلب من جوسلين وقلران أن يسلما ما بأيديهما من المعاقل فلم يفعلوا ، وقالوا : «نحن والبلاد كالجمال والحدج ، متى عقر بغير حول رحله الى آخر ، والذي بأيدينا قد صار بيد غيرنا » . فأخذهما ومضى الي بلده .

ووصل الفرنج بعد ذلك من تل باشر في شعبان ، وكبسوا تل قباسين (١١٨) ، فخرج النائب ببزاعا مع أهلها فالتقوا ، وانهزم المسلمون وقتل منهم تسعون رجلا .

وأما ايلغازي فأقام أياما ، وصلح من مرضه ، وسار الى ماربين ، ثم خرج منها يريد ميفارقين ، فاشتد مرضه في الطريق ، وتوفي بالقرب من ميفارقين بقرية يقال لها «عجولين» ، في أول شهر من رمضان من سنة ست عشرة وخمسمائة .

وملك ابنة سليمان ميفارقين ، وابنه تمرتاش ماربين ، وابن اخيه بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن أرتق حلب ، ولما سمع صاحب انطاكية بوفاة حشد عسكره وجماعة من الأرمن ، ونزل وادي بزاعا ، وعاث فيه وأفسد ما قدر عليه ، وحمل اليه أهل «الباب» من الوادي مالا وخدموه .

فرحل الى بالس وقاتلها بالمنجنقات ، وقرروا على بالس مع ابن مالك مالا يحمل اليه ، فأسرف في الطلب وكان ببالس جماعة من التركمان ومن خيل حلب ، فخرج أهلها والخيل التي عندهم واقتتلوا ، فقتل من الفرنج جماعة من المقدمين ، وظفر المسلمون أحسن ظفر .

فرحل بغدوين الى الوادي وقد وصل (سليمان بن) ايلغازي فحصر البيرة (١١٩) . وتسلم حصنها على أن يؤمن أهلها على أنفسهم فأخذهم وسار بهم إلى أنطاكية ، وتتابع غارات الفرنج حول حلب الى آخر سنة ست عشرة وخمسمائة .

وولى بدر الدولة سليمان الوزارة بحلب أبا الرجاء سعد الله بن هبة الله بن السرطان ، في صفر ، بعد ما قبض عليه ايلغازي - كما تقدم ذكره - وجدد بدر الدولة المدرسة التي بالزجاجين بحلب ، المعروفة ببني العجمي (١٢٠) ، بإشارة أبي طالب بن العجمي . وذكر لي انه عزم على ان يقفها على الفرق الرابع ، ونقلتها من كنيسة دائرة كانت بالطحانيين بحلب .

وفي العاشر من شهر صفر من سنة سبع عشرة

وخمسمائة ، استقر الصلح بين بدر الدولة صاحب حلب وبين
بغدوين صاحب انطاكية ، على ان يسلم بدر الدولة اليه قلعة الاثارب
فقدسلموها ، وصارت لصاحبها أولا سير آلان دمسخين ، وبقيت في
يده الى ان مات ، وكانت في يد الحاجب جبريل بن برق ، فعرضه
بدر الدولة عنها شحذكية حلب .

وفي يوم الاربعاء تاسع عشر صفر ، سار بغدوين صاحب
انطاكية ليقاتل نور الدولة بك بن بهرام بن أرتق ، وكان محاصرا
قلعة كركر (١٢٦) ، فالتقى على موضع اسمه «اورش» بالقرب من
قنطرة سنجة ، فكسره نور الدولة بك ، وأسره ، وقتل معظم
عسكره ومقدميه ونهب (خيمه) ، وفتح (كركر) بعد جمعة ، وكان في
دون عدة الفرنج ، وجعل بغدوين في خرتبرت (١٢٢) مع جوسلين
وقلران .

ثم إن نور الدولة بك عبّر الفسرات ونزل على حلب
وضايقها ، ونزل من قبليها ، ثم انتقل الى بانقوسا (١٢٣) وأقام
اياما ، ورحل الى ارض النيرب ، وجبرين (١٢٤) ، وأمر بحرق الغلة
وأخذ الدواب .

ومضى قطعة من عسكره الى حدابين (١٢٥) ، فأخذ أحدهم
عنزا ، فرماه بعض فلاحي الضيعة بسهم فقتله فحصرت مفارقتها
وأخذت بعد ان امتنع أهلها من التسليم ، فدخلوا على المغارة
فاخذوا بها مائة وخمسون .

وخذق في مغارة تل عبود وتعجين جماعة وسبوا نساء عقر بوز
وأولادها وباعوا بعضهم واستعبدوا بعضا ، وأخذ لاهل حلب جشير
خيل ثلاثمائة رأس ، وكان حريق الزرع من رهقات بك وكان سببا
للفلاء العظيم .

وفي صباح يوم الثلاثاء ، غرة جمادى الاولى من سنة سبع عشرة

وخمسمائة ، تسلم مدينة حلب سلمها اليه مقلد بن سقويق بالامان ومفرج بن الفضل ، ونودي بشعار بك من عنة جهات ، وكسر باب انطاكية ، وأخربت ثلثة من غربي باب اليهود .

وفي يوم الجمعة رابع الشهر تسلم القلعة وجلس بها بعدما نزل بدر الدولة منها بيوم ، وقرر حالها ، وأخرج سلطان شاه بن رضوان ، وسيره الى حران ، وكان قد فتحها في شهر ربيع الآخر خوفا منه .

ثم انه سار الى البارة وهجمها ، وأسر الأسقف الذي بها وقيده ، ووكل به (١٢٨) ، ورحل الى كفرطاب فغفل الموكل به فهرب الى كفرطاب ، فعزم على قتال حصنها واسترجاع الأسقف في يوم الثلاثاء الثاني عشر من جمادى الآخرة .

فوصله من أخبره ان بغدوين الرويس وجوسلين وقلران وابن اخت طنكريد وابن اخت بغدوين وغيرهم من الأسرى الذين كانوا مسجونين بجب خرتبرت عاملوا قوما من اهل حصن خرتبرت فأطلقوهم ، ووثبوا على الحصن فملكوه ، وأخذوا كل ما كان لنور الدولة فيه وكان جملة عظيمة ، فقال جوسلين : «كنا قد اشرطنا على الهلاك والآن فقد خلصنا ، والصواب ان نمضي ونحمل ما قدرنا عليه» . فما سمحت نفس بغدوين بترك الحصن والخروج منه . (١٢٩) .

فاتفق رأيهم على خروج جوسلين ، وحلفوه على انه لا يغير ثيابه ولا يأكل لحما ولا يشرب الا وقت القربان الى ان يجمع جموع الفرنجة ويصل بهم الى خرتبرت ويخلصهم .

وأما بك فإنه سار حتى نزل على خرتبرت ففتحها بالسيف في ثالث وعشرين من رجب ، وقتل كل من كان به من اصحابه الذين كفرروا نعمته ومن كان فيه من الفرنج ، ولم يستبق سوى بغدوين الملك وقلران وابن اخت بغدوين ، وسيرهم الى حران وحبسهم بها .

وأما جوسلين فمضى الى القدس ، واستنجد بالفرنچ ، ووصلوا
تل باشر ، فسمعوا خبر فتح خرتبرت بالسيف فسار الى الوادي
وقاتل بزاعا وأحرق بعض جدارها ثم أحرق الباب وقطع
شجره ، وأحرق ما سواه من الوادي .

ثم نزل حيلان (١٣٠) ثم حلب من ناحية «مشهد الجف» من
الشمال ، وخرب المشاهد والبساتين ، وكسر الناس عند «مشهد
طرود» بالقرب من بستان الذقرة ، وقتل وسبى مقدار عشرين نفرا .

ثم رحل ونزل الجانب الغربي في البقعة السوداء ، وخرب مشاهد
الجانب القبلي وبساتينه ، ونبش الضريح الذي بـ «مشهد الدكة»
(١٣١) فلم يجد فيه شيئا فألقى فيه النار ، والحلبيون في كل يوم
يقاتلونه أشد قتال ، ويخسر معهم في كل حركة .

ثم رحل يوم الثلاثاء مستهل شهر رمضان ، ونزل السعدي
(١٣٢) ، وقطع شجره ، وافترقوا منه وسار كل الى بلده ، ووجد في
المسافة في منازلهم التي نزلوها نيف وأربعون حصانا موتى ، ونبش
الناس منهم موتى جماعة .

فأمر القاضي ابن الخشاب بموافقة من مقدمي حلب ان تهدم
محاريب الكنائس التي للنصارى بحلب ، وأن يعمل لها محاريب الى
جهة القبلة وتغير أبوابها ، وتتخذ مساجد : ففعل ذلك بكنيستهم
العظمى ، وسمي مسجد السراجين (١٣٣) : وهو مدرسة الحلاويين
الآن . وكنيسة الحدادين : وهي مدرسة الحدادين (١٣٤)
الآن ، وكنيسة بدرب الحراف : وهي مكان مدرسة ابن المقدم
(١٣٥) . ولم يترك النصارى بحلب سوى كنيستين لا غير ، وهي
الآن باقية .

هذا كله ونور الدولة بك غائب عن مدينة حلب في بلاده .

ثم إن جوسلين خرج في تاسع عشر شهر رمضان الى الوادي
والذقرة والأحص ، وأخذ ما يزيد عن خمسمائة فرس كانت في العزيب

(١٣٦) ، حتى لم يبق بحلب من الخيالة خمسون فارسا لهم خيل ، وأخذ من الدواب البقر والغنم والجمال مالا يحصى ، وقتل وسبى وخرب ما أمكنه وعاد الى تل باشر .

وخرج سير الآن في عسكر انطاكية من الأثارب حتى وصل الحاذوته (١٣٧) وحلفا ، وأخذ ما كان بقي من خيل حلب في العزيب في الجانب القبلي ، وذلك مقدار ثلاثمائة فرس ، وأخذ قافلة كانت واصله من شيزر بغلة .

ثم عبر جوسلين من الفرات الى شبختان وأغار على تركمان وأكراد ، فأخذ من الغنم والخيل ما يزيد على عشرة آلاف وسبى وقتل ، ومن سلم له فرس من عسكر حلب يخرجون مع الحرامية ولا يقطعون الغارات على بلادهم ، ويحضرون الأسارى مرة بعد أخرى .

ثم أغار جوسلين على الجبول ، وما حولها ، وأخذ دواب كثيرة وتوجه الى دير حافر ، فخذق أهلها بالخان في المغاير ، وفتح المقابر ، وسلب الموتى أكفانهم .

وفي يوم الأربعاء سادس عشرين من ذي القعدة ، عبر بك الى الشام وقبض على نائب بهرام داعي الباطنية بحلب ، وأمر باخراجهم من حلب فباعوا أموالهم ورحالهم وخرجوا منها. ثم إن الأمير نور الدولة بك جمع العساكر ، ووصله اتابك طغتكين بعسكر دمشق وعسكر أق سنقر البرسقي ، وعبروا حتى نزلوا على عزاز ، وضايقوها بالحصار ، وأخذوا عليها نقيوبا الى أن سهل أمرها ، فتجمع الفرنج وقصدوا ترحيل المسلمين عنها فالتقى الجيشان ، وهزم المسلمون ، وتفرقوا بعد قتل من قتل وأسر من أسر .

وعمر بك حصن الناعورة بالنقرة وحصن المغارة - على شط

الفرات - وتزوج بالخاتون فرخنة خاتون بنت رضوان ، وعرس بها في ثالث وعشرين ذي الحجة من سنة سبع عشرة وخمسمائة .

وفي المحرم من سنة ثمانى عشرة وخمسمائة ، تذكر بك على رئيس حلب سلمان العجلاني وجعل عليها رجلا من اهل حران اسمه محمد بن سعدان ، ويعرف بابن سعدانة ، وكثر الأمن من الذعار وقطاع الطريق عند قدوم بك حلب ، وأقام الهيبة العظيمة ، وتقدم بفتح ابواب حلب ليلا ونهارا ، وحسم مائة ارباب الفساد . وقال الحارس : «إن عدت سمعك تصيح ضربت عنقك!».

ونقل بغدوين ومن كان معه من حبس حران ، فحبسه في قلعة حلب .

وتوجه في شهر صفر فرقة من اصحابه الاتراك الى ناحية عزاز ، فوقع بينهم وبين الفرنج وقعة عند مشحلا ، وظفر بهم الاتراك ، وقتلوا منهم اربعين رجلا من الخيالة والرجالة وأخذوا اسلابهم ، ووصل الباقيون عزاز وما فيهم الا من جرح جراحا عنة .

وانقطع المطر في كانونين ونصف شباط ، ثم تدارك فأخصب الزرع واستغل الناس ، وكان بحلب غلاء شديد .

وفي صفر من سنة ثمانى عشرة وخمسمائة ، تذكر نور الدولة بك على حسان بن كمشتكين صاحب منبج لشيء بلغه عنه ، فأنفذ قطعة من عسكره مع ابن عمه تمرتاش بن ايلغازي بن ارتق ، وتقدم اليهم ان يمروا على منبج ، ويطلبوا من حسان ان يخرج معهم للاغارة على تل باشر فاذا خرج قبضوه ، ففعلوا ذلك ، وبخلوا منبج ، وعصى عليهم الحصن وبخله عيسى أخو حسان .

وسير حسان فحبس في حصن بالو (١٢٩) بعد ان عوقب وعري ، وسحب على الشوك فلم يسلمها أخوه .

وكتب عيسى الى جوسلين: « إن وصلتني وكشفت عني عسكر بك
سلمت اليك منبج ». وقيل : انه نادى بشعار جوسلين بمنبج ، فمضى
الى بيت المقدس وطرابلس وجميع بلاد الفرنج ، وحشد ما يزيد على
عشرة آلاف فارس وراجل ، ووصل نحو منبج ليرحل بك عن منبج .

فسار اليه بك لما قرب من منبج ، والتقى يوم الاثنين ثامن عشر
شهر ربيع الأول ، واقتتل العسكران ، وانهزم الفرنج ، وتبعهم
المسلمون يقتلون ويأسرون الى آخر النهار .

وحمل فيهم بك ذلك اليوم خمسين حملة يفتك فيهم ويخرج
سالما ، ويضرب بالسيوف ويطعن بالرماح ولا يكلم ، وعاد الى الظفر
بالفرنج .

واصبح يوم الثلاثاء تاسع عشر ربيع الأول قتل كل اسير اسره في
الوقعة ، ثم زحف نحو الحصن ليختار موضعا ينصب فيه
المنجنيق ، وعليه بيضة وبه ترس .

وكان قد عزم على أن يستخلف ابن عمه تمرتاش بن ايلغازي على
حصار منبج ، ويطلع منجدا لاهل صور ، فان الفرنج كانوا في
مضايقتها (١٤٠) ، وفي تلك المضايقة اخذوها ، فبينما كان بك قائما
يأمر وينهى اذ جاءه سهم من الحصن ، وقيل: انه كان من يد
عيسى ، فوقع في ترقوته اليسرى فانزعجه وبصق عليه ، وقال: « هذا
قتل المسلمين كلهم » ومات لوقته .

وقيل: بقي ساعات وقضى نحبه - رحمه الله - وحمل الى
حلب ، ودفن بها قبلي مقام ابراهيم - عليه السلام -

ووصل حسام الدين تمرتاش بن ايلغازي الى حلب يوم الاربعاء
العشرين من شهر ربيع الاول ، وبخل القلعة ونصب علمه ، ونادى
الناس بشعاره .

وسار سليمان بن ايلغازي من ميفارقين الى خرتبرت وحصون
بلك ، وهي نيف وخمسون موضعاً فتسلمها .

وسار داود بن سكمان ، فاخذ حصن بالو واطلاق حسان بن
كمشكين فعاد الى منبج .

فأما تمرتاش فانه لما ملك حلب ألهاه الصبي واللعب عن التشمير
والجد والنظر في أمور الملك ، ففسدت الأحوال ، وضعف أمر
المسلمين بذلك ، واستوزر ابا محمد بن الموصل ، ثم عزله وصاحبه
في رجب من سنة ثمانى عشرة واستوزر ابا الرجاء بن
السرطان ، وولى الرئاسة بحلب فضائل بن صاعد بن بديع .

وسير الى حران فحمل منها سلطان شاه بن رضوان ، وكان بلك
اسكنه بها ، فاعتقله في دار بقلعة ماربين وكان فيها طاعة فتدلى
منها بحبل وهرب الى دارا ، ثم رحل منها الى حصن كيفا (١٤٣) الى
داود بن سكمان .

وفي العشر الاواخر من ربيع الاول سار نائب جوسلين من الرها
وأغار على ناحية شبختان ونهبها فسار اليها نائب تمرتاش عمر
الخاص وكان نائبه وربيب أبيه ايلغازي وركب خلفه في ثلاثمائة
فارس فلحقه على مرج اكساس ، فقاتله وهزمه وقتله ، وقتل اكثر
من كان معه من الفرنج ، وعاد غانما ، وأنفذ رؤوسهم وما غنمه
الى تمرتاش الى حلب .

ولاه تمرتاش شحذكية حلب وهو المدفون في القبة التي مقابل
باب مشهد ابراهيم - عليه السلام - واسمه مكتوب على جهاتها
الأربع .

وولى قلعة حلب رجلاً يقال له عبد الكريم .

وفي غرة جمادى الاولى من هذه السنة استقر الأمر بين الملك
بغديوين صاحب انطاكية - وكان في سجن بلك بحلب - وبين

تمرتاش بن ايلغازي على تسليم الاثارب وزربنا والجزر وكفر طاب
وعلى تسليم عزاز وثمانين الف دينار وقدم منها عشرين الف دينار .

وحلف على ذلك وعلى ان يخرج دبيس بن صدقة (١٤٣) من
الناس ، وكان قد وصل دبيس منهزما من المسترشد بعد ان كسره
المسترشد ، وقتل خلقا من عسكره فترك بلاه ، وحمل ماقدر عليه
من العين والعروض على ظهور المطايا ، ووفد على ابن سالم بن
مالك بن بدران الى قلعة دوسر ، واستجار به فأجاره ، وغاضب
المسترشد والسلطان محمودا في امره .

وكاتب دبيس قوما من اهل حلب ، وأنفذ لهم جملة
بنانير ، وسامهم تسليمها اليه ، وكشف ذلك رئيسها فضائل بن
صاعد بن بديع ، فأطلع على ذلك تمرتاش بن ايلغازي ، فأخذهم
وعذبهم وشدق بعضهم ، وصادر بعضا ، وأحرق بعضا .

وكان المتوسط حديث بغدوين مع تمرتاش الامير أبو العساكر
سلطان بن منقذ ، وسير أولاده وأولاد اخوته رهنا عن بغدوين الى
حلب .

وفكت قيود بغدوين وأحضر الى مجلس تمرتاش ، وتواكلا
وتشاربا وخلع عليه قباء ملكيا وقلنسوة ذهب وخفافا ورانا
(١٤٤) ، وأعيد عليه الحصان الذي كان اخذته منه بلك يوم
اسره ، فركبه وسار الى شيزر يوم الاربعاء رابع جمادى ، فبقي
عند ابي العساكر حتى أحضر جماعة رهنا على الوفاء بما شرطه
لتمرتاش وهم : ابنته ، وابن جوسلين ، وغيرهما من اولاد
الفرنج ، وعدتهم اثنا عشر نفرا ، وحمل العشرين الف دينار التي
عجلها .

وقبض صاحب شيزر الرهائن ، واطلق بغدوين من سجن
شيزر ، في يوم الجمعة سابع عشر شهر رجب ، فخرج - لغنه
الله - وغدر بتمرتاش وأنفذ اليه يقول : « البطريك الذي لا يمكن

خلافه سألني عما بذلت ، وما الذي استقر ، فحين سمع حديث عزاز
وتسليم حصنها مني ابي ، وأمرني بالدفع عنها وقال : إن خطيئتك
تلزمني ، ولا أقدر على خلافه . فتريدت الرسل بينهما فلم يستقر
على قاعدة .

وخالط ديبس جوسلين وبغدوين ، وصافاهم وصافوه بوساطة
الامير مالك بن سالم صاحب قلعة جعبر ، واتفق ديبس والفرنج على
قواعد تعاهدوا عليها منها ان تـــــــكون حلب
لديبس والأموال والأرواح للفرنج مع مواضع من بلد حلب تكون
للفرنج ، وتقدم ديبس الى مرج دابق فخرج اليه حسام الدين
تمرتاش فكسره .

وسار تمرتاش من حلب عندما علم بغدر الفرنج به الى
ماربين ، في الخامس والعشرين من شهر رجب ، ليستنجد بأخيه
سليمان بن ايلغازي وبجمع العساكر ، وبقي بذومنقذ رهائن بقلعة
حلب عند تمرتاش ، وأولاد الفرنج رهائن عند أبي العساكر بن
منقذ بشيزر .

والرسل مع هذا تتردد بين تمرتاش وبغدوين الى أن عادت الرسل
في ثامن عشر شعبان مخبرة بنقض الهدنة ، ويخرج بغدوين الى
ارتاح قاصدا النزول على حلب .

ورحل بغدوين من ارتاح حتى نزل على نهر قويق وأفسد كل ما
كان عليه ، ثم رحل فنزل على حلب ، في يوم الاثنين السادس
والعشرين من شعبان ، وهو السادس من تشرين الأول .

وخرج ديبس وجوسلين من تل باشر ، وقصدا ناحية
الوادي ، وأفسدا القطن والنخن ، وسائر ما كان به وقوم ذلك بمائة
ألف دينار ، ورحلا ونزلا مع بغدوين على حلب ، ووصل اليهم الملك
سلطان شاه بن رضوان .

ونزل بغدوين مقدم الفرنج من الجانب الغربي من حلب في الحلبة ، ونزل جوسلين على طريق عزاز وما يجاوره يمينا ويسرة . ونزل ديبس وسلطان شاه بن رضوان مما يلي جوسلين من الشرق ، وفي صحبة ديبس عيسى بن سالم بن مالك .

ونزل يغى سيان بن عبد الجبار بن أرتق صاحب بالس مما يلي ديبس من الشرق ، وكانت عدة الخيم ثلاثمائة: للفرنج مائتا خيمة ، وللمسلمين مائة خيمة .

وأقاموا على حلب يزاحفونها ، وقطعوا الشجر وخرّبوا مشاهد كثيرة ، ونبشوا قبور موتى المسلمين ، وأخذوا تروابيتهم الى الخيم ، وجعلوها أوعية لطعامهم ، وسلبوا الأكفان وعمدوا الى من كان من الموتى لم تذق طع أو صاله ، فربطوا في أرجلهم الحبال ، وسحبوهم مقابل المسلمين .

وجعلوا يقولون : « هذا نبيكم محمدا » وأخري قول: هذا عليكم وأخذوا مصدفا من بعض المشاهد بظاهر حلب وقالوا : « يا مسلم ابصر كتابكم » وثقبه الفرنجي بيده ، وشده بخيطين ، وعمله ثفرا (١٤٥) لبرذونه ، فظل البرذون يروث عليه ، وكالما ابصر الروث على المصحف صدفق ببيبه وضحك عجباً وزهوا .

وأقاموا كلما ظفروا بمسلم قطعوا يديه ومذاكيره ودفعوه الى المسلمين ، والمسلمون يفعلون بمن يأسرونه من الفرنج كذلك .

وربما شذق المسلمون بعضهم ويخرج الغزاة من باب العراق ، ويسرقونهم من المخيم ، ويقطعون عليهم الطرق ، ويقتلون ويأسرون . ويصيح المسلمون على ديبس من الأسوار : « ديبس ، يا نحيس ! » والرسل تتردد بينهم في الصلح ، ولا يستتب الى ان ضباق الامر بالمسلمين جدا .

وكان بحلب بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار والحاجب عمر

الخاص ، ومعهما مقدار خمسمائة فارس ، والذي يتولى تدبيرها وهو في مقام الرئاسة القاضي أبو الفضل بن الخشاب ، وتولى حفظ المكان وبذل المال والغلال .

فاتفقوا على ان سيروا جد أبي قاضي القاضي أبا غانم محمد بن هبة الله بن أبي جرة ونقيب الأشراف وأبا عبد الله بن الجلي فخرجوا ليلا ، ومضوا إلى تمرتاش إلى مارين مستصرخين إليه ومستغيثين به فوجدوه وقد مات أخوه سليمان بن أيلغازي صاحب ميفارقين في شهر رمضان ، وسار تمرتاش إلى بلاله ليملكها ، واشتغل بملك تلك البلاد عن حلب .

وكانت الرسل مترددة بينه وبين اق سذقر البرسقي صاحب الموصل في اتفاق الكلمة على قصد الفرنج وكشفهم عن حلب ، فاشتغل بهذا الأمر عن هذا التقرير ، والحلبيون عنده يمنيهم ويمطلهم .

ولما خرج الحلبيون من حلب بلغ الفرنج ذلك فسيروا خلفهم من يلحقهم ، فلم يدركهم وأصبحوا في صباح تلك الليلة وصاحوا إلى أهل حلب : « أين قاضيكم؟ وأين شريفكم؟ » فأسقط في أيديهم إلى ان وصل منهم كتاب بخبر سلامتهم .

وبقي الحلبيون عند تمرتاش يحدثونه على التوجه إلى حلب ، وهو يعينهم ولا يفعل ، وهم يقولون له : « نريد منك ان تصل بنفسك ، والحلبيون يكفونك أمرهم » .

فضاق الأمر بالحلبيين إلى حد أكلوا فيه الكلاب والميتات ، وقلت الأقوات ونفذ ما عندهم ، وفشا المرض فيهم ، فكان المرضى يئنون لشدة المرض ، فإذا ضرب البوق لزحف الفرنج قام المرضى كأنما انشطوا من عقال ، وزحفوا إلى الفرنج وردوهم إلى خيامهم ، ثم يعودون إلى مضاجعهم .

فكتب جدي أبو الفضل هبة الله بن القاضي أبي غانم كتابا إلى والده يخبره بما آل أمر حلب إليه من الجوع ، وأكل الميتات ، والمرضى فوق كتبه في يد تمرتاش فغضب وقال: «انظروا إلى هؤلاء يتجلدون علي ، ويقولون إذا وصلت فأهل حلب يكفونكم أمرهم ، ويفترون بي حتى في أصل قلة ، وقد بلغ بهم الضعف إلى هذه الحالة .»

ثم أمر بالتوكيل والتضييق عليهم فشرعوا في أعمال الحيلة والهرب إلى أق سقز البرسقي ، يستصرخوا به فاحتالوا على الموكلين بهم ، حتى ناموا وخرجوا هاربين ، فأصبحوا بدارا (١٤٦) وساروا حتى اتوا الموصل ، فوجدوا البرسقي مريضا مدنفا ، والناس قد منعوا من الدخول عليه إلا الأطباء ، والفروج يدقق له لشدة الضعف ، ووصل إلى ديبس من أخبره بذلك ، فضرب البشارة في عسكره ، وارتفع عنده التكبير والتهليل ، ونادى بعض أصحابه أهل حلب : قد مات من أمتكم نصره ، فكانت أنفس الحلبيين تزهق .

واستؤنن للحلبيين على البرسقي فأنزلهم ، فدخلوا إليه ، واستغاثوا به ، وذكروا له ما أهل حلب فيه من الضر ، فأكرمهم - رحمه الله - وقال لهم: «ترون ما أنا فيه الآن من المرض ، ولكن قد جعلت لله علي نذرا أن عافساني من مرضي هذا لأبذل جهدي في أمركم ، والذب عن بلدكم ، وقتال أعدائكم .»

قال القاضي أبو غانم قاضي حلب : فما مضى ثلاثة أيام بعد ذلك حتى فارقت الحمى ، فأخرج خيمته ، ونادى في العساكر بالتأهب للجهاد إلى حلب .

وبقي أياما وعمل العسكر أشغاله وخرج - رحمه الله - في عسكر قوي ، فوصل إلى الرحبة ، وكاتب أتابك طغتكين صاحب دمشق وصمصام الدين خيرخان بن قراجا صاحب حمص .

ورحل الى بالس ، وسار منها الى حلب فوصلها يوم الخميس
اثمان بقين من ذي الحجة من سنة ثمانى عشرة .

ولما قرب من حلب رحل دببى ناسرا اعلامه البيض الى الفرنج
عند قربه من حلب ، وتحولوا الى جبل جوشن كلهم ، وخرج
الحلبيون الى خيامهم فنهبوا ونالوا منها ما اردوا .

وخرج اهل حلب والتقوا قسيم الدولة عند وصوله ، وسار نحو
الفرنج فانهمزوا بين يديه من جبل جوشن وهو يسير وراءهم على
مهل حتى ابعدوا عن البلد .

فأرسل الشالشية (١٤٣) ، وأمرهم ان يردوا العسكر فجعل
القاضي ابن الخشاب يقول له: «يامولانا لو ساق العسكر خلفهم
أخذناهم ، فأنهم منهزمون والعسكر محيطة بهم». فقال له: «يا قاضي
تعلم ان في بلدكم ما يقوم بكم وبعسكري لو قدر علينا - والعياذ
بالله - كسرة؟» فقال: «لا». فقال: «ما يؤمننا ان يرجعوا علينا
ويكسرونا ، ويهلك المسلمون ، ولكن قد كفى الله شرهم وندخل الى
البلد ونقويه وننظر في مصالحه ، ونجمع لهم انشاء الله ، ونخرج
اليهم بعد ذلك .» (١٤٨)

ورجع وبخل البلد وتسلم قلعتها ، ونظر في مصالح البلد
وقواه ، وأزال الظلم والمكوس وعدل فيهم عدلا شاملا وأحسن اليهم
احسانا كاملا .

وكتب لاهل حلب توقيعا باطلاق المظالم والمكوس ، نسخته
موجودة ، بعدما كان الحلبيون مزواجه من الظلم والمصادرة من عبد
الكريم والى القلعة ، وعمر الخاص والى البلد ، وتسليطهما الجند
والا تراك على مصادرة الناس بحيث انهم استصفوا أموال جماعة
من الاكابر والصدور وغيرهم في حالة الحصار .
واما الفرنج فإنهم توجهوا الى الاثارب وبخلوا انطاكية .

وشرع الناس في الزرع ببلد حلب في الثامن عشر من شباط وجعلوا يبيلون الغلة بالماء ، ويزرعونها فنبتت وتداركت عليها الأمطار فأخصبت ، وجاءت الغلة من أجود الغلال وأزكاها

وأطلق البرسقي بني منقذ من الاعتقال بقلعة حلب ، ورحل إلى تل السلطان في سنة تسع عشرة وخمس مائة ، في أواخر المحرم ، وأقام به ثلاثة أيام ، ورحل إلى أن وصل إلى شيزر في سابع صفر ، وتسلم أولاد الفرنج من ابن منقذ ، وباعهم بثمانين ألف دينار حملت إليه .

وأقام بأرض حماة أياما حتى وصل إليه أتابك طغتيكن ، فرحل في عساكره التي لا تحد كثرة ، ونزل كفرطاب فسلمت إليه يوم الجمعة ثالث شهر ربيع الآخر ، وسلمها إلى صمصام الدين خيرخان بن قراجا ، وكان قد وصل إليه من حمص والتقاء بتل السلطان .

وسار إلى عزاز وقساتلها ، ونقبت قلعتها فقصدهم الفرنج ، فالتقوا سادس عشر ربيع الآخر ، وكسر البرسقي كسرة عظيمة ، واستشهد جماعة من المسلمين من السوق والعمامة ، ولم يقتل من الأمراء والمقدمين أحد .

ووصل إلى سنقر البرسقي سالما إلى حلب ، وأقام على قدسرين أياما ، وتفرقت العساكر إلى بلادهم ، ووصل أمير حاجب صارم الدين بابك بن طلماس ، فوله البرسقي حلب وبلدنها ، وعزل عنها سوتكين واليا كان ولاءه .

ووقعت الهدنة بين البرسقي والفرنج على أن يناصفهم في جبل السماق وغيره مما كان بأيدي الفرنج ، وسار البرسقي إلى الموصل فلم يزل الفرنج يعملون الشحن والمقطعين بالحال في مغل ما وقعت الهدنة عليه إلى العشرين من شعبان من السنة .

وسار بغدوين الى بيت المقدس والرسول خلفه يعلمه بأن الفرنج لا يمكنون احدا من رفع شيء من الصياني ، وأخذ بعض متصرفي المسلمين بعض الارتفاع من بعض الاماكن والهدنة على حالها ، فجمع الفرنج ونزلوا رمنية .

وخرج شمس الخواص صاحبها طالبا أق سنقر البرسقي مستصرخا به ، وسلمها اليه ولده المستخلف فيها في آخر صفر من سنة عشرين وخمسائة ، وقصدوا بلد حمص فشعثوه .

فجمع البرسقي العساكر وحشد ، وسار نحو الشام لحربهم حتى وصل الرقة في أواخر شهر ربيع الآخر ، وسار الى أن نزل بالزقرة على الناعورة في الشهر المذكور وأقام به اياما والفرنج يرأسونه ، فراسله جوسلين على أن تكون الضياع ما بين عزاز وحلب مناصفة وأن يكون الحرب بينهما على غير ذلك ، فاستقر هذا الأمر .

وكان بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار وشهريار بك ابن عمه ، قد توجهوا مع جماعة من التركمان الى المعرة فأوقعوا بعسكر الفرنج ، وقتل المسلمون منهم مائة وخمسين ، وأسروا جفري بلذك ، صاحب بسرفوث ، من جبل بني عليم ، وأودع في سجن حلب .

وكان قد سير البرسقي ولده عز الدين مسعودا منجدا لصاحب حمص ، فاندفع الفرنج عنها فعاد عز الدين الى والده ، فتركه بحلب ، وعزل بابك عن ولايتها وولاهها كافور الخادم الى أن ينظر فيمن يوليه إياها ولاية مستقلة .

ورحل قسيم الدولة الى الاثارب في الثامن من جمادي الآخرة من سنة عشرين ، وسير بابك بن طلماس في جماعة من العسكر والنقابين الى حصن الدير المجدد فوق سرمد ففتحه سلما .

وقتل من الخيالة بعد ذلك خمسون فارسا ، ونهب العساكر الغلال والفلاحين في سائر البلد الذي وصلت الغارات اليه ، ورفعوا الغلة جميعها الى حلب ، وزحفوا الى قلعة الاثارب ، وخربوا الدوشين ، ولم يتيسر فتحها .

ووصل بغدوين من القدس في جموع الفرنج ، ووصل اليه جوسلين ، ونزلوا عم (١٤٩) وأرتاح ، وسيروا الى البرسقي ؛ «ترحل عن هذا الموضع ، ونتفق على ما كنا عليه في العام الخالي ، ونعيد رفنيه عليك » ، فتجنب الحرب ، وخشي أن يتم على المسلمين ما تم على عزاز فصالحهم الى أن فرج الخناق عن الاثارب ، وخرج صاحبها بماله ورجاله .

فغدر الفرنج وقالوا : « ما نصلح الا على ان تكون الاماكن التي ناصفنا فيها في العام الماضي لنا دون المسلمين » . فامتنع من ذلك وأقام على حلب اياما والرسل تتردد بينهم ، فلما لم تتفق حال عاد أق سزقر ، ونزل قدسرين ، ورحل الى سرمين ، وامتدت العساكر الى الفوعة ودانيث .

ونزل الفرنج على حوض معرة مصرين ، فأقاموا كذلك الى نصف رجب ، ونفذت أزواد الفرنج ، فعادوا الى بلادهم ، ثم عاد البرسقي وفي صحبته اتابك طغتيكن ، وكان وصل اليه وهو على قدسرين فدخلوا من العسكر ونزلوا باب حلب .

ومرض اتابك فعملت له المحفات ، وأوصى الى البرسقي ، وتوجه الى دمشق ، وسلم البرسقي حلب وتديرها الى ولده عز الدين مسعود ، فدخل حلب ، وأكمل السيرة وتحلى بفعل الخير .

وسار أبوه الى الموصل ، فدخلها في ذي القعدة سنة عشرين وخمسمائة ، وقصد الجامع بها ليصلي فيه يوم الجمعة تاسع ذي القعدة ، وقصد المنبر ، فلما قرب منه وثب عليه ثمانية نفر في زي الزهاد ، فاخترطوا خناجر وقصدوه وعليه درع من

الحديد ، وحوله جمع عظيم وهو محتفظ منهم ، فسبّقوا أصحابه اليه ، فضربوه حتى أخذوه وحمل جريحا فمات من يومه .

وقتل من كان وثب عليه من الباطنية غير شاب واحد كان من كفر ناصح - ضيعة من عمل عزاز - فإنه سلم ، وكان له ام عجوز فلما سمعت بقتل البرسقي وقتل من وثب عليه وكانت قد علمت ان ابنها معهم فرحت واكتحلت وجاست مسرورة فوصلها ابنها بعد أيام سالما فأحزنها ذلك ، وجزت شعرها وسوت وجهها .

وقيل: إن البرسقي قتل بيده منهم ثلاثة ، وكان البرسقي - رحمه الله - قد رأى تلك الليلة في منامه عنة من الكلاب ثاروا به فقتل بعضها ، ونال منه الباقيون اذى شديدا ، فقص رؤياه على أصحابه ، فأشاروا عليه بترك الخروج من داره عنة أيام ، فقال: «لا اترك الجمعة لشيء أبدا» ، وكان من عادته ان يحضر الجمعة مع العامة - رحمه الله - وكان وزير البرسقي المؤيد بن عبد الخالق وكان قدم معه حلب حين قدمها .

وملك عز الدين مسعود حلب عند ورود الخبر عليه بقتل أبيه في سنة عشرين ، واستوزر المؤيد وزير أبيه وولى فيها من قبله الأمير تومان .

وسار من حلب في سنة احدى وعشرين وخمسمائة الى السلطان محمود وهو ببغداد ، فسأله ان ينعم عليه ببلاد أبيه ، فكتب له مذشورا بذلك ، فوصل الى الموصل وملكها ، ثم نزل الى الرحبة قاصدا الى الشام ، وكان يظن ان قاتل أبيه قوم من أهل حماة ، فأضمر للشام وأهله شرا عظيما .

ورجع عما كان عليه من الأفعال المحمودة والاقبال على مجاهدة الفرنج ، وبلغ طفغتيكن عنه انه يقصده ، فتأهب له فلما نزل بظاهر الرحبة امتنع واليها من تسليمها ، فحاصرها اياما فسلمها الوالي اليه ، ونزل فوجده قد مات فجأة ، وقيل: سقي سما فمات .

وندتم الوالي على تسليم الرحبة ، وكان قد وصلت قطعة من
العسكر لتقوية حلب ، فمنعهم تومان من الدخول اليها ، فوقع الشر
بينه وبين رئيس حلب فضائل بن بديع ، وداخلهم الى حلب .

فوصل الى حلب ختلع ابه (١٥١) السلطاني غلام السلطان
محمود ، ومعه توقيع مسعود بن البرسقي بحلب ، كتبه قبل وصوله
الى الرحبة فلم يقبله تـومان والي حلب فعاد ختلع ابه الى
الرحبة ، - وقد جرى فيها ما ذكرناه من موت مسعود .

فعاد ختلع ابه على فوره الى حلب فتسلمها من يد تومان ، آخر
جمادى الآخرة ، وصعد الى قلعتها بطالع اختاره له
المنجمون ، فأخذ الطمع في أموال الناس وصادر جماعة من أهل
حلب ، واتهمهم بoudائع المجن الفوعي ، رئيس حلب المقتول في أيام
رضوان .

وقبض على شرف الدين أبي طالب بن العجمي وعمه أبي عبد
الله ، واعتقلهما بحلب ، وذهب كعاب أبي طالب وصادره ، فعاد
فعله القبيح عليه بالبوار ، وضل رأي منجمه في ذلك الاختيار .

وقام أهل حلب عليه فحصروه ، وقدموا عليه بدر الدولة سليمان
ابن عبد الجبار ، ونادى أهل حلب بشعار بدر الدولة ، وساعده على
ذلك رئيس حلب فضائل بن صاعد بن بديع ، وقبض على أصحاب
ختلع ابه ، وذلك في الثاني من شوال .

وقصد حلب في تلك الحال ملك أنطاكية وجوسلين فصانعوه على
مال حتى رحل (١٥٢) ، وضايقوا القلعة وأحرقوا القصر ، وبخل
اليهم الى المدينة الملك ابراهيم بن رضوان ، ووصل اليهم حسان
صاحب منبج ، وصاحب بزاعا ، ودام الحصار الى النصف من ذي
الحجة .

وكان أتابك عماد الدين زنكي بن قسيم الدولة أق سذقر ، قد ملك

الموصل بتواقيع السلطان محمود ، فسير اليه شهاب الدين مالك صاحب قلعة جعبر ، وأعلمه بأحوال حلب وحصارها ، فسير أتابك اليها عسكريا مع الامير سنقر دراز والامير الحاجب صلاح الدين حسن (١٥٣)

ودخل الامير صلاح الدين فأصلح الحال ، ووفق بينهما على أن استدعيا أتابك زكي من الموصل ، فتوجه بالجيش الى حلب ، وقيل: إن بدر الدولة وختلج سارا اليه .

وقيل: إن ختلج أبه لم يزل بالقلعة حتى وصل أتابك فنزل اليه ، وصعد أتابك الى القلعة ، يوم الاثنين سابع عشر جمادى الآخرة ، من سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة ، وارتاد موضعا ينقل اباه قسيم الدولة اليه ويدفنه به ، وكان مدفونا بالقبة التي على جبل قرنيا ، فعرض عليه بدر الدولة نقل أبيه الى المدرسة التي أنشأها بالزجاجين .

وقيل: إن أبا طالب بن العجمي طلب منه ذلك ، فنقله ورفعته في الليل من سور حلب ، ودفنه في البيت الشمالي من المدرسة (١٥٤)، واتخذته تربة لمن يموت من أولاده ، ووقف على المقرئين على تربة والده القرية المعروفة بشامر (١٥٥) .

وأما الملك ابراهيم بن رضوان فإنه هرب منه الى نصيبين ، وكانت في إقطاعه الى أن مات .

وأما ختلج أبه فإنه سلمه الى فضائل بن بديع فكحله (١٥٦) بداره ، ثم قتله أتابك بعد ذلك .

وقيل: إن بدر الدولة هرب منه عند ذلك ، وهرب فضائل بن بديع الى قلعة ابن مالك خوفا من أتابك .

وولى اتابك رئاسة حلب الرئيس صفى الدين أبا الحسن علي بن عبد الرزاق العجلاني البالسي ، فسلك أجمل طريقة مع الناس .

وخرج اتابك من حلب ، وسار حتى نزل ارض حماة ، فوصله صمصام الدين خيرخان بن قراجا ، وتأكدت بينهما مودة لم تحمد عاقبتها ، فيما ذكره بعد - وكذلك وصله سونج ابن تاج الملوك .

ثم سار اتابك (١٥٧) بعد ذلك ، فوطىء بساط السلطان ، في سنة ثلاث وعشرين وخمسائة ، وعاد بالتوقيع السلطانية بملك الغرب كله ، وبخل الموصل ثم فتح قلعة السن ، وتوجه الى حلب ، ورعى عسكره زرع الرها .

وعبر اتابك الفرات الى حلب بتوقيع السلطان محمود ، وقد كان السلطان أثر ان تكون البلاد لدييس ، فقبح المسترشد ذلك ، وكتب السلطان وقال له فيما قال: ان هذا أعان الفرنج على المسلمين وكثر سواد الكفار ، فبطل هذا التدبير.

واستقر ملك اتابك بالموصل ، والجزيرة ، والرحبة ، وحلب ، والتوقيع له بجميع البلاد الشامية وغيرها .

وتزوج اتابك خاتون بنت الملك رضوان ، وبنى بها في بير الزبيب (١٥٩) ، وكانت معه الى ان فتح الخزانة بحلب ، واعتبر ما فيها ، فرأى الكبير (١٦٠) الذي كان على ابيه أق سذقر ، حين قتله تدش جدها ، وهو ملوث بالدم ، فهجرها من ذلك اليوم . وقيل : إنه هدم المشهد الذي على قبر رضوان ، عند ذلك .

ودام اتابك مهاجرا لها الى ان نزلت على القاضي أبي غانم قاضي حلب ، وشكت حالها ، فصعد اليه وكان جبارا الا انه يذقاده الى الحق ، وإذا خوف بالله خاف ، فخرج ليركب ، فلما ركب ذكر له القاضي ما ذكرته خاتون ، فساق دابته اتابك ، ولم يرد عليه جوابا ، فجذب القاضي أبو غانم بلجام دابته ، فوقف ، وقال له :

«يا مولانا ، هذا الشرع لا ينبغي العدول عنه » ، فقال له أتابك :
«أشهد علي أنها طالق» ، فأرسل اللجام وقال : «أما الساعة
فنعم»!

واستودش الأمير سوار بن ايتكين من تاج الملوک بوري صاحب
دمشق ، وكان في خدمته ، فورد الى حلب الى خدمة أتابك ، في سنة
اربع وعشرين ، فأكرمه وشرفه ، وخلع عليه ، وأجرى له
الاقطاعات الكثيرة ، وأعطاه ولاية حلب واعمالها ، واعتمد عليه في
قتال الفرنج ، وكان له بصيرة بالحرب وتبدير الأمور ، وله وقعات
كثيرة مع الفرنج ومواقف مشهورة ابان فيها عن شجاعة
واقدام ، وصار له بسببها الهيبة في قلوب الكفار الاغنام .

وعزم اتابك في السنة على الجهاد ، وكتب الى تاج الملوک بوري بن
طفتكين صاحب دمشق ، يلتمس منه المساعدة ، فأجابه الى ذلك
وتحالفا على الصفاء .

وكتب تاج الملوک الى ولده بهاء الدين سونج بحماة ، يأمره
بالخروج بعسكره ، وجهز اليه من دمشق خمس مائة
فارس ، وجماعة من الأمراء مقدمهم شمس الخواص ، فخرجوا
حتى وصلوا الى مخيم اتابك على حلب ، فأكرمهم
وتلقاهم ، وأقاموا عنده ثلاثا ، ثم أظهروا الغارة ، على
عزاز ، وركبوا وعطفوا على سونج ، وغدربه وبأصحابه ، ونهب
خيامهم وأثقالهم وكراعهم ، وهرب بعضهم ، وقبض على سونج
والباقيين ، وحملهم الى حلب ، واعتقلهم فيها .

وسار من يومه الى حماة فأخذها يوم السبت ثامن
شوال ، وأقام بها اياما ، وطلبها خير خان بن قراجا صاحب
حمص ، وبذل عليها مالا ، فسلمها اليه بكرة الجمعة رابع عشر
شوال ، وضربت بدوقاته عليها ، وخطب له الخطيب على
المنبر ، فلما كان وقت العصر من ذلك اليوم قبض عليه ونهب خيامه
وجميع ما فيها .

وسار فنزل حمص ، فقاتلها أربعين يوما لم يظفر فيها بطائل غير الربض ، وكان يربط خير خان على غراير التبني ، ويعاقبه ويعذبه انواع العذاب ، وانتقم الله منه ببعض ظلمه في الدنيا ، وهو كان يحرض اتابك على الغدر بسونج ، فكافاه الله .
وهجم الشتاء فعاد اتابك الى حلب في ذي الحجة .

واملكت أنطاكية زوجة البيمند بنت بغديون ، وحالفت جماعة من الفرنج على قتال أبيها ، ووقع بين الفرنج شر (١٦٢) وهجم المسلمون ربض الأثارب ، وربض معرة مصرين ، فوصل بغديون من البيت المقدس ، وأغار على أنطاكية وأخذ قوما من أصحاب ابنته ، فقطع أيديهم وأرجلهم .

وفتح قوم من السرجندية (١٦٣) باب أنطاكية ، فدخلها في سنة خمس وعشرين ، فطرحت ابنته نفسها عليه ، فصفع عن نذبيها ، وأخذ أنطاكية ، وهبها جبلة واللاذقية ، وعاد الى القدس .

وتوجه اتابك الى الموصل في سنة خمس وعشرين وخمسمائة ، واستصحب معه سونج بن تاج الملوک ، وبعض المتقدمين من عسكر دمشق ، وترك الباقين بحلب ، وترددت المراسلات في إطلاقهم ، فلم يفعل ، والتمس عنهم خمسين ألف دينار اجاب تاج الملوک الى تحصيلها وحملها .

ووقع في هذه السنة وقعة بين جوسلين وسوار ، بناحية حلب الشمالية ، فكانت الغلبة لجوسلين ، وقتل من المسلمين جماعة ، وخرج سوار بعد ذلك فهجم ربض الأثارب ونهبه .

ووصل ديبس في هذه السنة منهزما من المسترشد ، وكان قد كسره عسكر المسترشد في هذه السنة ، فانهزم وخفي خبره عن كل أحد ، فظهر بعد مدة انه وصل الى قلعة جعبر ، وأودع ابن السلطان

عند مالك صاحبها ، وسار الى جوسلين ، واستند الى الفرنج فلم
ير ما يعجبه .

وكاتب تمرتاش ثم خاف من غدره ، وأن يفادي به
خيرخان ، فسار الى بلد دمشق ، فنزل ضالا على مكتوم بن
حسان .

وقيل: كان سائرا الى صاحبة صرخد ليتزوجها ، فضل في
الطريق ، ولم يكن معه دليل عارف بالمناهل .
وقيل: كان قاصدا حلة مري ، فهلك اكثر اصحابه .

وحصل في حلة حسان كالمقطع الوحيد في زفر يسير من
اصحابه ، فانهض تاج الدولة بوري العسكر اليه حينما سمع
به ، فأسره ، ووصلوا به الى دمشق ، است خلون من شعبان سنة
خمس وعشرين ، (١٦٤) وأنزله في دار بقلعة دمشق ، وأكرمه
وأضافه ، وحمل اليه من الملبوس والمفروش ما يليق به ، واعتقله
اعتقال كرامة . وكاتب المسترشد في أمره ، فرد عليه الجواب
بالاحتياط عليه الى ان يصل من يحملة الى بغداد .

فلما عرف اتابك زنكي ذلك ، انفذ رسوله الى تاج الملوك يطلب
تسليم دبيس اليه ، وأن يطلق له الخمسين ألف دينار المقررة عن
ولده سونج وبقيّة العسكر ، فأجاب الى ذلك ، وتقرر الشرط عليه .

ووصل اتابك زنكي الى قريب قارا بسونج والمعتقلين ، وتوجه
أصحاب تاج الملوك بدبيس فتسلمه زنكي ، وحمله في محفة
مقيدا ، وسلم سونج بن تاج الملوك وجماعته الى اصحابه .

وكان يظن دبيس ان اتابك زنكي يهلكه ، فلما وصل إلى حلب
أطلقه وأكرمه ، وأنزله بحلب في دار لاجين ، وأعطاه مائة ألف
دينار ، وخلع عليه خلعا فاخرة .

وكان عرض لدييس في طريقه وهو مكبل بالحديد شاعر امتدحه
بأبيات ، ولم يكن معه ما يجيزه ، فكتب له في رقعة هـنين
البيتين ، ودفعهما اليه :

الجود فعلي ولكن ليس لي مال
وكيف يصنع من بالفرض يحتال
فهاك خطي الى أيام ميسرتي
دينا علي فلي في الغيب أمال

فجاءه الشاعر بحلب ، وقد خرج مسيرا في ميدان الحصا ، فقال
له : «ياأمير لي عليك دين » فقال: «والله ما اعرف لأحد علي دينا »
فقال: «بلى ، وشاهده منك » ، وأخرج له خطه ، فلما وقف عليه
قال: «أي والله دين وأي دين!» وأمره ان يأتي اليه اذا نزل ، فأتاه
فأعطاه ألف دينار والخلعة التي خلعها اتابك زنكي عليه ، وكانت
جبة اطلاس وعمامة شرب .

وحصل دييس بعد ذلك عند السلطان مسعود ، في سنة تسع
وعشرين ، حتى كسر مسعود المسترشد وأسره على باب مراغة .

وسير السلطان إلى اتابك زنكي يستدعيه ، وعزم على الفتك
به ، وأطلع دييس على ذلك ، فكتب الى اتابك يعلمه ويحذره من
المجيء ، فامتنع ، وكان السلطان قد سير دييسا الى الحلة ، وأطلع
بعد ذلك على فعل دييس ، فرده ، وحذره الناس فلم يفعل
فوصل ، فلما وصل الى الخينة قام السلطان عن السرير . وقال:
«هذا جزاء من يخون مولاه » وضرب رأسه فأطاره ، فبلغ ذلك زنكي
فقال: «فبيناه بالمال وفدانا بالروح».

ووصل سييد الدولة بن الأنباري كاتب الانشاء للمسترشد الى
تاج الملوك ، في أواخر ذي القعدة لتسليم دييس الى من يحمله الى
بغداد ، فوجد الأمر قد فسات ، فعاد فصادفته خيل اتابك زنكي

بناحية الرحبة فأوقعوا به ، وقبضوه ، ونهبوا ما كان معه حتى نهبوا القافلة التي كانت معه ، وقتل بعض غلمانهم ، ولقي شدة عظيمة من الاعتقال الى ان اطلق ، وعاد الى بغداد .

وفي سنة ست وعشرين وخمسمائة ، فتح الملك كلياًم رام حمدان ، وسار اتابك وديس الى بغداد ، مباينين للمسترشد ، وعزما على ان يهجما بغداد ، فبذل لهما الحلة ، وأن يدخل نائبهما بغداد ، فأبيا فخرج اليهما المسترشد بنفسه ، والتقوا في شعبان على عقر قوب فكسرها ، وعاد اتابك زنكي إلى الموصل ، وسار ديبس الى السلطان سنجر

ووقع بين الفرنج في هذه السنة فتن ، وقتل بعضهم بعضاً ، وقتل صاحب زرينا ، ونزل التركمان على بلد المعرة وكفرطاب ، وقسموا المغلات ، فاجتمع الفرنج وهزموهم عن البلد ، وفتحوا حصن قبة ابن ملاعب ، وأسروا منه بنت سالم بن مالك وحريم ابن ملاعب .

وأوقع الأمير سيف الدين سوار بفرنج تل باشر ، وقتل منهم خالفاً كثيراً ، ووثب قوم من أهل الجبل على حصن القدموس ، فأخذوه وسلموه الى سيف الملك بن عمرون ، فاشتراه ابوالفتح الداعي الباطني منه .

ووصل صاحب القدس الى انطاكية ، وجمع وخرج الى نواز ، وسار الى قدسرين في جموع الفرنج ، والتقوا بعسكر حلب وسوار ، في سنة ثمان وعشرين في ربيع الاول ، فكسروا المسلمين ، وقتلوا أبا القاسم التركماني ، وكان شجاعاً ، وقتلوا القاضي ابا يعلى بن الخشاب ، وغيرهما .

وتحول الفرنج الى الذقرة فصاحبهم سوار والعسكر ، فأوقعوا بسرية منهم ، فقتلوهم وعادوا برؤوسهم وأسرى منهم ، فسر الناس بذلك بعد مساعتهم بالأمس .

وأغار خيل الرها من الفرنج ببلد الشمال ، وهي عابرة الى
عساكر الفرنج ، فأوقع بهم سوار وحسان صاحب منبج وقتلوهـم
بأسرهم وحملوا الرؤوس والأسرى الى حلب (١٦٩) .

وفتح شمس الملوك اسماعيل بن تاج الملوك حماة من يد نائب
صلاح الدين ، وكان قد عزم على ذلك فتحصن واليها ، فأنتهى ذلك
الى شمس الملوك ، فخرج في العشر الاواخر من شهر
رمضان ، وعزم على قصدها والناس بها غافلون .

وهجم يوم العيد على من فيها وزحف في الحال فتحصنوا
منه ، فعاد في ذلك اليوم ، وقد نكا اصحابه في اهلها ، ثم زحف
عليها زحفا قويا ، فانهزموا بين يديه ، وهجم البلد فطلبوا الامان
فأمنهم ، وحلفه والي القلعة على أشياء اقترحها ، واجابه اليها
وسلمها اليه ، فسلمها الى شمس الخواص

وحصر المسترشد الموصل ، وثار الحروب بين السلاطين ، فبلغ
المسترشد ما أزعجه ، فعاد عنها ، فوصل حسام الدين تمرتاش الى
خدمة اتابك زنكي ، فسار معه الى لقاء داود بن سكمان بن
ارتق ، فكسره اتابك بباب آمد ، وانهزم داود وأسر ولده ، وقتل
جماعة من أصحابه ، وذلك في يوم الجمعة سلخ جمادى الآخرة .

ونزل على آمد وحصرها ، وقطع شجرها ، فصانعه صاحبها
بمال ، فرحل عنها الى قلعة الصور ففتحها ، وفتح
البارعية ، وجبل جور ، وذا القرنين ووهب ذلك كله لحسام الدين
تمرتاش ، وفتح طنزة فاستبقاها لنفسه (١٧١) .
وتزوج اتابك صاحبة خلاط ابنة سقمان القطبي .

واستولى اتابك على العقير (١٧٢) وشوش (١٧٣) وغير ذلك
من قلاع الاكراد ، وأغار في هذه السنة سوار على الجزر وحصن
زربنا ، وأوقع بالفرنج على حارم ، وشحن على بلد
المعرتين ، وعاد بالغنائم الى حلب .

واستوزر زنكي في هذه السنة ضياء الدين ابا سعد الكفرتوئي ، وكان مشهورا بحسن الطريقة والكفاية وحب الخير والمذهب الحميد . وقدم معه الى حلب . وعزم على قصد دمشق ومضايقتها .

وذكر العظيمي في تاريخه : «انه حصرها في هذه السنة مدة ، (١٧٤) ثم رحل الى حلب ، ثم شرق الى الموصل» .
والصحيح: انه حصرها في سنة تسع وعشرين وخمسمائة .

وذلك ان صاحبها شمس الملوك ابا الفتح اسماعيل بن بوري ، انهمك في المعاصي والقبائح ، وبالغ في الظلم ، وأعرض عن مصالح الدين والنظر في أمور المسلمين ، بعد اهتمامه أولا بذلك .

واستخدم بين يديه رجلا كريها - يعرف ببدران الكافر - جاءه من بلد حمص ، وكان قليل الدين متذوعا في أبواب الظلم ، ليس في قلبه لاحد رحمة ، فسلطه على ظلم المسلمين ومصادرة المتصرفين بأنواع قبيحة من الظلم ، وظهر منه بخل عظيم وسمت نفسه الى تناول النايا وغير ذلك من الأفعال الذميمة .

وعزم على مصادرة كتابه وحجابه وامرائه ، فخاف منه اصحابه ، واستشعروا منه ، ووقعت الوحشة بينهم .

وعرف عزم اتابك زنكي على قصد دمشق ، وأنه متى وصلها سلمت اليه ، فكاتب اتابك زنكي وحثه على سرعة الوصول اليها ليسلمها اليه طوعا ، وشرط عليه ان يمكنه من الانتقام من كل من يكرهه من المقدمين والامراء والاعيان ، وكرر المكاتبة اليه في ذلك ، وقال: «إن اهمت هذا الامر استدعيت الفرنج وسلمت دمشق اليهم ، وكان اثم المسلمين في عنقك» .

وشرع في نقل أمواله وأحواله الى صرخد ، فظهر هذا الأمر لأصحابه ، فأشفقوا من الهلاك واعلموا والدته زمرد خاتون

بذلك ، فقلقت له ، وحسذوا لها قتله ، وتمليك أخيه شهاب الدين محمود ، فرجع ذلك في نظرها ، وعزمت عليه ، فانتظرت وقت خلوته من غلمانه وسلاحيته ، وأدخلت عليه من أصحابها من قتله .

وأخرجته فألقي في ناحية من الدار ليشاهده غلمانه وأصحابه فسروا بذلك ، وذلك في يوم الأربعاء الرابع عشر من شهر ربيع الآخر سنة تسع وعشرين وخمسمائة .

وقيل: إنه اتهم يوسف بن فيروز حاجب أبيه بوالدته ، فهرب منه الى تدمر ، فأراد قتل أمه ، فبلغها الخبر فقتلته خوفاً منه ، وأجلست والدته مكانه أخاه شهاب الدين محمود بن بوري (١٧٥) ، وحالف الناس له. وتوجه أتابك زنكي من الموصل مجداً ليتدسلم دمشق من شمس الملوك ، فوصل الى الرقة وقال: «أشتهي أن أدخل الحمام». فأحضر صلاح الدين مسيب بن مالك صاحب الرقة ، وقال له: «أتابك يشتهي دخول الحمام ، وهذه خمسمائة دينار تسلمها وأعمل له بهما دعوة» فلم يشك في ذلك ، وبخلوها ، فلما حصلوا بها أخذوها منه ، وذلك في العشرين من شهر ربيع الآخر . وبلغه ما جرى بدمشق ، فلم يقطع طمعه فيها ، وسار فنزل العبيبية (١٧٦) ، وراسل أهل دمشق ، فلم يجيبوه الى مطلوبه ، وردوا عليه جواباً خشناً ، يتضمن أن الكلمة قد اتفقت على حفظ الدولة والذب عنها ، فلم يحفل بذلك .

وسار الى حماة فخرج اليه شمس الخواص بعد أن توثق منه بالإيمان ، ورحل الى دمشق ، وسار اليها ، فنزل على دمشق في عسكر عظيم ، وزحف عليها مراراً متعبدية ، فلم يظفر فيها بطائل ، واشتد الغلاء في العسكر ، وعدموا القوت ، وقفز جماعة من العسكر الى دمشق ، ووقعت المراسلة في حديث الصلح ، وكان قد وصل مع أتابك بعض أولاد السلطان فطلب أن يخرج شهاب الدين محمود لوطاً بساط ولد السلطان ، فلم يفعل .

واتفق الأمر على خروج أخيه تاج الملوك بهرام شاه ، واتفق عند ذلك وصول بشر بن كريم بن بشر رسولا من المسترشد الرزنكي بخلع هيئت له ، وتقدم إليه بالرحيل عن دمشق والوصول إلى العراق ، ليوليّه امره وتديبره ، وأن يخطب للسلطان ألب أرسلان داود بن محمود المقيم بالموصل - وكان قد وصل هاربا بين يدي عمه السلطان مسعود - فأكرمه أتابك .

فدخل الرسول وبهاء الدين بن الشهرزوري إلى دمشق ، وقررا هذه القاعدة واخذا الفتنة ، وأكدوا الأيمان ، وخطب يوم الجمعة الثامن والعشرين من جمادى الأولى بجامع دمشق بحضورهما على القاعدة التي وصل فيه الرسول (١٧٧) .

وعاد أتابك من دمشق ، فلما وصل حماة قبض على شمس الخواص صاحبها ، وأذكر عليه أمرا ظهر منه ، وشكا أهلها من نوابه فقتلهم منه ، وأطلقه فهرب ، ورد حماة إلى صلاح الدين ورحل من حماة .

وسار إلى بلد حلب ، فنزل على الأثارب ، ففتحها أول رجب ثم فتح زرينا ، ثم تل أعذى ، ثم فتح معرة النعمان ، ومن على أهلها بأملأكم ، ثم فتح كفرطاب ، ونزل على شيزر فخرج إليه أبو المغيث ابن منقذ نائباً عن أبيه ، ثم نزل بشارين (١٧٨) وأظهر أنه يحاصرها ، ثم سار ، وأهل حمص غارون ، فشن عليهم الغارة ، واستاق كل ما كان في بلدنا ونهبهم .

ووصل ابن الفذش الفرنجي من بيت المقدس وخرج في جموع الفرنج ، فنزل قنسرين ، فسار إليهم أتابك فأحسن التدبير ، ومازال بالمسلمين حولهم حتى عادوا إلى بلادهم .

وسار زنكي إلى حمص فأحرق زرعها ، وقا تلها في العشر الاواخر من شوال ، ثم سار إلى الموصل في ذي القعدة من هذه السنة .

وسار منها في المحرم من سنة ثلاثين وخمسمائة إلى بغداد ،
ومعه داود بن محمود بن محمد بن ملكشاه الواصل إليه إلى
الموصل ، فأنزله في دار السلطنة ببغداد ، وأتابك في الجانب الغربي ،
والخليفة إذ ذاك الراشد بعد قتل المسترشد .

فوصل السلطان مسعود إلى بغداد فحصرهم بها فوقع الوباء في
عسكره ، فسار إلى أرض واسط ليعبر إلى الجانب الغربي ، فاغتنم
أتابك غيبته ، وسار إلى الموصل ، وسار داود إلى مراغة .

وبلغ الخبر السلطان مسعود فعاد ، فهرب الراشد ، ولحق أتابك
بالموصل . وبذل مسعود بغداد ، فبايع محمد المقتفي ، وخطب له
ببغداد وأعمال السلطان ، وبقيت الخطبة بالشام والموصل على
حالتها إلى أن اتفق أتابك زنكي والسلطان مسعود واصطالحا ،
وخطب بالشام والموصل للمقتفي ولمسعود . وفارق الراشد إذ ذاك
زنكي ، وسار عن الموصل إلى خراسان في سنة إحدى
وثلاثين (١٧٩) .

وسار سيف الدين سوار في سنة ثلاثين وخمسمائة في جمع من
التركمان يبلغ ثلاثة آلاف إلى بلد اللاذقية ، وأغار على الفرنج على
غرة وقلة احتراز ، فعادوا ومعهم ما يزيد على سبعة آلاف أسير ،
ما بين رجل وامرأة وصبي وصبية ومائة ألف رأس من البقر والغنم
والخيل والحمير والذي نهبوه - على ما ذكر - مائة قرية وامتلات
حلب من الأسارى والدواب ، واستغنى المسلمون بما حصل لهم من
الغنائم .

ووصل أتابك زنكي من الموصل إلى حلب ، في رابع وعشرين من
شهر رمضان سنة إحدى وثلاثين ، وسير صلاح الدين في مقدمته ،
فنزل حمص ، وسار أتابك إلى حماة ، وعيد عيد الفطر في الطريق ،
وأخذ من حلب معه خمسمائة راجل لحصار حمص .

ورحل أتابك من حماة إلى حمص في شوال وبها أنر (١٨٠) من قبل صاحب دمشق ، فحصرها مدة .

وخرج الفرنج نجدة لحمص وغيلة لزنكي ، فدخل عن حمص وأقيهم تحت قلعة بارين ، فكسرتهم طلائع زنكي مع سوار ، فأفدوا عامتهم قتلا وأسرا ، وقتل أكثر من ألفين من الفرنج ، ونجا القليل منهم ، فدخل إلى بارين مع ملكهم كندنياجور (١٨١) صاحب القدس ، وأقام الحصار على بارين بعشر مجانيق ليلا ونهارا ، ثم تقرر الصلح في العشر الآخر من ذي القعدة على التسليم بعد خراب القلعة .

وخلع على الملك وأطلق ، وخرج الفرنج منها ، وتسلمها زنكي ، وعاد إلى حلب .

واستقر الصلح بين أتابك وصاحب دمشق ، وتزوج أتابك خاتون بنت جناح الدولة حسين ، على يد الامام برهان الدين البلخي ، وبخل عليها بحلب في هذه السنة .

ووصل في هذه السنة ملك الروم كالياني (١٨٢) من القسطنطينية في جموعه ، ووصل إلى أنطاكية فخالفه الفرنج - لطفا من الله تعالى - وأقام إلى أن وصلتته مراكبه البحرية بالأثقال والميرة والمال ، فاعتمد لاون بن روبال (١٨٣) صاحب الثغور في حقه فتحا عظيما .

وتخوف أهل حلب منه فشرعوا في تحصينها وحفر خنادقها ، فعاد إلى بلاد لاون فافتتحها جميعها ، فدخل إليه لاون متطارحا ، فقال : « أنت بين الفرنج والأتراك لا يصلح لك المقام » ، فسيره إلى القسطنطينية ، وأقام في عين زربة وأننة والثغور ، مدة الشتاء .

وكان في عوده عن أنطاكية إلى ناحية بغراس (١٨٤) في الثاني والعشرين من ذي الحجة من سنة إحدى وثلاثين ، أنفذ رسوله إلى

زنكي ، وظفر سوار بسرية وافرة العدد من عسكره ، فقتل وأسر
وبخل بهم إلى حلب .

ووصل الرسول إلى زنكي ، وهو متوجه إلى القبة فرده ومعه
هدية إلى ملك الروم : فهود وبزاة وصقور ، على يد الحاجب حسن ،
فعاد إليه ومعه رسول منه وأخبره بأنه يحاصر بلاد لاون ، فسار إلى
حماة ، ورحل إلى حمص فقاتلها .

ثم سار في نصف المحرم من سنة اثنتين وثلاثين فنزل بعلمك وأخذ
منها مالا ، وسار إلى ناحية البقاع فملك حصن المجدل (١٨٥) من
أيدي الدمشقيين ، وبخل في طاعته أبراهيم بن طرغث والي
بانياس .

وشتى أتابك زنكي بأرض دمشق ، وورد عليه رسول الخليفة
المقتفي والسلطان مسعود بالتحشيف ، ثم رحل أتابك عن دمشق في
شهر ربيع الآخر ، وعاد إلى حماة ، ثم رحل عنها إلى حمص ،
فخيم عليها ، وجرد من حلب رجالا لحصارها ، وجمع عليها جموعا
كثيرة ، وهجم المدينة ، وكسر أهلها ونال منهم منالا عظيما .

ونقض الفرنج الهدنة التي كانت بينهم وبين زنكي على حلب ،
وأظهروا العناد ، وقبضوا على التجار بأنطاكية والسفار من أهل
حلب ، في جمادى الأولى من السنة ، بعد إحسانه إليهم واصطناعه
لمقدميهم ، حين أظفره الله بهم ، وانضافوا إلى ملك الروم كالياني .

وظهر ملك الروم بغثة من طريق مدينة البلاط ، يوم الخميس
الكبير من صومهم ونزل يوم الأحد يوم عيد النصر ، وهو الحادي
والعشرون من شهر رجب ، على حصن بزاعا .

واندشرت الخيل بغثة فلفظ الله بالمسلمين ، فرأوا رجلا من كافر
ترك (١٨٦) ومعه جماعة منهم ، قد تاهوا عن عسكر الروم ،
وأظهروا أنهم مستأمنة وأنذروا من بحلب بالروم .

فتحرز الناس وتحفظوا ، وكاتبوا أتابك زنكي بذلك ، فوصله الخبر وهو على حمص ، فسير في الحال الأمير سيف الدين سوار والرجالة الحلبيين وخمسمائة فارس ، في أربعة من الأمراء الاصفهسلارية (١٨٧) منهم زين الدين علي كوجك ، فقويت قلوب اهل حلب بهم ، ووصلوا في سابع وعشرين من رجب .

وأما الروم فإنهم حصروا حصن بزاعا ، وقاتلوه سبعة أيام ، فضعت قلوب المسلمين ، وكان الحصن في يد امرأة فسلموه إلى الروم بالأمان ، بعد أن توذقوا منهم بالعهود والأيمان ، ففدروا بهم ، وأسروا من بزاعا ستة آلاف مسلم أو يزيدون ؛ وأقام الملك بالوادي يدخن على مغاير الباب عشرة أيام ، فهلكوا بالدخان .

ثم رحل فنزل يوم الأربعاء الخامس من شعبان ، بأرض الناعورة ، ثم رحل يوم الخميس سادس شعبان ، ومعه ريمند صاحب أنطاكية وابن جوسلين ، فنزل على حلب ونصب خيمته من قبليها على نهر قويق ، وأرض السعدي ، وقاتل حلب يوم الثلاثاء من ناحية برج الغنم (١٨٨) ، وخرج إليهم أحداث حلب ، فقاتلهم وظهروا عليهم ، وقتل من الروم مقدم كبير ، ورجعوا إلى خيمهم خائبين .

ورحل يوم الأربعاء ثامن شعبان مقتبلا إلى صالدي (١٨٩) فخاف من بقلعة الأتارب من الجند المسلمين ، فهربوا منها يوم الخميس تاسع شعبان ، وطرخوا النار في خزائنهم .

وعرف الروم ذلك فخفت منهم سرية وجماعة من الفرنج ، ومعهم سبي بزاعا والوادي ، فملكوا القلعة ، وألجأوا السبي إلى خنادقها وأحوا شها ، فهرب جماعة منهم إلى حلب ، وأعلموا الأمير سيف الدين سوار بن أيتكين بذلك ، وأن الروم انعزلوا عنها .

فنهض إليهم سوار في لمة من العسكر ، فصاحبهم وقد انتشروا

بعد طلوع الشمس ، فوقع عليهم واستخلص السبي جميعه إلا
اليسير منهم ، وأركب الضعفاء منهم خلف الخيالة حتى أنه أخذ
بذفسه جماعة من الصبيان ، وأركبهم بين يديه ومن خلفه ، ووصل
بهم إلى حلب ، ولم يبق من السبي إلا القليل ، ووصل بهم إلى حلب
في يوم السبت الحادي عشر من شعبان ، فسر أهل حماة ثم رحل
إلى سلمية ، ورحل ملك الروم إلى بلد معرة النعمان ، ورحل عنها
يوم الاثنين ثالث عشر شعبان إلى جهة شيزر ، ونزلوا كفرطاب
ورموها بالمجانيق ، فسلمها أهلها في نصف شعبان .

وهرب أهل الجسر (١٩٠) ، وتركوه خاليا فوصله الروم ،
وجلسوا فيه ورحلوا عنه إلى شيزر ، يوم الخميس سادس عشر
شعبان ، فوصلوها في مائة ألف راكب ومائة ألف راجل ، ومعهم من
الكرار والسلاح مالا يحصيه إلا الله ، فنزلوا الرابية المشرفة على
بلدة شيزر ، وأقاموا يومهم ويوم الجمعة إلى آخر النهار .

وركبوا وهجموا البلد ، فقاتلهم الناس وجرح أبو المرف نصر
ابن منقذ ، ومات في رمضان من جرحه ذلك .

ثم انهزم الروم ، وخرجوا ، ونزل صاحب أنطاكية في مسجد
سمون ، وجوسلين في المصلى ، وركب الملك يوم السبت ، وطلع إلى
الجبل المقابل لقلعة شيزر المعروف بجريجس ، ونصب على القلعة
ثمانية عشر منجنيقا وأربع لعب تمنع الناس من الماء .

ودام القتال عشرة أيام ، ولقي أهل شيزر بلاء عظيما ، ثم
اقتصروا في القتال على المجانيق ، وأقاموا إلى يوم السبت تاسع
شهر رمضان .

وبلغهم أن قرا أرسلان بن داود بن سكمان بن أرتق عبر الفرات
في جموع عظيمة تزيد عن خمسين ألفا من التركمان وغيرهم ،
فأحرقوا آلات الحصار ، ورحلوا عن شيزر ، وتركوا مجانيق عظاما

رفعها أتابك إلى قلعة حلب بعد رحيلهم ، وساروا بعد أن هجموا
ربض شيزر دفعات عدة ، ويخرجهم المسلمون منها . (١٩١) .

فوصل صلاح الدين من حماة يوم السبت تاسع الشهر ، وبلغه أن
الفرنج هربوا من كفر طاب فسار إليها ، وملكها ، ووصل أتابك يوم
الاحد عاشر الشهر، وسار إلى الجسر يوم الاثنين ، فوجد الفرنج قد
هربوا منه نصف الليل ونزل أهله من « أبي قبيس » (١٩٢) ،
فمنعوههم وبخل الروم مضيق أفامية إلى أنطاكية ، وطلبها من
الفرنج فلم يعطوه إياها ، فرحل عنها إلى بلاده ، وسير أتابك خلفهم
سرية من العسكر تتخطفهم . هذا كله وأتابك لم يستحضر قرا
أرسلان بن داود ، ولم يجتمع به ، بل بعث إليه يأمره بالعود إلى
أبيه ، وأنه مستغن عنه وانحاز عنهم فنزل أرض حمص ، وكتب إلى
شهاب الدين محمود بن بوري يطلبها .

وترددت الرسل بينهم على أن يسلم إلى أتابك حمص ، ويعرض
أنر واليه ببارين ، واللكمة (١٩٣) والحصن الشرقي ، وأن يتزوج
أتابك أمه زمرد خاتون بنت جاولي ، ويتزوج محمود ابنة أتابك ،
ويسلم أتابك حمص ، ويسلم الدمشقيون المواضع المذكورة .

وسارت زمرد خاتون من دارها إلى عسكر زنكي ، مع أصحابه
المندوبين لايصالها إليه في أواخر شهر رمضان سنة اثنتين وثلاثين ،
وقد اجتمع عنده رسول الخليفة المقتفي ، وألبسة التشريف الواصل
إليه ، ورسول السلطان ، ورسول مصر ، والروم ، ودمشق .

ورحل أتابك عن حمص ، وسار إلى حلب ، ثم خرج منها إلى
بزاعا وفتحها بالسيف ، يوم الثلاثاء تاسع عشر محرم من سنة
ثلاث وثلاثين وخمسمائة ، وقتل كل من كان بها على قبر شرف
الدولة مسلم بن قريش ، وكان ضرب عليها بسهم في عينه فمات .

وعاد منها إلى حلب ، وسار إلى الأثارب ، ففتحها ، في ثالث
صفر .

وفي يوم الخميس ثالث عشر صفر ، حدثت زلزلة شديدة ثم اتبعتها أخرى ، وتواصلت الزلازل ، فهرب الناس من حلب إلى ظاهر البلد وخرجت الاحجار من الحيطان إلى الطريق ، وسمع الناس دويًا عظيمًا ، وانقلبت الأثارب فهلك فيها ستمائة من المسلمين ، وسلم الوالي ومعه نفر يسير ، وهلك أكثر البلاد من شيخ ، وتل عمار (١٩٤) ، وتل خالدا ، وزرينا (١٩٥) ، وشوهت الأرض تموج ، والاحجار عليها تضطرب كالحنطة في الغربال .

وانهدم في حلب دور كثيرة ، وتشعث السور ، واضطربت جدران القلعة ، وسار أتابك مشرقًا فنزل القلعة فأخذها ، وسار منها إلى القلعة (١٩٦) ، ثم إلى الموصل .

وتواترت الزلازل إلى شوال ، وقيل : إن عدتها كانت ثمانين زلزلة .

وكان في سنة اثنتين وثلاثين قد عول أتابك على قبض أملاك الحلبيين التي استحدثوها من أيام رضوان إلى آخر أيام إيلغازي ، ثم قرر عليهم عشرة آلاف دينار ، فأدوا من ذلك ألف دينار ، وجاءت هذه الزلازل ، فهرب أتابك من القلعة إلى ميدانها حافيا ، واطلق القطيعة .

وفي هذه السنة ، نهض سوار إلى الفرنج فغزم من بلادهم ، ولحقوه فاستخلصوا ما غزم ، وانهزم المسلمون فغزم الفرنج ، واخذوا منهم ألفا ومائتي فارس ، وأسروا صاحب الكهف ابن عمرو ، وكان قد سلمها إلى الباطنية (١٩٧) .

وفي شهر رمضان منها ، استحكم الفساد بين أتابك وتمرتاش ، فنزل أتابك زنكي دارا (١٩٨) ، وحصرها وافتتحها في شوال ، وأخذ رأس عين (١٩٩) وجبل جور (٢٠٠) وذا القرنين (٢٠١) ، ومات سوتكين الكرجي بخران ، فأنفذ أتابك زنكي وأخذها .

وقتل شهاب الدين محمود بن تاج الملوك على فراشه ، ليلة الجمعة الثالثة والعشرين من شوال من السنة ، قتله البغش ويوسف الخادم ، وفراش ، وكان قد قربهم واصطفاهم (٢٠٢) .

وسير أنر إلى محمد أخيه صاحب بعلبك ، فأجاسه في منصب أخيه وأخرج أخاه بهرام شاه فمضى إلى حلب وشرق إلى أتابك زنكي .

وعلمت والدته زمرد شاتون ، فارسلت إلى زوجها زنكي ، وهو بالموصل تستدعيه لطلب الثأر بولدها ، وتحثه على الوصول ، فأقبل وفي مقدمته الأمير الحاجب صلاح الدين ، فسار إلى حماة .

ووصل زنكي حتى عبر الفرات ، ونزل بالناعورة ، وبخل حلب ، ورحل إلى حماة في سابع ذي الحجة ، ورحل إلى حمص ، ثم إلى بعلبك ، فحصرها أول محرم من سنة أربع وثلاثين وخمسمائة ، وضربها بالمجانيق إلى أن فتحها يوم الاثنين رابع عشر صفر .

وفتح القلعة يوم الخميس خامس وعشرين منه ، وأقام بها إلى منتصف شهر ربيع الآخر ، وكان قد حلف لأهل القلعة بالإيمان المغلظة والمصدق والطلاق ، فلما نزلوا غدر بهم ، وسلخ واليها ، وشدق الباقيين ، وكانوا سبعة وثلاثين رجلا ، وغدر بالذساء ، وأخذهم .

وسار في نصف ربيع الآخر إلى دمشق لمضايقتها ، فنزل على داريا ، وزحف إلى البلد ، وراسل محمد بن بوري في تسليمها ، وأخذ بعلبك وحمص ، وما يقترح معهما عوضا عنها ، وأراد إجابته إلى ذلك فمنعه أصحابه ، وخوفوه الغدر به ، فمات محمد بن بوري ، في ثامن شعبان ، ونصب ولده غضب الدولة أبق مكانه .

وكاتب أنر الفرنج في نجدته ، وتسليم بانياس من إبراهيم بن طرغت إليهم ، فتجمعوا لذلك ، فرحل أتابك عن دمشق ، في خامس

شهر رمضان ، اللقاء الفرنج إن قربوا منه إلى ناحية بصرى وصرخد من حوران ، وأقام مدة ، ثم عاد إلى الغوطة فنزل عذراء ، وأحرق عدة ضياع من الغوطة .

ووصل الفرنج فنزلوا بالميدان ، فرحل أتابك إلى ناحية حمص . وأسر ريمند صاحب أنطاكية إبراهيم بن طرغت صاحب بانياس ، وقتله ، ونزل معين الدين أنر عليها فحصرها وتسلمها ، وسلمها إلى الفرنج ، وعادت خاتون إلى حلب في العشرين من ربيع الأول .

وعاد أتابك إلى حلب في الرابع والعشرين من جمادى الأولى ، واستقر الحال بين زنكي وأبق على أن خطب لزنكي بدمشق .

ومات قاضي حلب أبو غانم محمد بن أبي جرانة في شهر ربيع الآخر من سنة أربع وثلاثين وخمسمائة ، فولى أتابك قضاء حلب ولده أبا الفضل هبة الله بن محمد بن أبي جرانة ، ولما استحضره وولاه القضاء قال له : « هذا الامر قد نزعت من عنقي ، وقلدتك إياه ، فينبغي أن تتقي الله وأن تساوي بين الخصمين ، هكذا » ، وجمع بين أصابعه .

وكثر عيث التركمان وفسادهم ، وامتدت أيديهم إلى بلاد الفرنج ، فإرسلوا رسولا إلى أتابك يشككونهم ، فعاد الرسول متنصلا ، فلقى قوم من التركمان فقتلوه ، فأغار الفرنج على حلب ، فأخذوا من العرب والتركمان مالا يحصى .

وعاد أتابك في سنة ست وثلاثين على الحلبيين بالقطيعة التي كان قررها على الأملاك ، وأرسل إليهم علي الفوتي العجمي ، فعسف الناس في استخراج القطيعة ، وأحرق بهم ، ومات ابن شقارة بحلب ، وصارت أملاكه إلى بيت المال فرد على الناس ما كان وظف على أملاكه من القطيعة وأخذ منهم .

وأغار الفرنج في سنة ست وثلاثين وخمسمائة على بلد سمرين ،

وأخربوا ونهبوا ، ثم تحولوا إلى جبل السماق ، وكذلك فعلوا بكفر طاب ، وتفرقوا فأغار علم الدين بن سيف الدين سوار مع التركمان إلى باب انطاكية ، وعادوا بالغنائم والوسيق العظيم .

وأغار لجة التركي وكان قد نزح عن دمشق إلى خدمة زنكي على بلد الفرنج ، في جمادى ، فساق وسبى وقتل ، وذكر أن عدة المقتولين سبعمائة رجل .

واتفق في هذه السنة خلاف شديد بين أتابك زنكي وقرا أرسلان ابن داود بن سكمان بناحية بهمر (٢٠٣) ، فالتقيا فكسره أتابك ، وفتح بهمر ، وعاد إلى الجزيرة ، ثم إلى الموصل فشتى بها .

وفي هذه السنة تقرر الصلح بين أتابك والارتقية ووصل أولادهم إلى الخدمة ثم عادوا .

وفي خامس شعبان مات وزير أتابك ضياء الدين بن الكفرتوئي ووزر موضعه أبا الرضا بن صدقة ، ثم عزله في سنة ثمان وثلاثين .

ونهب سوار في شهر رمضان إلى بلد أنطاكية ، وعند الجسر جمع عظيم وخيم مضروبة من الفرنج ، فحاض التركمان إليهم العاصي ، وكسروا الجميع هناك ، وقتلوا كل من كان بالخيم ، ونهبوا وسبوا ، وعادوا إلى حلب بالوسيق العظيم ، والأسرى والرؤوس .

وفتح أتابك قلعة أشب المشهورة بالحصانة (٢٠٤) ، في ثالث وعشرين من شهر رمضان من سنة سبع وثلاثين .

وخرج مالك أنطاكية إلى وادي بزاعا ، فخرج سوار فردهم إلى بلد الشمال واجتمع سوار وجوسلين بين العسكرين فاتفق الصلح بينهما .

وفي سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة ، فتح أتابك قلعة
انغرون (٢٠٥) ، وبعدها قلعة حيزان (٢٠٦) ، ومما كان أيضا بيد
الفرنج جملين ، والموزر (٢٠٧) ، وتل موزن (٢٠٨) ، وغيرهما .

وخرج عسكر حلب فظفروا بفرقة كبيرة من التجار والأجناد
وغيرهم خرجت من أنطاكية تريد بلاد الفرنج ، ومعها مال كثير
ودواب ومتاع ، فأوقعوا بهم ، وقتلوا جميع الخيالة من الفرنج
الخارجين لحمايتهم ، وأخذوا ما كان معهم ، وعادوا إلى حلب ،
وذلك في جمادى الأولى من السنة .

وفي يوم الأربعاء خامس وعشرين من ذي القعدة ، وقعت خيل
تركمان نهضت من بلد حلب ، فأوقعت بخيل خارجة من
باسوطا (٢٠٩) فقتلوه ، واسروا صاحب باسوطا وجاءوا به إلى
حلب ، فسلموه إلى سوار فقيه .

وعزل أتابك وزيره جلال الدين أبا الرضا بالموصل ، واستوزر أبا
الغنائم حبشي بن محمد الحلبي .

وكان أتابك زكي لا يزال يفكر في فتح الرها ، ونفسه في كل حين
تطالبه بذلك ، إلى أن عرف أن جوسلين صاحبها قد خرج منها في
معظم عسكره ، في سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، لأمر
اقتضاه ؛ فسارع أتابك إلى النزول عليها في عسكر عظيم ؛ وكاتب
التركمان بالوصول إليه ، فوصل خاق عظيم .

وأحاط المسلمون بها من كل الجهات ، وحالوا بينها وبين من
يدخل إليها بميرة أو غيرها ، ونصب عليها المجانيق ؛ وشرع
الحلبيون فذقوا عنة مواضع عرفوا أمرها إلى أن وصلوا تحت
أساس أبراج السور ، فعلقوه بالأخشاب ، واستأنذوا أتابك في
إطلاق النار فيه ، فنخل إلى النقب نفسه وشاهده ثم أنن لهم ،
فألقوا النار فيه ، فوقع السور في الحال (٢١٠) .

وهجم المسلمون البلد ، وملكوه بالسيف يوم السبت سادس عشر جمادى الآخرة ، وشرعوا في النهب والقتل والأسر والسبي ، حتى امتلأت أيديهم من الغنائم ، ثم أمر أتابك برفع السيف عن أهلها ، ومنع السبي ، ورده من أيدي المسلمين ، وأوصى بأهلها خيرا ، وشرع في عمارة ما انهدم منها وترميمه .

وكان جمال الدين أبو المعالي فضل الله بن ماهان رئيس حران هو الذي يحدث أتابك في جميع الأوقات على أخذها ، ويسهل عليه أمرها ، فوجد على عضادة محرابها مكتوب :

أصبحت صفرا من « بني الأصفر »
أختال بالأعلام والمذبر
دان من المعروف حال به
ناء عن الفدشاء والمذكر
مظهر الرحب على أنني
لولا « جمال الدين » لم أظهر

فبلغ ذلك رئيس حران ، فقال : « أمحدوا جمال الدين ، واكتبوا عماد الدين » ، فبلغ ذلك زنكي ، فقال : « صدق الشاعر لولاك ما طمعنا فيها » ، وأمر عماله بتخفيف الوطأة عليهم في الخراج ، وأن يأخذوه على قدر مغلاتها (٢١١) .

ثم رحل إلى سروج ففتحها ، وهرب الفرنج منها ، ثم رحل فنزل على البيرة ، في هذه السنة فحاصرها في هذه السنة .

وجاءه الخبر من الموصل أن نصير الدين جقر نائبه بالموصل قتل ، فخاف عليها ، وترك البيرة بعد أن قارب أخذها ، (٢١٢) وسار حتى نخل الموصل ، وأخذ فرخان شاه بن السلطان الذي قتل جقر ، وعزم على تملك الموصل ، فقتله بدم جقر ، وولى الموصل مكانه الأمير زين الدين علي كوجك .

ثم شرع زنكي في الجمع والاحتشاد ، والاستكثار من عمل المجانيق ، وآلة الحرب ، في أوائل سنة أربعين وخمسمائة ؛ ويظهر للناس أن ذلك لقصد الجهاد ، وبعض الناس يقول : إنه لقصد دمشق ومنازلتها ، وكان ببعلك مجانيق فحملت إلى حمص ، في شعبان من هذه السنة .

وقيل : إن عزمه انثنى عن الجهاد في هذه السنة ، وأن جماعة من الأرمن بالرهما عاملوا عليها ، وأرادوا الإيقاع بمن كان فيها من المسلمين واطلع على حالهم ؛ وتوجه أتابك من الموصل نحوها ، وقوبل من عزم على الفساد بالقتل والصلب .

وسار ونزل على قلعة جعبر بالمرج الشرقي تحت القلعة ، يوم الثلاثاء ثالث ذي الحجة ، فأقام عليها إلى ليلة الأحد سادس شهر ربيع الآخر نصف الليل من سنة إحدى وأربعين وخمسمائة ، فقتله يرزقش الخادم ؛ كان تهدده في النهار ، فخاف منه فقتله في الليل في فراشه .

وقيل : إنه شرب ونام ، فانتبه فوجد يرزقش الخادم وجماعة من غلمانهم يشربون فضل شرابه ، فتدوهم ، ونام فأجمعوا على قتله ، وجاء يرزقش إلى تحت القلعة ، فنادى أهل القلعة : « شيأوني فقد قتل أتابك » .

فقالوا له : « انهب إلى لعنة الله ، فقد قتلت المسلمين كلهم بقتله (٢١٣) » .

وقد كان أتابك ضايق القلعة ، فقل الماء فيها جدا ، والرسل من صاحبها علي بن مالك تتريد بينه وبين أتابك ، فبذل علي بن مالك له ثلاثين ألف دينار ليرحل عنها ، فأجابته إلى ذلك .

ونزل الرسول ، وقد جمع الذهب حتى قلع الحلق من أذان أخواته ، وأحضر الرسول ، وقال لبعض خواصه : « امض بفرسه

وقربه إلى قدر اليخني فإن شرب منه فأعلمني » . ففعل ذلك ،
فشرب الفرس مرقة اليخني ، فعلم أن الماء قد قل عندهم ، فغالط
الرسول ودافعه ، ولم يجبه إلى ملتمسه ، فأسقط في يد علي بن
مالك .

وكان في القلعة عنده بقرة وحش ، وقد أجهدها العطش ، فصعدت
في درجة المئذنة حتى علت عليها ، ورفعت رأسها إلى السماء ،
وصاحت صيحة عظيمة ، فأرسل الله سحابة ظلت القلعة ، وأمطروا
حتى رووا ، فتقدم حسان البعلبكي صاحب منبج إلى تحت القلعة ،
ونادى علي بن مالك ، وقال له : « يا أمير علي ، ايش بقى يخلصك
من أتابك » فقال له : « يا عاقل ، يخلصني الذي خلصك من حبس
بلك » .

يعني حين قتل بلك على منبج وخلص حسان ، فصودق
فأله - وكان مذكروه - .

وأخبرني والذي - رحمه الله - أن حارس أتابك كان يحرسه في
الليلة التي قتل فيها بهنين البيتين .

ياراقد الليل مسرورا بأوله ،

إن الحوادث قد يطرقن أسحارا !

لاتأمنن بليل طاب أوله

فرب آخر ليل أجج النارا !

وكان أتابك جبارا عظيما ذا هيبة وسطوة ، وقيل : إن
الشاووش (٢١٤) كان يصيح خارج باب العراق ، وهو نازل من
القلعة ، وكان إذا ركب مشى العسكر خلفه كأنهم بين حيطين مخافة
أن يدوس العسكر شيئا من الزرع ، ولا يجسر من هيبتة أن يدوس
عرقا منه ، ولا يمشي فرسه فيه ، ولا يجسر أحدا من أجناده أن يأخذ
لفلاح علاقة تبين إلا بئمنها أو بخط من الديوان إلى رئيس القرية ؛
وإن تعدى أحد صلبه .

وكان يقول : « ما يتفق أن يكون أكثر من ظالم واحد » - يعني نفسه - فعمرت البلاد في أيامه بعد خرابها وأمنت بعد خوفها ، وكان لا يبقى على مفسد ، وأوصى ولاته وعماله بأهل حران ، ونهى عن الكلف والسخر والتثقيل على الرعية ، وهذا ما حكاه أهل حران عنه .
وأما فلاحو حلب فإنهم يذكرون عنه ضد ذلك (٢١٥) .

وكانت الاسعار في السنة التي توفي فيها رحية جدا ، الحنطة ست مكايك بدينار ؛ والشعير اثنا عشر مكوكا بدينار ؛ والعدس أربع مكايك بدينار ؛ والجلبان خمسة مكايك بدينار ؛ والقطن ستون رطلا بدينار ؛ والدينار هو الذي جعله أتابك دينار الغلة ؛ وقدره خمسون قرطيسا برسا (٢١٦) وذلك لقلّة العالم .

ولما قتل افتقرت عساكره فأخذ عسكر حلب ولده نور الدين أبا القاسم محمود بن زنكي ، وطلبوا حلب فملكوه إياها ، وأخذ نور الدين خاتمه من إصبه قبل مسيره إلى حلب ، وسار أجناد الموصل بسيف الدين غازي إلى الموصل وملكها .

وبقي أتابك وحده ، فخرج أهل الرافقة فغسلوه بقحف جرة ، ودفنوه على باب مشهد علي - عليه السلام - في جوار الشهداء من الصحابة - رضوان الله عليهم - وبنى بذوه عليه قبة ، فهي باقية إلى الآن (٢١٧) .

وملك الملك العادل نور الدين أبو القاسم محمود بن زنكي بن آق سنقر حلب ، عند ذلك في شهر ربيع الآخر يوم الثلاثاء عاشر الشهر ، سنة إحدى وأربعين وخمسمائة .

ووصل إليه صلاح الدين الياغيساني يدبر أموره ويقوم بحفظ دولته ، فحينئذ راسل جوسلين الفرنجي أهل الرها وعامتهم من الأرمن ، وحملهم على العصيان وتسليم البلد ، فأجابوه إلى ذلك ، وواعدهم يوما يصل إليهم فيه .

وسار إليها فملك البلد ، وامتنعت القلعة فقاتلها ، فبلغ الخبر إلى نور الدين محمود بن زنكي ، وهو بحلب ، فسار إليها في عسكره ، فخرج جوسلين هاربا إلى بلده .

وبخلها نور الدين فنهبا وسبى أهلها ، وخذت منهم ، فلم يبق بها منهم إلا القليل (٢١٨) .

وأرسل نور الدين من سببها جارية في جملة ما أهداه إلى زين الدين علي كوجك ، نائب أبيه بالموصل ، فلما رآها دخل إليها ، وخرج من عندها وقد اغتسل ، وقال لمن عنده : « تعلمون ما جرى لي يومنا هذا ؟ » قالوا : « لا » ، قال : « لما فتحنا الرها مع الشهيد وقع بيدي من النهب جارية رائقة أعجبنى حسننها ومال قلبي إليها ، فلم يكن بأسرع من أن أمر الشهيد فنودي برد السبي والمال المنهوب ، وكان مهيبا مخوفا ، فرددتها وقلبي متعلق بها ، فلما كان الآن جاءتني هدية نور الدين وفيها عنة جوار منهن تلك الجارية ، فوطنتها خوفا أن يقع مثل تلك الدفعة » .

وشرع نور الدين - رحمه الله - في صرف همته إلى الجهاد ، فدخل في سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة ، إلى بلد الفرنج ؛ ففتح ارتاح بالسيف ، ونهبها وفتح حصن مابولة ، وبسرفوث ، وكفرلاثا وهاب (٢١٩) .

وكان الفرنج بعد قتل والده قد طمعوا وظنوا أنهم يستردون ما أخذوه ، فلما رأوا من نور الدين الجد في أول أمره ، علموا بعد ما أملاه .

وخرج ملك الألمان ونزل على دمشق ، في سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، وسار لنجدتها سيف الدين غازي من الموصل ، ونور الدين محمود ، فوصلوا إلى حمص .

وتوجه نور الدين إلى بعلبك ، واجتمع بمعين الدين أنز بها ،

ورحل ملك الالمان عن دمشق ، وكان صحبته ولد الفذش ؛ وكان جده قد أخذ طرابلاس من المسلمين ، فأخذ ولد الفذش هذا حصن العريمة من الفرنج ، وعزم على أخذ طرابلاس من القمص ، فأرسل القمص إلى نور الدين إلى بعلبك يقول له في قصد حصن العريمة وأخذه من ولد الفذش .

فسار نور الدين ومعين الدين أنز معه ، وسيرا إلى سيف الدين غازي إلى حمص ، يستنجدانه فأمدهما بعسكر كثير مع الديسي صاحب الجزيرة ، فنازلوا الحصن ، وحصروه وبه ولد الفذش .

فزحف المسلمون إليه مرارا ، ونقب النصابون السور فطلب من به من الفرنج الامان ، فملكه المسلمون ، وأخذوا كل من به من فارس وراجل ، وصبي ، وامرأة ، وفيهم ابن الفذش ، وأخربوا الحصن ، وعادوا إلى حمص (٢٢٠) .
ثم عاد سيف الدين غازي إلى الموصل .

وتجمع الفرنج ليقصدوا أعمال حلب ، فخرج إليهم نور الدين بعسكره والتقاهم ببغرى (٢٢١) ، واقتتلوا قتالا شديدا ، فانهزم الفرنج ، وأسر منهم جماعة وقتل خلق ، ولم ينج إلا القليل .
وفي هذه الواقعة يقول الشيخ أبو عبد القيسراني من قصيدة :

وكيف لاذتني على عيشنا
محمود والسلطان « محمود ! »
وصارم الاسلام لا يذتني
إلا وشلو الكفر مقدود
مكارم لم تك موجوبة
إلا و « نور الدين » موجود (٢٢٢)

وشرع نور الدين في تجديد المدارس والرباطات بحلب ، وجلب أهل العلم والفقهاء إليها ، فجدد المدرسة المعروفة بالحلاويين ، في سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ؛ واستدعى برهان الدين أبا الحسن

علي بن الحسن البلخي الحنفي وولاه تدريسها ، فغير الأذان بحلب ، ومنع المؤننين من قولهم : « حي على خير العمل » وجلس تحت المنارة ومعه الفقهاء ، وقال لهم : « من لم يؤذن الأذان المشروع فألقوه من المنارة على رأسه » . فأندوا الأذان المشروع ، واستمر الأمر من ذلك اليوم .

وجدد المدرسة العسرونية على مذهب الشافعي ، وولاهما شرف الدين بن أبي عسرون (٢٢٣) ، ومدرسة الذفري ، وولاهما القطب النيسابوري (٢٢٤) ، ومسجد الغضائري وقف عليه وقفاً ، وولاه الشيخ شعيب (٢٢٥) ، وصار يعرف به .

وبقي برهان الدين البلخي بحلب مدرساً بالحلاوية إلى أن أخرجه مجد الدين بن الداية ، لوحشة وقعت بينهما ، ووليها علاء الدين عبد الرحمن بن محمود الغزنوي ، ومات ووليها ابنه محمود ، ثم وليها الرضي صاحب المحيط ، ثم وليها علاء الدين الكاساني (٢٢٦) .

وتوفي سيف الدين غازي بن زنكي بالموصل في سنة أربع وأربعين وترك ولداً صغيراً ، فرباه عمه نور الدين ، وعطف عليه .

واتفق الوزير جمال الدين وزين الدين علي أن ملاكوا قطب الدين مودود بن زنكي الموصل ، وكان نور الدين أكبر منه ، وكاتبه جماعة من الأمراء وطلبوه .

وفيهن كاتبه المقدم عبد الملك والد شمس الدين محمد ، وكان بسنجار ، فكتب إليه يستدعيه ليتسلم سنجار .

فسار جريدة في سبعين فارساً من أمراء دولته فوصل سنجار مجداً ، ونزل بظاهر البلد ، وأرسل إلى المقدم يعلمه بوصوله ، فراه الرسول وقد سار إلى الموصل ، وترك ولده شمس الدين محمداً بالقلعة ، فسير من لحق أباه في الطريق ، وأعلمه بوصول نور

الدين ، فعاد إلى سنجار ، وسلمها إليه ، وأرسل إلى قرا أرسلان صاحب الحصن (٢٢٧) يستدعيه لمؤنة كانت بينهما ، فوصل إليه .

ولما سمع قطب الدين والوزير جمال الدين ، وزين الدين بالموصل ، جمعوا العساكر ، وعزموا على قصد سنجار وساروا إلى تل أعفر (٢٢٨) ، فأشار الوزير جمال الدين بمداراته ، وقال : « إننا نحن قد عظمنا محله عند السلطان ، وجعلنا محلنا دونه ، وهو فيعظمنا عند الفرنج ، ويظهر أنه تبع لنا ، ويقول : إن كنتم كما نحب وإلا سلمت البلاد إلى صاحب الموصل ، وحينئذ يفعل بكم ويصنع ، فإن هزمناه طمع فينا السلطان ويقول : إن الذي كانوا يعظمونه ، ويخوفوننا به أضعف منهم ، وقد هزموه ، وإن هو هزمنا طمع فيه الفرنج ، ويقولون : إن الذي كان يحتمي بهم أضعف منه ، وبالجمله فهو ابن أتاك الكبير » : وأشار بالصلح .

وسار إلى نور الدين بنفسه ، فوفق بينهما على أن يسلم سنجار إلى قطب الدين ، ويتسلم الرحبة ، ويستقل نور الدين بالشام جميعه ، وقطب الدين بالجزيرة ما خلا الرها ، فإنها لنور الدين (٢٢٩) .

وعاد نور الدين إلى الشام ، وأخذ ما كان قد أخره أبوه أتاك من الخزائن ، وكانت كثيرة جدا .

فغزا نور الدين محمود بن زنكي بلد الفرنج من ناحية أنطاكية ، وقصد حصن حارم وهو الفرنج ، فحصره ، وخرّب ربضه ، ونهب سوانه ، ثم رحل إلى حصن إنب (٢٣٠) فحصره أيضا .

فاجتمع الفرنج مع البرنس صاحب أنطاكية وحارم ، وذلك الأعمال ، وساروا إلى نور الدين ليرحلوه عن إنب ، فلقبهم يوم الاربعاء حادي وعشرين من صفر ، سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، وأقتلوا قتالا عظيما ، وبأشر نور الدين القتال ذلك اليوم ، فانهزم الفرنج أقبح هزيمة ، وقتل منهم جمع كثير ، وأسر مثله .

وكان ممن قتل ذلك اليوم البردس صاحب أنطاكية ، وكان من عظماء الفرنج وأقويانهم . ويحكى عنه أنه كان يأخذ الركاب الحديد بيده ، فيطبقه بيده الواحدة ؛ وأنه مريوما وهو راكب حصانا قويا تحت قنطرة فيها حلقة أو شيء مما يتعلق به ، فتعلق بيديه وضم فخذه على الحصان فمنعه الحركة .

فلما قتل البردس ملك بعده ابنه بيمند ، وتزوجت أمه بابردس آخر ، ليدير البلد إلى أن يكبر ابنها (٢٣١) ، وأقام معها بأنطاكية ، فغزاهم نور الدين غزوة ثانية ، فاجتمعوا ولقوه فهزمهم ، وقتل منهم خالقا وأسر كذلك ، وأسر البردس الثاني زوج أم بيمند ، واستقل بيمند بأنطاكية .

وفي ذلك يقول الشيخ أبو عبد الله القيسراني من قصيدة أولها :

هذي العزائم لا ما تدعي القضب
وذي المكارم لا ما قالت الكتب
صافحت يا « بن عماد الدين » ذروتها
براحة للمساعي دونها تعب
أغرت سيوفك بالافرنج راجفة
فؤاد رومية الكبرى لها يجب
ضربت كبشهم منها بقاصمة
أودى بها الصلب وانحطت بها الصلب
طهرت أرض الأعادي من دمائهم
طهارة كل سيف عندها جنب (٢٣٢)

وقال ابن منير في ذلك :

صدم الصليب على صلابة عوده ،
فتفرقت أيدي سبأ خشباته
وسقى البردس وقد تبردس ذلة
بالروح ، مما قد جنت غدراته

تمشي القناة برأسه وهو الذي
نظمت مدار النير قناتة (٢٣٣)

وسار نور الدين محمود إلى أفسامية ، في سنة خمس وأربعين ،
فالتجأ الفرنج إلى حصنها فقاتله ، واجتمع الفرنج وساروا إليه
ليرحلوه عنه ، فوجدوه قد ملكه وملأه من الرجال والنخائر ، فسار
في طلبهم ، فعدلوا عن طريقه ، وبخلوا بلأبهم .

وجمع نور الدين العساكر وسار إلى بلاد جوسلين الفرنجي
ليملكها وكان جوسلين من أشجع الفرنج وأسدهم رأيا ، فجمع
الفرنج وأكثر ، وسار إلى نور الدين والتقى ، فانهزم المسلمون وقتل
منهم وأسر .

وكان سلاحدار نور الدين ممن أسر ، فأخذ جوسلين سلاحه ،
فسيره إلى الملك مسعود بن قليج أرسلان صاحب قونية ، وقال :
« هذا سلاح زوج ابنتك » . فعظم ذلك على نور الدين ، وهجر
الراحة إلى أن يأخذ بثأره ، وجعل يفكر في حيلة يحتال بها على
جوسلين ، وعلم أنه إن قصده احتفى في حصونه .

فأحضر أمراء التركمان ، وبذل لهم الرغائب إن ظفروا
بجوسلين ، فجمعوا عليه العيون ، فخرج إلى الصيد فظفر به طائفة
من التركمان ، فصانعهم على مال يؤتيه إليهم ، فأجابوه إلى إطلاقه
إذا أحضر المال ، وأرسل في إحضاره .

فمضى بعض التركمان إلى مجد الدين أبي بكر بن الداية ، وكان
ابن داية نور الدين ، واستنابه في حلب ، وسلم أمورها إليه ،
فأحسن الولاية فيها والتدبير ، فأعلم ذلك التركماني ابن الداية
بصورة الحال ، فسير مجد الدين معه عسكرا ، فكبسوا أولئك
التركمان ، وأخذوا جوسلين أسيرا ، واحضروه إلى ابن الداية ، في
محرم هذه السنة (٢٣٤) .

فسار نور الدين عند ذلك إلى قلاع جوسلين ، ففتح عزاز بعد الحصار ، في ثامن عشر ربيع الاول ، سنة خمس وأربعين وخمسمائة ، وفتح تل باشر ، وتل خالد ؛ وفتح عين تاب (٢٣٥) سنة خمسین ، وفتح قدورس (٢٣٦) والراوندان (٢٣٧) ، وبرج الرصاص ، وحصن البيرة وكفرسود (٢٣٩) ، ومرعش (٢٤٠) ونهر الجوز.

وتجمع الفرنج وساروا إليه وهو ببلاد جوسلين ليمنعوه عن فتحها ، في سنة سبع وأربعين وخمسمائة ، فلما قاربوا منه رجع إليهم ، ولقيهم عند دلوک ، فاقتتلوا فانهزم الفرنج ، وقتل منهم وأسر كثير ، وعاد إلى دلوک ففتحها (٢٤١) .

وأما تل باشر فإنه تسلمها منهم بعد فتحه دمشق ، لأنهم لما علموا أنه فتح دمشق ، وأنه يقصدهم ولا طاقة لهم به راسلوه ، وبذلوا له تسليمها إليه ، فسير إليهم الأمير حسان صاحب منبج لقربها من منبج فتسلمها منهم ، وحصنها .

وكان فتحه دمشق في صفر سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، لأن الفرنج أخذوا عسقلان من المصريين في سنة ثمان وأربعين ، ولم يكن له طريق إلى إزعاجهم عنها لاعتراض دمشق بينه وبين عسقلان (٢٤٢) .

وطمع الفرنج في دمشق ، وجعلوا عليها قطيعة يأخذونها منهم في كل سنة ، فخاف نور الدين أن يملكها الفرنج ، فاحتال في أخذها لعلمه أن أخذها بالقهر يصعب لأنه متى نازلها راسل صاحبها الفرنج مستنجدا بهم ، وأعادوه خوفا من نور الدين أن يملكها فيقوى بها عليهم .

فراسل مجير الدين أبق بن محمد بن بوري صاحبها ، واستماله وهاداه ، وأظهر له المودة حتى وثق به ، فكان يقول له في بعض

الأوقات : « إن فلانا قد كاتبني في تسليم دمشق » - يعني بعض أمراء مجير الدين - فكان يبعد ذلك عنه ، ويأخذ أقطاعه ، فلما لم يبق عنده أحد من الأمراء قدم أميراً يقال له عطاء بن حفاظ الخادم ، وكان شجاعاً وفوض إليه أمور دولته ، فكان نور الدين لا يتمكن من أخذ دمشق منه ، فقبض عليه مجير الدين وقتله .

فسار نور الدين حينئذ إلى دمشق ، وكان قد كاتب أهلها واستمالهم ، وكان الناس يميلون إليه ، لما هو عليه من العدل والليانة والاحسان ، فوعده بالتسليم إليه .

فلما حصر دمشق أرسل مجير الدين إلى الفرنج يبذل لهم الأموال وتسليم قلعة بعلبك إليهم ، لينجدوه ويرحلوا نور الدين عنه ، فشرعوا في جمع فارسهم وراجلهم لذلك .

فتسلم نور الدين دمشق ، وخرج الفرنج وقد قضى الأمر فعادوا خائبين ، وسلمها إليه أهلها من باب شرقي ، والتجأ مجير الدين إلى القلعة ، فراسله وبذل له عوضاً عنها حمص ، وغيرها ؛ فسلمها إليه وسار إلى حمص ، ثم إنه راسل أهل دمشق ، فعلم نور الدين ، فخاف منه ، فأخذ منه حمص ، وعوضه ببالس ، فلم يرض بذلك ، وسار إلى بغداد فمات بها .

وسار نور الدين إلى حارم ، وهي لبيند صاحب أنطاكية ، وحصرها في سنة إحدى وخمسين ، وضيق على أهلها ، فتجمع الفرنج وعزموا على قصده فأرسل والي حارم إلى الفرنج ، وقال : « لا تلتقوه فإنه إن هزمكم أخذ حارم وغيرها ، ونحن في قوة والرأي مطاولته » ، فأرسلوا إلى نور الدين ، وصالحوه على أن يعطوه نصف أعمال حارم ورجع نور الدين إلى حلب .

ووقعت الزلازل في شهر رجب في سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة ، بالشام ، فخربت حماة ، وشيزر ، وكفرطاب ، وأفامية ، ومعرة النعمان ، وحمص ، وحصن الشميميس (٢٤٢) ،

عند سلمية ، وغير ذلك من بلاد الفرنج . وتهدمت أسوار هذه البلاد
فجمع نور الدين العساكر ، وخاف على البلاد من الفرنج ، وشرع في
عمارتها حتى أمن عليها .

وأما شيزر ، فاندقلت القلعة على صاحبها وأهله ، فهلكوا كلهم ،
وكان قد ختن ولدا له وعمل وليمة ، وأحضر أهله في داره ، وكان له
فرس يحبه ولا يكاد يفارقه ، وإذا كان في مجلس أقيم ذلك الفرس
على بابه ، فكان ذلك اليوم على الباب ، فجاءت الزلزلة فقام الناس
ليخرجوا من الدار فخرج واحد من الباب فرمحه ذلك الفرس فقتله ،
فامتنع الناس من الخروج فسقطت الدار عليهم فهلكوا .

وبادر نور الدين ، ووصل إلى شيزر ، وقد هلك تاج الدولة بن
مذقذ وأولاده ، ولم يسلم منهم إلا الخاتون أخت شمس الملوك زوجة
تاج الدولة ، ونبتشت من تحت الردم سالمة ، فتسلم القلعة وعمر
أسوارها ودورها ، وكان نور الدين قد سأل أخت شمس الملوك عن
المال وهددها ، فذكرت له أن الدار سقطت عليها وعليهم ، ونبتشت
هي دونهم ، ولاتعلم بشيء ، وإن كان لهم شيء فهو تحت الردم .

وكان شرف الدولة اسماعيل غائبا ، فلما حضر وعاین قلعة
شيزر ، ورأى زوجة أخيه في ذلك الذل بعد العز ، عمل قصيدة
أولها :

ليس الصباح من المساء بأمثل
فأقول لليل الطويل ألا انجلي

قال فيها :

يا « تاج دولة هاشم » بل يا أبا الت
يجان بل يا قصد كل مؤمل
لو عاينت عيناك « قلعة شيزر »
والستر دون ذسائها لم يسبل

لرايت حصنا هائل المرأى غدا
متهلها مثل النقا المتهيل
لايهتدي فيه السعاة لمسلك
فكأنما تسري بقاع مهول

ذكر فيها زوجة أخيه ، فقال :

نزلت على رغم الزمان ولو حوت
يمناك قائم سيفها لم تنزل
فتبدلت عن كبرها بتواضع
وتعوضت عن عزها بتذل (٢٤٤)

وأقامت الزلازل تتريد في البلاد سبع سنين ، وهاك فيها خلاق
كثير .

وفي هذه السنة أبطل الملك العادل نور الدين ، وهو بشير ،
مظالم ومكوسا ببلايه كلها مقدارها مائة وخمسون ألف دينار .

ثم إن نور الدين تطف الحال مع ضحاك البقاعي ، ورأسله ،
وهو ببعلبك ، وكان قد عصى فيها بعد فتح دمشق ، ولم ير أن يحصره
بها لقربه من الفرنج ، فسامها إلى نور الدين في هذه
السنة (٢٤٥) .

وجرت وقعة بين نور الدين وبين الفرنج بين طبرية وبانياس ،
فكسره نور الدين كسرة عظيمة في جمادى الأولى سنة اثنتين
 وخمسين وخمسمائة (٢٤٦) .

ثم عاد نور الدين إلى حلب ، فمرض بها في سنة أربع وخمسين ؛
مرضا شديدا ، بقلعتها ، وأشفى على الموت ، وكان بحلب أخوه
الاصغر نصر الدين أمير أميران محمد بن زنكي وأرجف بموت نور
الدين ؛ فجمع أمير أميران الناس ، واستمال الحلبيين ، وملك

المدينة دون القلعة ، وأنن للشيعة أن يزيدوا في الأذان : « حي على خير العمل ، محمد وعلي خير البشر » ، على عادتهم من قبل ، فمالوا إليه لذلك .

وثارت فتنة بين السنة والشيعة ، ونهب الشيعة مدرسة ابن عسرون وغيرها من أدر السنة ، وكان أسد الدين شيركوه بجمص ، فبلغه ذلك فسار إلى دمشق ليغلب عليها ، وكان بها أخوه نجم الدين أيوب فأذكر عليه ذلك ، وقال : « أهلكتنا والمصلحة أن تعود إلى حلب ، فإن كان نور الدين حيا خدمته في هذا الوقت ، وإن كان مات فأنا في دمشق ، وتفعل ما تريد » .

فعاد مجدا إلى حلب ، فوجد نور الدين وقد ترجع إلى الصلاح ، فأجاسه في طيارة مشرفة إلى المدينة ، بحيث يراه الناس كلهم ، وهو مصفر الوجه من المرض ، ونادوا إلى الناس : « هذا سلطانكم » . فقال بعضهم : « ما هذا نور الدين ، بل هو فلان » - يعنون رجلا كان يشبهه وقد طلى وجهه بصفرة ، ليخدعوا الناس بذلك - .

ولما تحقق أمير أميران عافية أخيه خرج من الدار التي كان بها تحت القلعة ، وبيده ترس يحميه من النشاب ، وكان الناس قد تفرقوا عنه ، فسار إلى حران ، فملكها .

وسير نور الدين إلى قاضي حلب ، جدي أبي الفضل هبة الله بن أبي جراحة ، وكان يلي بها القضاء والخطابة والامامة ، وقال له : « تمضي إلى الجامع ، وتصلي بالناس ، ويعاد الأذان إلى ما كان عليه » .

فنزل جدي ، وجلس بشمالية الجامع تحت المنارة ، واستدعى المؤننين ، وأمرهم بالأذان الم شروع على رأي أبي حنيفة ، فخافوا ، فقال لهم : « ها أنا أسفل منكم ولي أسوة بكم » .

فصعد المؤننون وشرعوا في الأذان ، فاجتمع تحت المنارة من

عوام الشيعة وغوغائهم خلق كثير ؛ فقام القاضي إليهم ، وقال : « يا أصحابنا ، وفقكم الله ، من كان على طهارة فليدخل وليصل ، ومن كان محدثا فليجدد وضوءه ويصلي ، فان المولى نور الدين - بحمد الله - في عافية ، وقد تقدم بما يفعل ، فانصرفوا راشدين . »

فانصرفوا وقالوا : « ايش نقول لقاضينا ! ونزل المؤمنون وصلى بالناس ، وسكنت الفتن . »

فلما عوفي نور الدين قصد حران ، فهرب نصره الدين أمير أميران ، وترك أولاده بالقلعة بحران فتسلمها ، وأخرجهم منها ، وسلمها إلى زين الدين علي كوجك ، نائب أخيه ، قطب الدين .

ثم سار إلى الرقة وبها أولاد أميرك الجاندار ، وقد مات أبوهم ، فشفع إليه بعض الأمراء في إبقائها عليهم ، فغضب ، وقال : « هلا شفعتهم في أولاد أخي لما أخذت منهم حران ، وكانت الشفاعة فيهم من أحب الأشياء إلي » ، وأخذها منهم .

وخرج مجد الدين بن الداية من حلب إلى الغزاة ، في شهر رجب من سنة خمس وخمسين ، فلقى جوسلين بن جوسلين ، فكسره ، وأخذه أسيرا ، ودخل به إلى قلعة حلب .

ثم إن الفرنج أغاروا على بلد عين تاب ، فأخذوا التركمان ، ونهبوا أغنامهم ، وعادوا يريدون أنطاكية ، فخرج إليهم مجد الدين ، ولقيهم بالجومة (٢٤٧) ، وكسرههم ، وقتل منهم خاقا عظيما ، وأسر البرنس الثاني وخلقا معه ، ودخل بهم إلى حلب في مستهل ذي الحجة من سنة ست وخمسين وخمسمائة .

وفي سنة سبع ، ولى نور الدين كمال الدين أبا الفضل محمد بن الشهر زوري قضاء ممالكة كلها ؛ وأمر القضاة ببلاؤه أن يكتبوا في الكتب بالنيابة عنه ، وكان قد حلف له على ذلك وعاهده عليه ، وكان

ذلك بدمشق في السنة المذكورة ، فامتنع زكي الدين قاضي دمشق ، فعزل ؛ وكتب إلى جدي أبي الفضل بحلب ، فامتنع أيضا .

ووصل نور الدين ومعه مجد الدين بن الداية ، واستدعاه نور الدين إلى القلعة ، وقال : « كنا قد عاهدنا كمال الدين ، وحلفنا له على هذا الأمر ، وما أنت إلا نائبي ، وله اسم قضاء البلاد لا غير » فامتنع وقال : « لا أنوب عن مكانين » . فولى قضاء حلب محيي الدين أبا حامد بن كمال الدين ، وأبا المفاخر عبد الغفور بن لقمان الكردي ؛ وذلك بإشارة مجد الدين لودشة كانت بينه وبين جدي .

ثم إن نور الدين جمع العساكر بحلب ، في سنة سبع ، وسار إلى حارم ، وقاتلها ، فجمع الفرنج جموعهم ، وساروا إليه . فطلب منهم المصاف فلم يجيبوه ، وتلففوا معه حتى عاد إلى حلب .

ثم جمع العساكر في سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ، وبخل إلى بلاد الفرنج ، ونزل في البقيعة تحت حصن الأكراد محاصرا له ، وعازما على أن يقصد طرابلس .

فاجتمع الفرنج ، وخرج معهم الدوقس الرومي ، وكان قد خرج في جمع كثير من الروم ، واتفق رأيهم على كبسة المسلمين نهارا ، فإنهم يكونون أمنين ، فركبوا لوقتهم ولم يتوقعوا ، وساروا مجبين إلى أن قربوا من يذك (٢٤٨) المسلمين ، فلم يكن لهم بهم طاقة ، وأرسلوا إلى نور الدين يعرفونه الحال ، فرهقهم الفرنج بالحملة عليهم فلم يثبت المسلمون وعادوا منهزمين إلى نور الدين والفرنج في ظهورهم ، فوصلوا جميعا إلى عسكر نور الدين ، ولم يتمكن المسلمون من ركوب الخيل وأخذ السلاح ، حتى خالطهم الفرنج ، فقتلوا ، واسروا ، قتلا عظيما وأسرا كبيرا .

وكان الدوقس أشدهم على المسلمين ، فلم يبق أصحابه على أحد ، وقصدوا خيمة نور الدين ، وقد ركب فيها فرسة ، فنجا بنفسه ؛ وأسرته ركب الفرس والشبحة في رجله ، فنزل انسان

كردي ، وفداه بنفسه ، فقطع الشبحة ونجا نور الدين ، وقتل الكردي ، فأحسن إلى مخالفه ، ووقف عليهم الوقوف (٢٤٩) .

ووصل نور الدين إلى بحيرة قدس (٢٥٠) ، وبينه وبين المعركة نحو أربعة فراسخ ؛ وتلاحق به من سالم من العسكر ، فقال له بعضهم : « المصلحة أن نسير ، فان الفرنج ربما طمعوا وجاءوا إلينا ، ونحن على هذه الحال » ؛ فوبخه وأسكته ، وقال : « إذا كان معي ألف فارس التقيتهم ، ووالله لا أستظل بسقف حتى أخذ بثأري وثأر الاسلام » .

وأرسل إلى حلب ودمشق ، وأحضر الأموال والثياب والخيام والسلاح والخيل ، فأعطى الناس عوضا عما أخذ منهم بقولهم ، وأصبح عسكره كأن لم يهزم ولم ينكب ، وكل من قتل أعطى أولاده أقطاعه .

ولما رأى أصحاب نور الدين كثرة خرج له بعض صحابة السوء : « إن لك في بلادك إدارات وصلات ووقوفًا كثيرة على الفقهاء ، والفقراء ، والقراء ، والصوفية وغيرهم ؛ فلوا استعنت بها في هذا الوقت لكان أصلح » ، فغضب من ذلك وقال : « والله إنني لا أرجو النصر إلا بدعاء أولئك ، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم ، كيف أقطع صلوات قوم يقاتلون عني وأنا نائم على فراشي بسهام لا تخطيء ، وهؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال ، كيف يحل لي أن أعطيه غيرهم ! » وقيل : إن برهان الدين البلخي قال لنور الدين : « أتريدون أن تنصروا وفي عسكركم الخمر والطبول والزمور ، كلا والله .. »

فلما سمع نور الدين كلامه عاهد الله على التوبة ، ونزع عنه ثيابه تلك التي كان يلبسها ، والتزم بلبس الخشن ؛ وبطل جميع ما كان بقي في بلاده من الأعيان والمكوس والضرائب ؛ ومنع من ارتكاب الفواحش ، وكتب إلى البلاد إلى زهادها وعبادها يذكر لهم ما نال

المسلمين من القتل والاسر ، ويستمد منهم الدعاء ، وان يحدثوا المسلمين على الغزاة ؛ وكاتب الملوك الاسلامية يطلب منهم النجد والاستعداد ، وامتنع من الذوم على الوطنيء وعن جميع الشهوات .

وراسله الفرنج في طلب الصلح فامتنع ، فبينما هو في الاستعداد للجهاد إذ ورد عليه في شهر ربيع الأول ، من سنة تسع وخمسين وخمسمائة ، شاور وزير العاضد بمصر إلى دمشق ، ملتجئاً إليه ، ومستجيراً به على ضرغام ، وكان قد نازعه في الوزارة وغلب عليها .

وطلب منه إرسال العساكر معه إلى مصر ليعود إلى منصبه ، ويكون لنور الدين ثالث دخل البلاد بعد إقطاعات العساكر ، ويكون نائبه مقيماً بعساكره في مصر ، ويتصرف بأمر نور الدين واختياره ، فبقي متردداً بين أن يفعل ذلك وبين أن يجعل جل قصده إلى الفرنج ، ثم قوي عزمه وسير أسد الدين شيركوه بن شادي ، في عسكر معه ، في جمادى الأولى من سنة تسع وخمسين ، وتقدم إلى أسد الدين أن يعيد شاور إلى منصبه .

وسار نور الدين إلى طرف بلاد الفرنج مماليك دمشق ، بما بقي من العساكر ليمنع الفرنج من التعرض لأسد الدين وشاور في طريقهما ، فاشتغل الفرنج بحفظ بلادهم من نور الدين عن التعرض لهما ، ووصل أسد الدين وشاور إلى بلبيس ، فخرج إليهم ناصر الدين أخو ضرغام بعسكر المصريين ، ولقيهم فانهزم وعاد إلى القاهرة .

ووصل أسد الدين إلى القاهرة ، فنزل عليها في آخر جمادى الآخرة ، فخرج ضرغام فقتل ، وقتل أخوه ، وخلع على شاور وأعيد إلى الوزارة .

وأقام أسد الدين بظاهر القاهرة ، فغدر شاور ، وعاد عما كان قرره مع نور الدين ، وأمر أسد الدين بالعود إلى الشام فامتنع ،

وطلب ما كان استقر فلم يجبه إليه ، فأرسل أسد الدين نوابه
فقدسلموا بلبيس ، وحكم على البلاد الشرقية .

فأرسل شاور إلى الفرنج ، واستنجد بهم ، وخوفهم من نور
الدين إن ملك مصر ، فسارعوا إلى تلبيته ، وطمعوا في ملك النصارى
المصرية ، وساروا إلى بلبيس ، وسار نور الدين إلى طرف بلادهم
ليمنعهم عن المسير ، فلم يلتفتوا ، وتركوا في بلادهم من يحفظها .

وسار ملك القدس في الباقيين إلى بلبيس ، واستعان بجمع كثير
كانوا خرجوا إلى زيارة القدس ؛ وأقام أسد الدين بلبيس ،
وحصره الفرنج ، والعسكر المصري ثلاثة أشهر وهو يغاليهم القتال
ويراوحهم ، فلم يظفروا منه بطائل ، مع أن سور بلبيس قصير ،
وهو من طين (٢٥١) .

فعند ذلك خرج نور الدين لقصد بلاد الفرنج ، إلى حلب وجمع
العساكر ، وأرسل إلى أخيه قطب الدين صاحب الموصل ،
وإلى فخر الدين قرا أرسلان صاحب حصن كيفا ، وإلى نجم الدين
أبي صاحب ماردين وغيرهم من أصحاب الأطراف واستنجد بهم .

فسار قطب الدين ومقدم عسكره زين الدين علي كوجك ، وسير
صاحب ماردين عسكره ؛ وأما صاحب الحصن فقال له خواصه
وندماؤه : « على أي شيء عزمتم ؟ » فقال : « على القعود ، فإن نور
الدين قد تحشف من كثرة الصوم والصلاة ، فهو ياتي نفسه ومن
معه في المهالك » .

فلما جاء الغد أمر العسكر أن يتجهز للغزاة فسألوه عما صدفه
عن رأيه ، فقال : « إن نور الدين إن لم أنجده خرجت بلادي عن
يدي ، فانه قد كاتب زهادها والمنقطعين عن الدنيا يستمد منهم
الدعاء ، ويطلب منهم أن يحدثوا المسلمين على الغزاة ، وقد قعد كل
واحد منهم ومعه أتباعه وأصحابه ، وهم يقرؤون كتب نور الدين ،

ويبكون ، فأخاف أن يجتمعوا على لعنتي والدعاء علي . ثم تجهز وسار بنفسه .

ولما اجتمعت العساكر خرج نور الدين الى حارم ، وحصرها ، ونصب المجانيق عليها ، وزحف إليها ، فخرج البرندس بيمنه ، والقمص صاحب طرابلس ، وابن جوسلين والدوك مقدم كبير من الروم .

وابن لاون ملك الأرمن ، وجمعوا جميع من بقي من الفرنج بالساحل ، وقصدوا نور الدين .

فرحل إلى أرتاح ليتمكن منهم إن طلبوه « ويبتعدوا » عن البلاد إن لقوه ؛ وسير أذقاله إلى تيزين (٢٥٢) ، فساروا فنزلوا على الصفي (٢٥٣) ، ثم عادوا إلى حارم ، فتبعهم نور الدين على تعبئة الحرب ، فلما تقاربوا اصطفوا للقتال فحمل الفرنج على ميمنة المسلمين ، وفيها عسكر حلب وصاحب الحصن ، فانهزم المسلمون حتى وصلوا إلى جدارهم ؛ ونور الدين واقف بأزائهم على تل هناك يتضرع إلى الله ، وهو مكشوف الرأس .

وبقي راجل الفرنج فوق عم ، مما يلي حارم بالصفي ، فعطف عليهم زين الدين علي كوجك ، في عسكر الموصل ؛ وكان نور الدين قد جعله كمينا في طرف العمق ، وأجام القصب ؛ فقتلهم عن آخرهم .

ورجعت الخيالة من الفرنج خوفا على الراجل أن يتبعوا المسلمين ، فيقع المسلمون عليهم ، فوجدوا الأمر على ما قدره ، فراوا الرجالة منهم قتلى وأسرى ، واتبعهم نور الدين مع من إنهمز من المسلمين ، فأحاطوا بهم من جميع الجهات ، فاشتد الحرب ، وكثر القتل في الفرنج ، فوقت عليهم الغلبة .

وعدل المسلمون إلى الأسر ، فأسروا صاحب أنطاكية ، وصاحب

طرابلس ، والدوك مقدم الروم ، وابن جوسلين ، ولم يسلم إلا مليح ابن لاون ؛ قيل إن الياروقية أفرجوا له حتى هرب ، لأنه كان خالهم ، وكان عنة القتلى تزيد على عشرة آلاف .

وسار إلى حارم فملكها في شهر رمضان من السنة ، وبث سراياه في أعمال أنطاكية ، فنهبوها وأسروا أهلها ، وباع البرنس بمال عظيم وأسرى من المسلمين (٢٥٤) .

ثم سار في هذه السنة إلى دمشق ، بعد أن أنن لعسكر الموصل وبيار بكر بالعود إلى بلادهم ، ثم خرج إلى بانياس ، فحصرها وقتلها ، وكان معه أخوه نصره الدين أمير أميران - وكان قد رضي عنه وسامحه - وهو على حارم ، بعد أن دخل إلى الفرنج ، فأصابه سهم أنهب إحدى عينيه ، فقال له : « لو كشف لك عن الأجر الذي أعد لك لتمنيت زهاب الأخرى » ، وجد في حصارها وفتحها ، وملاً القلعة بالنخائر والرجال ، وشاطر الفرنج في أعمال طبرية ، وقرروا له على ما سوى ذلك مالا في كل سنة .

ووصل خبر فتح حارم وبانياس إلى الفرنج النازلين على بلبيس ، فأرادوا العود إلى بلادهم ، فراسلوا أسد الدين في الصلح رجاء أن يلحقوا بانياس ، فاتفق الحال معهم على أن يعود إلى الشام ، ويسلم ما بيده من أعمال مصر إلى أهلها ، ولم يكن عنده علم بما جرى لنور الدين بالشام ، وكانت النخائر قد قلت عنده بلبيس .

وخرج من الديار المصرية إلى الشام ، وجاء الفرنج ليدركوا بانياس ، فوجدوا الأمر قد فات ، وكشف أسد الدين الديار المصرية ، واستصغر أمر من بها .

وبخلت سنة إحدى وستين وخمس مائة ، فسار نور الدين إلى المنيطرة (٢٥٥) ، جريدة في قلة من العسكر ، على غفلة من الفرنج ، وحصر حصنها ، وأخذ عذوة ، وقتل من به ، وسبى وغنم

غنيمة كثيرة ، وأيس الفرنج من استرجاعه بعد أن تجمعوا له وتفرقوا .

وتحدث أسد الدين مع نور الدين ، في عودته إلى الديار المصرية ، فلما رأى جنده سيره إليها في ألفي فارس من خيار العسكر ، في سنة اثنتين وستين وخمسمائة .

فسار على البر ، وترك بلاد الفرنج على يمينه ، فوصل الديار المصرية ، وعبر النيل إلى الجانب الغربي عند أطيح (٢٥٦) ، وحكم على البلاد الغربية ، ونزل بالجيزة مقابل مصر ، فأقام نيفاً وخمسين يوماً .

فأرسل شاور واستنجد بالفرنج ، فسار أسد الدين إلى الصعيد ، وبلغ إلى موضع يعرف بالبايين (٢٥٧) ؛ وسارت العساكر المصرية والفرنجية خلفه ؛ فوصلوا إليه وهو على تعبئة وقد جعل أثقاله في القلب ليتكثرت بها ؛ وجعل ابن أخيه صلاح الدين في القلب ، وأوصاهم متى حملوا عليه أن يندفع بين أيديهم قليلاً ، فإذا عادوا فارجعوا في أعقابهم .

واختار من يثق بشجاعته ، ووقف بهم في الميمنة ، فحمل الفرنج على القلب ، فاندفع بين أيديهم غير مفرقين ، فحمل أسد الدين بمن معه على من بقي منهم ، فهزمهم ووضع السيف فيهم ، وأكثر القتل والأسر ، وعاد الذين حملوا على القلب فوجدوا أصحابهم قد مضوا قتلاً وأسراً فانهزموا .

وسار أسد الدين إلى الاسكندرية ، ففتحها باتفاق من أهلها واستتاب بها صلاح الدين ، وعاد إلى الصعيد ، وجبى أمواله .

وتجمع الفرنج والمصريون ، وحصروا صلاح الدين بالاسكندرية ، فصبروا على الحصار إلى أن عاد أسد الدين ، فوقع الصلح على أن بذلوا لأسد الدين خمسين ألف دينار ، سوى ما أخذ من البلاد ، وأن

الفرنج لا يقيمون في البلاد ، فاصطلحوا على ذلك ، وعاد إلى الشام ؛
وتسلم المصريون الاسكندرية (٢٥٨) .

وأما نور الدين فإنه جمع العساكر في هذه السنة ، وبخل من
حمص إلى بلاد الفرنج ، فنازل عرقة ، ونهب بلدها ، وخرب
بلادهم ، وفتح صافيتا والعريمة ، وعاد إلى حمص ، وخرج إلى
بانياس ، وخرج إلى هونين (٢٥٩) ، فانهزم الفرنج عنه
وأحرقوه ، فوصل إليه نور الدين من الغد ، فخرب سورته وعاد .

وكان حسان صاحب منبج قد مات ، وأقطع نور الدين منبج ولده
غازي بن حسان ، فعصى عليه في هذه السنة ، فسير إليه عسكريا ،
وأخذوها منه فأقطعها أخاه قطب الدين ينال بن حسان ، وهو الذي
ابتنى المدرسة الحنفية بمنبج .

وفي سنة ثلاث وستين وخمسمائة ، نزل شهاب الدين مالك بن
علي بن مالك صاحب قلعة جعبر ليتصيد ، فأخذه بذو كلاب أسيرا
وحملوه إلى نور الدين في رجب ، فاعتقله وأحسن إليه ، ورغبه في
الاقطاع فلم يجبه ، فعدل إلى الشدة والحذف .

ثم سير إليها عسكريا فلم يقدر على فتحها ، فعدل إلى اللين مع
صاحبها ، إلى أن اتفق الحال على أن عوضه عنها بسروج وبزاعا
والمالوكة (٢٦٠) ، وسلم إليه القلعة في سنة أربع وستين ، وقيل
لمالك : « أيما أحب إليك سروج أو القلعة ؟ » فقال : « هذه أكثر
مالا ، وأما العز ففارقناه بالقلعة » .

وفي هذه السنة أطلق نور الدين في بلاده بعض ما كان قد بقي من
المظالم والمؤن .

ثم إن الفرنج طمعوا في البيار المصرية فصعدوا إليها في سنة أربع
وستين وخمسمائة ، وأخذوا بلبيس وساروا إلى القاهرة فقاتلوها ؛
وسير العاضد يستغيث إلى نور الدين ، وسير شعور نسائه في

الكتب ، فوصله الرسول وهو بحلب ، وبذل له ثلاث بلاد مصر ، وإن يكون أسد الدين مقيما عندهم .

وكتبوا إلى أسد الدين بمثل ذلك ، فوصل إلى نور الدين إلى حلب من حمص ، وقد عزم على الإيفاد إليه ، فأمره بالتجهيز إلى مصر ، وأعطاه مائتي ألف دينار سوى الثياب والسلاح والدواب ، وحكمه في العسكر والخزائن فاختر ألفي فارس ، وأخذ المال وجمع ستة آلاف فارس ، وسار هو ونور الدين إلى دمشق فوصلها سلخ صفر ، ورحل إلى رأس الماء (٢٦١) .

وأضاف إلى أسد الدين جماعة أخرى من الأمراء منهم : عز الدين جورديك ، وغرس الدين قليج ، وشرف الدين برغش ، وعين الدولة بن ياروق ، وقطب الدين ينال بن حسان ، وصلاح الدين ابن أخيه .

وسار أسد الدين ، فلما قارب مصر رحل عنها الفرنج إلى بلادهم ، ووصل أسد الدين إلى القاهرة سابع جمادى الآخرة ، وبخل إليها واجتمع بالعاقد ، وخلع عليه وعاد إلى خيامه ، وفي نفس شاور منه ما فيها ، ولا يتجاسر على إظهاره .

وكان شاور يخرج في الأحيان إلى أسد الدين يجتمع به ، فخرج في بعض الأيام على عادته فلم يجده في الخيام ، وكان قد مضى لزيارة قبر الشافعي - رضي الله عنه - فلقه صلاح الدين ، وجورديك ، في جمع من العسكر وخدموه ، وأعلموه أن أسد الدين قد مضى للزيارة فقال : « نمضي إليه » فساروا جميعا ، فساوره صلاح الدين وجورديك ، وألقياه إلى الأرض ، فهرب عنه أصحابه وأخذ أسيرا .

وأرسلوا إلى أسد الدين فحضر في الحال ، وجاءه التوقيع في الحال بالوزارة على يد خادم خاص ، ويقول : « لا بد من رأسه » ، جريا على عادتهم في وزراءهم أن الذي يقوى على الآخر يقتله ، فقتل وأنفذ رأسه إلى العاقد (٢٦٢) .

وأنفذ إلى أسد الدين خلعه الوزارة ، فسار وبخل القصر ، وترتب وزيرا في سابع عشر شهر ربيع الآخر ، ودام أمرا ناهيا إلى أن عرض له خوانيق ، فمات في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة (٢٦٣) .

وفوض الأمر بعده إلى ابن أخيه ، وكان جماعة من الأمراء ، الذين كانوا مع أسد الدين قد تطاولوا إلى الوزارة ، منهم : عين الدولة بن ياروق ، وسيف الدولة المشطوب ، وشهاب الدين محمود الحارمي - خال السلطان صلاح الدين - وقطب الدين ينال بن حسان .

فأرسل العاضد إلى صلاح الدين ، وأحضره عنده ، وولاه الوزارة بعد عمه ، وخلع عليه ، ولقبه بالملك الناصر ، فاستتبت أحواله ، وبذل المال ، وتاب عن شرب الخمر ، وأخذ في الجسد والتشمير في أموره كلها ، وكان الفقيه عيسى الهكاري معه ، فميل الأمراء الذين كانوا قد طمعوا بالوزارة إلى الانقياد إليه ، فأجابوا سوى عين الدولة بن ياروق ، فإنه امتنع ، وعاد إلى نور الدين إلى الشام .

فاستمر الملك الناصر بالديار المصرية وزيرا ، وهو نائب عن نور الدين ، وكان إذا كتب إليه كتابا يكتب : « الأمير الأسفهلار ، وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا » . وتكتب العلامة على رأس الكتاب ، ويذكر اسمه .

وسير الملك الناصر ، وطلب أباه نجم الدين وأهله ، فسيرهم نور الدين إليه مع عسكر ، واجتمع معهم من التجار خلق عظيم ، وذلك في سنة خمس وستين .

وخاف نور الدين عليهم من الفرنج ، فسار في عساكره إلى الكرك فحصره ونصب عليه المجانيق ، فتجمع الفرنج ، وساروا إليه وتقدمهم ابن الهندفري ، وابن الدقيق (٢٦٤) ، فرحل نور الدين

نحوهما قبل أن تلحقهما بقية عساكر الفرنج فرجعا خوفا منه واجتمعا ببقيّة الفرنج .

وسلك نور الدين وسط بلادهم ، فنهب وأحرق ما في طريقه إلى أن وصل إلى بلاد الاسلام ، فنزل على عشترا (٢٦٥) على عزم الغزاة ، فأتاه خبر الزلازل الحادثة بالشام ، فإنها خربت حلب خرابا شنيعا ، وخرج أهلها إلى ظاهرها .

وتواترت الزلازل بها أياما متعددة ، وكانت في ثاني عشر شوال من السنة يوم الاثنين طلوع الشمس ، وهلك من الناس ما يزيد على خمسة آلاف نفر ذكر وأنثى ، وكان قد احترق جامع حلب وما يجاوره من الأسواق قبل ذلك في سنة أربع وستين وخمسمائة ، فاهتم نور الدين في عمارته وإعادته والأسواق التي تليه إلى ما كانت عليه ، وقيل : إن الاسماعيلية أحرقوه .

وبلغه أيضا وفاة مجد الدين ابن دايتيه ، أخيه من الرضاعة بحلب ، في شهر رمضان سنة خمس وستين وخمسمائة ، فتوجه نور الدين إلى حلب ، فوجد أسوارها وأسواقها قد تهدمت .

ونزل على ظاهر حلب حتى أحكم عمارة جميع أسوارها ، وبنى الفصيل الدائر على البلد ، وهو سور ثان .

ورمم نوابه ما خرب من الحصون والقلاع مثل بعلبك ، وحمص وحماة ، وبارين ، وغيرها .

وخرج نور الدين إلى تل باشر ، فوصله الخبر بوفاة أخيه قطب الدين بالموصل في ذي الحجة ، وكان أوصى بالملك لابنه الأكبر عماد الدين زنكي ، وكان طوع عمه نور الدين لكثرة مقامه عنده ، ولأنه زوج ابنته .

ثم إن فخر الدين عبد المسيح وخاتون ابنة تمرتاش بن إيلغازي

زوجة قطب الدين ، وهي والدة سيف الدين غازي بن قطب الدين
اتفقا على صرف قطب الدين عن وصيته لابنه عماد الدين إلى سيف
الدين غازي .

فرحل عماد الدين إلى عمه نور الدين مستنصرا به ليعينه على
أخذ الملك له ؛ فسار نور الدين في سنة ست وستين وخمسائة ،
وعبر الفرات عند قلعة جعبر في مستهل المحرم ، وقصد الرقة
فحصرها وأخذها ؛ ثم سار في الخابور ، فملكه جميعه ، وملك
نصيبين ، وأقام بها يجمع العساكر ، وكانت أكثر عساكره في الشام
في مقابلة الفرنج .

فلما اجتمعت العساكر سار إلى سنجار فحصرها ، ونصب عليها
المجانيق ، وفتحها فسلمها إلى عماد الدين زنكي ابن أخيه ؛ وجاءته
كتب الأمراء بالموصل يبذلون له الطاعة ، ويحدثونه على الوصول
إليهم ، فسار إلى الموصل .

وكان سيف الدين غازي وعبد المسيح قد سيرا عز الدين مسعود
ابن قطب الدين إلى أتابك شمس الدين إيلدكز صاحب أذربيجان
وأصبهان ، يستنجدانه على نور الدين ، فأرسل إيلدكز إليه رسولا
ينهاه عن التعرض للموصل فقال نور الدين : « قل لصاحبك أنا
أصلح لأولاد أخي منك ، فلا تدخل بيننا ؛ وعند الفراغ من إصلاح
بلادهم يكون لي معك الحديث على باب همذان ، فانك قد ملكت هذه
المملكة العظيمة ، وأهملت الثغور حتى غلب الكرج عليها ؛ وقد بليت
أنا ولي مثل ربع بلادك بالفرنج ، فأخذت معظم بلادهم ، وأسرت
ملوكهم » .

وأقام على الموصل فعزم من بها من الأمراء على مجاهرة عبد
المسيح بالعصيان ، وتسليم البلد إلى نور الدين ، فعلم بذلك فأرسل
إلى نور الدين في تسليم البلد على أن يقره بيد سيف الدين ؛ وطلب

الامان لنفسه وعلى أن يمضي صحبته إلى الشام ، ويقطعه ما يرضيه
فتسلم البلد ، وأبقى فيه سيف الدين غازي .
وعاد إلى حلب فدخلها في شعبان من هذه السنة .

وكتب إلى الملك الناصر صلاح الدين يأمره بقطع الخطبة
العاضية وإقامة الخطبة المستضيئية العباسية ، فامتنع واعتذر
بالخوف من قيام أهل الديار المصرية عليه ، وكان يؤثر أن لا يقطع
الخطبة للمصريين في ذلك الوقت ، خوفا من نور الدين أن يدخل إلى
الديار المصرية فيأخذها منه ، وإذا كان العاضد معه امتنع وأهل
مصر معه ، فلم يقبل عذره نور الدين ، وألح عليه .

وكان العاضد مريضا فخطب للمستضيء في الديار المصرية ، وتوفي
العاضد ، ولم يعلم بقطع الخطبة ، وقيل : إنه علم قبل موته ؛ وكان
ذلك في سنة سبع وستين وخمسمائة .

وفي هذه السنة تتبع نور الدين رسوم المظالم والمؤن في جميع
البلاد التي بيده ، فأزالها وعفى رسومها ومحا آثار المذكرات
والفواحدش ، بعدما كان أطلق من ذلك في تواريخ متقدمة ، وكان مبلغ
ما أطلقه أولا وثانيا خمسمائة ألف وستة وثمانين ألفا وأربعمائة
وستين ديناراً .

وكان رأى وزيره موفق الدين خالد بن القيسراني في المنام كأنه
يفصل ثياب نور الدين ، ففسر ذلك عليه ، ففكر في ذلك ولم يرد عليه
جوابا ، فحجل وزيره وبقي أياما واستدعاه ، وقال : « تعال
ياخالد ، اغسل ثيابي » ؛ وأمره فكتب توقيعا بإزالة ما ذكرناه .

وسار الملك الناصر من مصر غازيا ، فنازل حصن الشوبك
وحصره ، فطلبوا الامان واستمهلوه عشرة أيام ، فلما سمع نور
الدين بذلك سار عن دمشق ، فدخل بلاد الفرنج من الجهة الأخرى ،
فقيل للملك الناصر : « إن دخل نور الدين من جانب وأنت من هذا
الجانب ملك بلاد الفرنج ، فلا يبقى لك معه بديار مصر مقام ، وإن

جاء وانت ههنا فلا بد لك من الاجتماع به ويبقى هو المتحكم فيك
بما شاء ؛ والمصلحة الرجوع إلى مصر .

فرحل عن الشوبك إلى مصر ، وكتب إلى نور الدين يعتذر
باختلال أمور الديار المصرية وأن شيعتها عزموا على الودوب بها ،
فلم يقبل نور الدين عذره ، وتغير عليه وعزم على الدخول إلى الديار
المصرية .

فسمع الملك الناصر ، فجمع أباه نجم الدين وخاله شهاب الدين ،
وتقي الدين عمر ، وغيرهم من الامراء ، وأعلمهم ما بلغه من حركة
نور الدين واستشارهم ، فلم يجبه أحد ، فقام تقي الدين ، وقال :
« إذا جاءنا قاتلناه » ووافقه غيره من أهله ، فشتمهم نجم الدين
أيوب والد الملك الناصر ، وأقعد تقي الدين ، وقال للملك الناصر :
« أنا أبوك ، وهذا شهاب الدين خالك ، ونحن أكثر محبة لك من
جميع من ترى ؛ ووالله لو رأيت أنا وهذا خالك نور الدين لم يمكننا
إلا أن نقبل الأرض بين يديه ، ولو أمرنا أن نضرب عذقك بالسيف
لفعلنا ، فإذا كنا نحن هكذا ، فما ظنك بغيرنا ، وكل من نراه عندك ،
فهو كذلك ، وهذه البلاد لنور الدين ونحن مماليكه ونوابه فيها ، فإن
أراد عزلك سمعنا وأطعنا ، والرأي أن تكتب كتابا مع نجاب وتقول
له : بلغني أنك تريد الحركة لأجل البلاد ، ولأحاجة إلى ذلك بل
يرسل المولى نجابا يضع في رقبتى منديلا ، ويأخذني إليك » .
وتفرقوا .

فلما خلا نجم الدين أيوب بالملك الناصر قال له : « كيف فعلت
مثل هذا ؟ أما تعلم أن نور الدين إذا سمع عزمنا على منعه
ومحاربته جعلنا أهم الوجوه إليه ، وحينئذ لانقوى به ، وأما إذا بلغه
طاعتنا له تركنا واشتغل بغيرنا ؛ والأقدار بيد الله ؛ ووالله لو أراد
نور الدين قسبة من قصب السكر لقاتلته عليها حتى أمنعه أو
أقتل » ، ففعل ما أشار به عليه والده ، فترك نور الدين قصده ،
واشتغل بغيره .

وخرج نور الدين بالعساكر ، ففتح حصن عرقه ، وصافيتا ، وعريمة (٢٦٧) ، ونهب وخرب بلاد الفرنج ثم هادنهم .

ثم إن الفرنج ساروا إلى بلد حوران في سنة ثمان وستين للغارة ، فسار نور الدين إليهم ، فنزل عشترا ، وسير عسكره إلى أعمال طبرية ، فغذموا غنائم عظيمة ، وعادوا .

وكان نور الدين قد استخدم مليح بن لاون ، ملك الأرمن ، وأقطعه أقطاعا من بلاد الاسلام ، وحضر معه حروبا متعددة فأنجده في هذه السنة بطائفة من عسكره ، فدخل مليح إلى أننة وطرسوس والمصيصة ، وفتحها من يد ملك الروم ، وأرسل إلى نور الدين كثيرا من غنائمهم وثلاثين أسيرا من أعيانهم (٢٦٨) .

وقصد قلج أرسلان ذا الذون بن الدانشمند صاحب ملطية وسيواس (٢٦٩) ، وأخذ بلاده ، وأخرجه عنها طريدا ، فاستجار بنور الدين ، ووصل إليه فأكرمه ، وسير إلى قلج أرسلان يشفع إليه في إعادة بلاده إليه ، فلم يفعل ؛ فسار نور الدين إليه في هذه السنة فابتدأ بـكيسوم (٢٧٠) ، وبهسنى (٢٧١) ، ومرعش ، ومرزبان (٢٧٢) ، ومايلها ، وكان ملكه مرعش ، في أوائل ذي القعدة ، والباقي بعدها .

وسير طائفة من عسكره إلى سيواس ، فملكها ؛ وراسله قلج أرسلان في الصلح ، وأتاه من أخبار الفرنج ما أزعجه فصالحه ، وأعطى سيواس ذا الذون ، وجعل معه قطعة من عسكره ؛ وشرط على قلج أرسلان إنجاده بعساكره إلى الغزاة .

واتفق نور الدين وصلاح الدين على أن يصل كل واحد منهما من جهته ، وتواعدا على يوم معلوم على أن يتفقا على قتال الفرنج ، وأيهما سبق أقام للآخر منتظرا ، إلى أن يقدم عليه ، فسبق صلاح الدين ووصل إلى الكرك وحصره .

وسار نور الدين فوصل إلى الرقيم (٢٧٣) - وبينه وبين الكرك مرحلتان - فخاف صلاح الدين ، واتفق رأييه ورأي أهله على العود إلى مصر لعلمهم بأنهما متى اجتمعا كان نور الدين قادرا على أخذ مصر منه .

فعاد إلى مصر ، وأرسل الفقيه عيسى إلى نور الدين يعتذر عن رحيله بأنه استخلف أباه نجم الدين أيوب على مصر ، وأنه بلغه أنه مريض ، ويخاف أن يحدث به حادث الموت فتخرج البلاد عن أيديهم ، ولم يكن مريضا ، وأرسل مع الفقيه عيسى من التحف والهدايا ما يجلب عن الوصف ، فجاء إليه فأعلمه برسالة صلاح الدين ، فعظم ذلك عليه ولم يظهر التأثر بذلك ، وقال : « حفظ مصر أهم عندها » .

واتفق أن صلاح الدين وصل إلى مصر فوجد أباه قد سقط عن الفرس ، وبقي أياما ومات ، وهو غائب عنه ، في السابع والعشرين من ذي الحجة من سنة ثمان وستين وخمسمائة .

وخاف صلاح الدين من نور الدين أن يدخل مصر فيأخذها منهم ، فشرع في تحصيل مملكة أخرى لتكون عنة له بحيث أن نور الدين إن غلبه إلى الديار المصرية سار هو وأهله إليها وأقاموا بها .

فسير أخاه الأكبر دورا ن شاه يأنن نور الدين له في ذلك ، وسيره قاصدا عبد النبي بن مهدي ، وكان دعا إلى نفسه ، وقطع خطبة بني العباس ، فمضى إليها ، وفتح زييد وعدن ومعظم بلاد اليمن (٢٧٤) .

وصلاح الدين على ما كان عليه من الطاعة في الظاهر لنور الدين إلى أن اتفق أن مرض نور الدين بعلة الخوانيق بدمشق ، وتوفي بها يوم الأربعاء حادي عشر شوال من سنة تسع وستين وخمسمائة ، وكان قد شرع في التآهب للدخول إلى الديار المصرية وختن ولده الملك

الصالح اسماعيل بدمشق ، في خامس شوال ، وأخرج صدقات كثيرة وكسوات للأيتام الذين ختنهم معه .

واتسع ملكه بحيث خطب له بالحرمين الشريفين وبلاد اليمن التي افتتحها شمس الملوك ، وانهمر بلد حلب في زمانه لعدله وحسن سيرته حتى لم تبق مزرعة في جبل ولا واد إلا وفيها سكان ولها مغل .

وصار على ظاهر حلب من العمارة والمساكن أكثر من المدينة ، مثل الحاضر السلیماني ، وخارج باب الأربعين ، وغير ذلك من الأبواب جميعها .

وارتفعت الأسعار مع كثرة المغلات لكثرة العالم ، حتى كانت الأسعار في السنة التي مات فيها بعد ذلك الرخص في السنة التي مات فيها والده : الحنطة مكوك ونصف بدينار ، والشعير مكوك ونصف بدينار ، والعدس مكوك ومصع بدينار ، والجلبان كذلك ، والقطن ستة أرطال جوز بدينار .
والله تعالى يرحمه

وقام الملك الصالح بالملك بعده (٢٧٥) ، وكان عمره إحدى عشرة سنة ، وحلف له الأمراء بدمشق . وخطب له الملك الناصر صلاح الدين بمصر ، وأرسل إليه رسولا يعزيه ، ومعه ننانير مصرية عليها اسمه ، ويعلمه أنه في طاعته ، وأن الخطبة أقيمت له بمصر .

وأما حلب فكان الوالي بقلعتها جمال الدين شاذبخت (٢٧٦) - الخادم الهندي ، عتيق نور الدين - وهو الذي بني المدرسة لأصحاب أبي حنيفة بحلب ، وقبر بها - ، فوصله كتاب الطير بوفاة نور الدين : فأمر في الحال بضرب الدباب (٢٧٧) ، والكوسات ، والبوقات : وأحضر المقدمين والأعيان بحلب ، والفقهاء والأمراء ، وقال :

« قد وصل كتاب الطائر ، يخبر أن مولانا الملك العادل قد ختن ولده ؛ وولاه العهد بعده ، ومشى بين يديه » ،

فاظهروا السرور بذلك ، وحمدوا الله تعالى ، فقال لهم : « تحلفون لولده الملك الصالح ، كما أمر الملك العادل بأن حلب له ، وأن طاعتكم له وخدمتكم ، كما كانت لآبيه » . فحلف الناس على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم ، في ذلك اليوم ، ولم يتترك أحدا منهم يزول من مكانه .

ثم قام إلى مجلس آخر ، ولبس ثياب الحداد ، وخرج إليهم وقال : « يحسن الله عزاءكم في الملك العادل ، فإن الله قد نقله إلى جنات النعيم » .

وتوجه المؤيد ابن العميد ، وعثمان زردك ، وهمام الدين إلى حلب ، لاثبات ما في الخزائن بحلب ، وختمها بخاتم الملك الصالح .

وكان وزير الملك العادل نور الدين : موفق الدين خالد بن محمد ابن نصر بن القيسراني ، رسولا عنه بمصر .

فاتفق رأي الجماعة على أن ولوا وزارة الملك الصالح : شهاب الدين أبا صالح عبد الرحيم بن أبي طالب بن العجمي ، وكان عدلا على خزائن نور الدين .

وكان شمس الدين علي (٢٧٨) ، ابن داية نور الدين ، أخو مجد الدين لأمه ، من أكبر الأمراء النورية ، وأمر حلب راجع إليه وإلى إخوته في أيام نور الدين ، وكان بحلب عند موت نور الدين ، وسابق الدين عثمان وبدر الدين حسن أخواه ؛ فتولى شمس الدين علي تدبير حلب ، وصعد إلى القلعة ، وحصل بها مع شاذبخت ، والأمير بدر الدين حسن متولي الشحنة بالمدينة .

وكان نور الدين قد سير إلى الموصل وغيرها من البلاد يستدعي العساكر ، بحجة الغزاة ؛ ومقصوده الطلوع إلى مصر ، فصار سيف

الدين غازي بعسكر الموصل ، وعلى مقدمته سعد الدين كمشتكين الخادم ، وكان قد جعله نور الدين واليا من قبله بالموصل ، فلما كانوا ببعض الطريق ، وصلتهم الاخبار بموت نور الدين هرب سعد الدين كمشتكين إلى حلب جريئة .

وأما سيف الدين فإنه أخذ بلاد الجزيرة جميعها ، سوى قلعة جعبر ؛ فأرسل شمس الدين علي بن الداية يطلب الملك الصالح إلى حلب ، ليمنع سيف الدين ابن عمه من البلاد الجزرية ، فلم يمكنه الأمراء الذين معه بدمشق من الانتقال إلى حلب خوفا أن يغلبهم عليه شمس الدين علي .

وكان شمس الدين محمد بن عبد الملك بن المقدم قد صار متولي تدبيره بدمشق ، وكمال الدين بن الشهر زوري وجماعة من الأمراء معه ، وكان قد أشار كمال الدين على الأمراء بمشاورة الملك الناصر فيما يفعلونه ، لئلا يجعل ذلك حجة عليهم ، فخافوا منه ولم يفعلوا .

وخرج الفرنج ، وحصروا قلعة بانياس فراسلهم ابن المقدم ، وبذل لهم مالا ، وخوفهم بالاستنجاد بصلاح الدين وسيف الدين ، فعادوا . وبلغ ذلك كله الملك الناصر صلاح الدين ؛ فأرسل صلاح الدين إلى الملك الصالح ، وعتب عليه حيث لم يعلمه بما تجدد من سيف الدين في أخذ الجزيرة ليحضر ويكفه ، وأنكر صلاح الفرنج ، وبذل المال لهم ، وبذل من نفسه قصد الفرنج ، وكفهم عن التناول إلى شيء من بلاد الملك الصالح .

وكتب إلى كمال الدين وابن المقدم ، والأمراء ، وقال : « لو أن نور الدين يعلم أن فيكم من يقوم مقامه ، أو يثق به مثلي لسلم إليه مصر ، ولو لم يعجل عليه الموت لعهد إلي بتربية ولده ، وأراكم قد تفردتم بمولاي وابن مولاي دوني ، وسوف أصل إلى خدمته ، وأكافي إنعام أبيه ، وأجازي كلا منكم على فعله . »

وكثر خوف شمس الدين علي بن الداية من سيف الدين غازي ، وأن يعبر الفرات إلى حلب فيملكها ، فأرسل سعد الدين كمشتكين إلى دمشق ، ليحضر الملك الصالح ، فلما قارب دمشق سير إليه شمس الدين بن المقدم عسكريا ، فنهضوه ؛ وعاد منهزما إلى حلب ، فأخلف عليه شمس الدين علي بن الداية ، عوضا عما أخذ منه .

ثم إن الأمراء بدمشق ، اتفقوا على إرسال الملك الصالح إلى ابن الداية بحلب ، لأنها أم البلاد ، فأذفوا إليه يطلبون إرسال سعد الدين ليأخذ الملك الصالح ، فوصل إليهم سعد الدين كمشتكين ، واتفقوا على أن يكون شمس الدين علي أتابكا للملك الصالح ، وحلف شمس الدين وجمال الدين شاذبخت للأمراء على أقطاعهم ، ونفذت النسخة مع سابق الدين عثمان إلى دمشق .

وسار الملك الصالح وأمه مع سعد الدين كمشتكين والأمراء النين أقطاعهم بحلب ، ولما وصلوا ما بين حماة وحلب وصل من جمال الدين شاذبخت من خوف الأمراء من بني الداية ، فقبضوا « سابق الدين عثمان » ، بقنشرين ؛ وكنتموا الحال ؛ ووصلوا إلى باب حلب ، فخرج بدر الدين حسن ، فقبضوه ، وبخلوا من « باب الميدان » وقد عمل به الخوان ، فلم يلتفتوا إليه ؛ وبادروا بالملك الصالح ، وصعدوا به إلى القلعة .

وكان « بشمس الدين علي » نقرس ، فحمل في محفه ، وحضر بين يدي الملك الصالح ، فزندوا يديه ، وقيدوا أخويه ، وجعلوا الجميع في المطمورة (٢٧٩) ، بالمركز .

وكان شاذبخت قد احتاط ، واستخدم جماعة من الأجناد ، فصار في مقدار خمسمائة راجل ، و « شمس الدين » في مقدار مائة ، وأمر أسباسلار (٢٨٠) باب القلعة أبا بكر بن مقبل : أن يمنع من يصعد إلى القلعة من أصحابه وأصحاب إخوته ، ما خلا سابق الدين وبدر الدين ، فكانا يصعدان ، ومع كل واحد

منهما غلام واحد ؛ ووكل بباب شمس الدين ثلاثين رجلا كل ليلة ، فعتب على شاذبخت فقال له : « أنا أبعث الرجال إليك ، ليقدوموا في الخدمة » ، وكان يوكل بالأجناد الذين خالفوه حفظة يمنعون من يدخل منهم أو يخرج ، وكان هذا حال القلعة ، في غيبة الملك الصالح .

وأما حال المدينة فإن السنة من أهل البلد مالوا إلى « المجبية » ، لتعصبهم للسنة على الشيعة ، وجمعهم بدر الدين حسن شحنة حلب ، واستحلفهم في الليل ، وكان فيهم بنو العجمي ، والشيخ أبو يعلى بن أمين الدولة ، وبنو قاضي بالاس - على ما ذكر - وطلب القاضي أبا الفضل بن الخشاب وبنو الطرسوسي ، فأبوا أن يحضروا .

وكان أهل حلب من الشيعة ، يتوالون أبا الفضل بن الخشاب ، ويقدمونه عليهم ، فوافقوه على حفظ البلد للملك الصالح ، وعلى مخالفة بني الداية ، فسير بدر الدين حسن إلى ابن الخشاب ، وقال له : « إن جماعة عندي قذفوك ، وتحذثوا بأنك تطعن في الدولة ، وأنت تريد أن تملك حلب » .

وكان بدر الدين وأخواه أرادوا أن تقع الفتنة بحلب بين السنة والشيعة ، ليستقيم أمرهم ، فثار الغوغاء من الشيعة ونهبوا دار قطب الدين بن العجمي بالقرب من الزجاجين ، ودار أبي يعلى بن أمين الدولة ، بالجرن الأصفر (٢٨١) . وكان فيها أموال الأيتام ، وانتقل ابن العجمي بعد ذلك إلى البلاط ، وابن أمين الدولة إلى تحت القلعة بالقرب من « مسجد السيدة » (٢٨٢) .

وقتل في ذلك اليوم في « مدرسة الزجاجين » الشيخ أبو العباس المغربي ، وكان مقرنا محدثا .

وثارت الفتنة بين الطائفتين ؛ وطلب الفقراء دور الأغنياء فنهبت دار أبي جعفر بن المنذر بالعقبة (٢٨٣) ، فجمع بدر الدين حسن

جماعة من الاجناد ومن اهل البلد السنة ومن العسكر ، والبسهم السلاح ، وصعد إلى شاذبخت ، وقال له : « إن أبا الفضل بن الخشاب يريد أن يملك البلد وقد مال إليه الشيعة وبعض السنة ، فتعينني بذقابين وزراقين حتى أقبض عليه ، وأعتقه ، إلى أن يحضر الملك الصالح » .

فأمر الاجناد بلبس السلاح والخروج معه ، وصار بهم إلى « تل فيروز » (٢٨٤) - وهو موضع سوق الصاغة الآن - وكان إزاء ذلك تلا .

وأخذوا الفلايج والأبواب ، وسدوا الدروب ، وزحفوا من الطرق والأسطحة ، إلى دار ابن الخشاب ، ووقع قتال شديد ، وقتل بين الفريقين جماعة كثيرة ، وانتهى إلى الدار ، فأحرقها ونهبها ، ونهب أدر جماعة من المجاورين له .

وانهزم القاضي أبو الفضل ، واختفى في دار فخرا وابن بكيا عميد بالقرب من حمام شراحيل (٢٨٥) ، فأقام بها إلى أن وصل الملك الصالح في الحرم ، من سنة سبعين وخمسمائة ، وصعد إلى القلعة ، وقبض على بني الداية - كما ذكرنا - وصار الأمر والتدبير إلى سعد الدين كمشتكين الخادم ، وهو الذي بني الخانكاه (٢٨٦) المنسوبة إليه بحلب ، في جوارنا ، وهي كانت دار « أبي الطيب المتنبي » ، بحلب .

وكان شمس الدين علي قد عزم على أن الملك الصالح إذا قدم أخذه بمفرده ، وصعد به إلى القلعة ، ولا يمكن أحدا من الأمراء من الصعود ، ويطردهم ، ويستقل بالأمور .

فسير « شاذبخت » من أسر ذلك إلى الأمراء الذين كانوا في صحبة « الملك الصالح » ، فاتفق رأيهم في قنشرين على قبض أولاد الداية ، وتحالفوا على أن قدموا كمشتكين ، فلما رحلوا من قنشرين ، بدأوا بسابق الدين ، وكان قد وجه إلى دمشق في تقرير

الأمور ، فقبضوه ، وحفظوا الطريق لئلا يصل إلى حلب من يخبر أخويه ، إلى أن صعدوا إلى القلعة - كما ذكرنا - .

وأما أبو الفضل بن الخشاب ، فإن « الملك الصالح » أمنه ، وسير له خاتما ، وركب إلى القلعة ، ومعه خاق كثير من أهل حلب ، وعوامها ، يمشون في خدمته ، وأكد أمره ، وقرر على أن يقتل ، فلما دخل إلى القلعة ، ووصل قدام الفرن بالقلعة ، ضربه علي أخو عز الدين جورديك فرماه . وجاء بعض أجناد القلعة فاحتز رأسه ، وجعلوه على باب القلعة .

ثم رفع على رمح إلى برج بالقلعة ، يقال له « برج الزيت » ؛ وتفرق أصحابه من تحت القلعة ، عند ذلك .

واستولى على دولة « الملك الصالح » أمير لالا المجاهد ياقوت وهو الحاكم عليه ، وهو الذي رباه ، وجمال الدين شاذبخت الهندي وهو والي القلعة والحاكم بها ، وسعد الدين كمشتكين مقدم العساكر ومتولي إقطاعهم ، وشهاب الدين أبو صالح بن العجمي ، وزير الملك الصالح ، فخاف ، وولوا رئاسة حلب الرئيس صفى الدين طارق بن الطريرة ، وعزلوا أبا محمد الحكم ، وكان يتولى الرئاسة في أيام نور الدين .

فخاف ابن المقدم والأمراء ، الذين بدمشق ، أن يستقر أمر كمشتكين بحلب ، فيأخذ الملك الصالح ، ويسير إلى دمشق ، ويفعل كما فعل بأولاد الداية ، فكاتبوا سيف الدين غازي صاحب الموصل ، ليصل إليهم ، ويسلموا إليه دمشق ، فخاف أن تكون مكيدة منهم ، فامتنع من ذلك ، وراسل سعد الدين كمشتكين والملك الصالح ، وصالحهما على الجزيرة ، وأبقائها في يده .

فخاف الأمراء ، بدمشق من اتفاق « سيف الدولة » « الملك الصالح » عليهم ، فكاتبوا « الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب » ، واستدعوه من مصر ليملكوه عليهم ، فسار من مصر في

سبعمائة فارس ، والفرنج في طريقه ، فلم يبال بهم ، فخرج اليه صاحب بصرى - وكان ممن كاتبه .

ولما وصل الى دمشق خرج كل من كان بها من العسكر ، والتقوه ودخل البلد ، ونزل في دار ابيه المعروفة بدار «العقيقي» (٢٨٧) ، وعصى عليه في القلعة خادم اسمه «ريحان» ، فأعلمه أنه انما جاء في خدمة «الملك الصالح» ، فسلم اليه القلعة ، وصعد «الملك الناصر» اليها ، وأخذ ما فيها من الاموال ، فاستعان به ، وتزوج «خاتون بنت معين الدين» ، وكانت زوجة «نور الدين» ، واستخلف اخاه طغتكين سيف الاسلام .

وسار الى حمص وحماه ، وهما في اقطاع «فخر الدين مسعود بن الزعفراني» . وكان ظالما ، فسار منها بعد موت «نور الدين» فملك «الملك الناصر» في حادي عشر جمادى الاولى ، من سنة سبعين ، مدينة حمص . وبقيت القلعة ، وكان الولاة في القلاع من جهة نور الدين ، فترك في البلد من يدفظه ، ويمنع من في القلعة من النزول .

وسار الى حماة ، فملك مدينتها مستهل جمادى الآخرة ، وكان بالقلعة عز الدين جورديك ، فأرسل اليه ، وقال له : «اني في طاعة الملك الصالح ، والخطبة له في البلاد التي في يدي على حالها ، والمقصود اتفاق الكلمة على طاعة الملك الصالح ، وأن نستعيد البلاد الجزرية ونحفظ بلاه» فاستحلفه جورديك على ذلك ، وسيره الى حلب في اجتماع الكلمة ، وفي اطلاق شمس الدين علي وأخويه من السجن ، وكان اقطاعهم قد قبض من نوابهم ولم يبق في ايديهم غير شيزر ، «وقلعة جعبر» .

واستخلف جورديك بقلعة «حماة» أخاه ليحفظها ، فلما وصل جورديك قبض عليه كمشتكين ، وسجنه ، فعلم اخوه بذلك ، فسلم قلعة حماة الى الملك الناصر .

وسار الملك الناصر الى حلب ، فوصلها في ثالث جمادى الآخرة من سنة سبعين ، وحصرها فركب الملك الصالح ، وهو صبي عمره اثنتا عشرة سنة ، وجمع أهل حلب ، وقال لهم: «أنا يتيمةمكم ، وقد عرفتكم احسان أبي إليكم ، وقد جاء هذا الظالم ينتزع ملكي» ، وقال أقوالا كثيرة ، وبكى فأبكى الناس وبذلوا انفسهم وأمـوالهم له ، واتفقوا على القتال دونه ، والذب عنه .

فجعل الحلبيون يخرجون ويقاتلون الملك الناصر عند «جبل جوشن» فلا يقدر ان يتقرب الى البلد ، وأرسل سعد الدين كمشتكين الى «سنان» مقدم الاسماعيلية ، وبذل له أموالا كثيرة ليقتل الملك الناصر ، فقفزوا عليه ، فحماه الله منهم وقتلوا (٢٨٨) .

وبقي محاصرا حلب الى سلخ جمادى الآخرة ، وكان كمشتكين قد أرسل إلى سيف الدين غازي يستنجده ، وكان «ريمند» صاحب طرابلس الذي أسره نور الدين ، قد أطلقه كمشتكين بمائة ألف وخمسين ألفا صورية ، في هذه السنة ، وصار موضع «مري» ملك الفرنج (٢٨٩) ، فأرسل من بحلب اليه يطلبون منه ان يقصد بعض البلاد التي بيد الملك الناصر ، ليرحل عنهم ، فسار الى حمص نازلها ، فرحل الملك الناصر عن حلب ، مستهل شهر رجب . فلما نزل «الرسن» رحل الفرنج عن حمص ، ووصل الملك الناصر اليها ، وحصر قلعتها الى ان تسلمها .

وسار الى بعلبك ، فتمسكها وقلعتها ، في رابع شهر رمضان ، من سنة سبعين وخمسائة .

وأما سيف الدين غازي فانه جمع عساكره ، وكاتب اخاه عماد الدين زنكي صاحب سنجار ، لينزل اليه بعساكره ليجمعها على نصرة الملك الصالح ، فامتنع ، وكان الملك الناصر قـد كاتبه ، وأطمعه في ملك الموصل ، لانه الكبير من أولاد أبيه ، فمضى سيف الدين الى «سنجار» محاصرا لها ، وسير عسكرا كثيرا الى حلب مع أخيه عز الدين مسعود ، مع أكبر أمرائه «زلفندار» ،

فوصل عز الدين الى حلب ، واجتمعت عساكر حلب معه ، وساروا الى حماة ، فقاتلوها .

فأرسل الملك الناصر ، وبذل لهم تسليم حمص وحماة ، وأن يقر بيده دمشق ، وأن يكون فيها نائبا عن الملك الصالح ، فلم يجيبوه الى ذلك ، وقالوا : « لا بد من تسليم جميع ما اخذناه من الشام ، وعوده الى مصر » .

فسار الملك الناصر الى عز الدين ، وزلفندار ، فالتقوا في تساع عشر شهر رمضان ، على قرون حماة (٢٩٠) ، فانهزم عسكر الموصل ، وثبت عز الدين بعد الهزيمة ، فقال الملك الناصر : « اما ان يكون هذا أشجع الناس ، أو أنه لا يعرف الحرب » . وأمر اصحابه فحملوا فحملوا عليه حتى ازالوه عن موقفه ، وتمت الهزيمة وتبعهم الملك الناصر ، وغنموا غنائم كثيرة ، وأسر جماعة كثيرة فأطلقهم .

ونزل الملك الناصر على حلب ، محاصرا لها ، وقطع حينئذ خطبة الملك الصالح ، وأزال اسمه عن السكة في بلاده ، فلما طال الامر عليهم راسلوه في الصلح ، على ان يكون له ما بيده من بلاد الشام ، ولهم ما بأيديهم ، وأخذ المعرة ، وكفرطاب ، وانتظم الحال بينهم على ذلك .

ورحل عن حلب ، في العشر الاول من شوال ، الى حماة ، فوصلته خلع الخليفة بها مع رسوله ، ووصل خبر الكسرة الى سيف الدين ، وهو محاصر سنجار ، فصالح « عماد الدين » على ما بيده ورحل الى الموصل ، وشرع في جمع العساكر .

وسار الملك الناصر من حماة الى « بارين » ، وفيها نائب عز الدين ابن الزعفراني ، ولم يبق بيده غيرها ، فحصرها الى أن سلمها واليها اليه بالآمان ، فعاد الى حماة ، وأقطعها خاله شهاب الدين محمود بن تكش الحارمي ، وأقطع حمص ناصر الدين محمد ابن عمه اسد الدين ، وعاد الى دمشق .

وخرج سيف الدين غازي صاحب الموصل ، في سنة احدى وسبعين وخمسمائة . وسار الى «نصيبين» ، واستنجد صاحب «حصن كيفا» وصاحب «ماربين» ، فاجتمع معه عسكر كثير بلغت عدتهم ستة آلاف فارس ، وأقام بنصيبين حتى خرج الشتاء ، فضجرت العساكر وفنيت نفقاتهم . (٢٩١)

ثم سار الى حلب ، فعبر ب «البيرة» وخيم على جانب الفرات الشامي ، ورأسل كمشتكين والملك الصالح ، لتستقر قاعدة يصل عليها اليهم ، ووصل كمشتكين اليه ، وجرت مراجعات كثيرة ، عزم فيها على العود مرارا ، حتى استقر اجتماعه بالملك الصالح ، وسمحوا به ، فسار ووصل الى حلب .

وخرج الملك الصالح للقائه بنفسه ، فالتقاه قريب «القلعة» واعتنقه ، وضمه اليه ، وبكى ، ثم امره بالعود الى القلعة فعاد ، وسار هو فنزل «بعين المباركة» (٢٩٢) ، وأقام بها مدة ، وعسكر حلب تخرج الى خدمته في كل يوم ، وصعد الى قلعة حلب جريئة ، وأكل فيها شيئا ، ونزل ، وسار منها الى «تل السلطان» ، (٢٩٣) ومعه عسكر حلب ، مضافا الى العساكر الواصلة معه .

وخرج رجل ادعى أنه المنتظر ، وادعى النبوة «بجبل ليلون» ، واستغوى اهل تلك الناحية ، وأظهر لهم زخارف ، ومحالا ، وقال لهم: «اذا جاء العسكر اليكم ، فسوف ارميهم بكف من تراب فاهلكهم» . وأغاروا على «تركمان» «بجبل سمعان» وكان مقيما باتباعه «بكفرند» ، فخرج «طمان» من العسكر ، وسعد الدين كمشتكين بجماعة من العسكر ، ووصلوا اليهم ، فجعل اتباعه يصيحون : «وعدك يا مولانا!» والسيف يعمل فيهم ، فألقى التراب ، فزحف اليه العسكر ، وقتل الرجال وسبى النساء ، والتجأ جماعة الى المغاير ، فماتوا ، ثم عاد العسكر الى «تل السلطان» ، بعد ان قتل وصلب . (٢٩٥)

وكان الملك الناصر بدمشق في قل من العسكر ، لأنه كان قد سيرها الى مصر ، وأنفذ اليها يستدعيها ، فلو عاجله سيف الدين لبلغ منه غرضاً ، لكنه تأخر ، فوصل عسكر مصر الى الملك الناصر .

فسار من دمشق الى ناحية حلب ، ليلقى سيف الدين ، فالتقاه «بتل السلطان» ، وكان «سيف الدين» قد سبقه الى تل السلطان ، فوصل الملك الناصر العصر ، وقد تعب هو وأصحابه وعطشوا ، فألقوا نفوسهم الى الأرض ليس فيهم حركة .

فأشير على سيف الدين بلقائهم في تلك الحالة ، فقال زلفندار: «ما بنا حاجة الى القتال في هذه الساعة ، وغدا بكرة نأخذهم كلهم» ، فترك القتال الى الغد ، فلما أصبحوا اصططفوا للقتال ، فجعل «زلفندار» الأعلام في وحدة من الأرض ، ليراها الا من هو قريب منه فلما التقى الفريقان ، ظن أكثر الناس ان سيف الدين قد انهزم ، لأنهم لم يروا الأعلام ، فانهزموا بعد ان كان مظفر الدين بن زين الدين - وهو في الميمنة - قد كسر ميسرة الملك الناصر ، وولوا الأدبار ، وأسر منهم جماعة فأطلقهم الملك الناصر ، منهم : فخر الدين عبد المسيح ، وأمسك عن تتبع عسكر ، فلم يقتل غير رجل واحد ، وذلك في يوم الخميس العاشر من شوال ، سنة احدى وسبعين وخمسائة .

ونزل الملك الناصر وعسكره - كره ، في بقية ذلك اليوم في خيم القوم ، واستولوا على جميع ما فيها ، وفرق الاصطبلات والخزائن ، ووهب خيمة سيف الدين عز الدين فروخ شاه ، ووصل سيف الدين الى حلب ، وترك أخاه عز الدين في جماعة من العسكر ، وعبر الفرات ، وسار الى الموصل .

ووصل الملك الناصر الى حلب ، يوم الأحد ثالث عشر شوال ، فأقام عليها أربعة أيام ، ورحل عنها ، يوم الجمعة ثامن

عشر شوال فنزل بزاعا (٢٩٦) فحصرها ، وتسلمها يوم الاثنين العشرين من شوال ، ورحل فنزل منبج ، فحصرها ، في التاسع والعشرين من شوال ، وبها قطب الدين ينال بن حسان ، وكان شديد العداوة للملك الناصر ، وكان قد حنق عليه لذلك ، فملك المدينة ، ونقبت القلعة ، فحصره بها ، ونقبها الذقابون ، وملكها عذوة ، وأخذ كل ما كان فيها ، وأخذ صاحبها أسيرا ، ثم أطلقه ، فسار الى الموصل ، فأقطعه سيف الدين «الركة» .

ورحل الملك الناصر الى «عزان» فنازلها ثالث ذي القعدة وحصرها ونصب عليها المنجنديات .

وجلس يوما في خيمة بعض امرائه ، ويقال له «جاولي» مقدم الاسدية ، فوثب عليه باطني ، فجرحه بسكين في رأسه ، فرد المغفر عنه ، وأمسك الملك الناصر يدي الباطني بيديه ، الا أنه لا يقدر على منعه من الضرب بالكلية ، بل يضرب ضربا ضعيفا ، فبقي الباطني يضربه بالسكين في رقبتيه ، وكان عليه كزاغند (٢٩٧) ، فكانت الضربات تقع في زيقه ، والزرد يمنعه من الوصول . وجاء «سيف الدين يازكج» فأمسك السكين ، فجرحه الباطني ، ولم يطلقها من يده الى ان قتل . وجاء باطنيان آخران فقتلا .

وركب الملك الناصر الى خيمته ، ولازم حصار عزان ، حتى تسلمها بعد قتال شديد ، في بكرة الأربعاء ، ثاني عشر ذي الحجة . ورحل عنها إلى « مرج دابق » .

ثم سار فنزل حلب ، يوم الجمعة ، منتصفاً ذي الحجة ، وحصرها ، وبها جماعة من العسكر ، ومنع أهل البلد الملك الناصر من التقرب الى البلد ، وكانوا يخرجون الى خيم المعسكر فيقاتلوه ، واذا مسك واحد منهم شرحت قدماه ، فيمتنع من المشي ، ولا يكفون عن القتال ، وقام في نصرته السنة والشيعية من الحلبيين ، وأعطى الشيعة «الشرقية» في المسجد الجامع ، فكانوا يجتمعون بها للصلاة .

واتفق ان الحلبيين اجتمعوا تحت القلعة ، شاكين في السلاح ، يستأذنون الملك الصالح في الخروج الى قتال العسكر ، فدخل رسول من الملك الناصر ، يقال له «سعد الدين ابو حامد العجمي الكاتب» ، فصاح عوام الحلبيين: «ما نصلح يا رسول ، رح ، ودع عذك الفضول» . ورجمهم-----وه بالحجارة ، فخرج ، واتبعوه الى قريب من الخيام .

ثم ترددت الرسل بينهم في الصلح بين الملك الصالح ، وسيف الدين صاحب الموصل ، وصاحب الحصن ، وصاحب ماردين ، وبين الملك الناصر ، وتحالفوا ، واستقرت على ان يكونوا كلهم عوناً على النكاث الفادر ، واستقر الصلح ، ورحل الملك الناصر ، في السادس عشر من محرم ، سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة .

ولما تقرر الصلح ، أخرج الملك الصالح الى الملك الناصر اخته بنت نور الدين ، وكانت طفلة صغيرة ، فأكرمها ، وحمل لها شيئاً كثيراً ، وقال لها: «ماتريدين؟» قالت: «أريد قلعة عزاز» - وكانوا قد علموها ذلك - فسلمها إليهم .

ورحل الى بلد «الاسماعيلية» (٢٩٨) ، وحصرهم ، ثم صالحهم بوساطة خاله محمود بن تكش ، وسار بعساكره الى مصر ، وكان في شروط الصلح ان يطلق عز الدين جورديك ، وشمس الدين علي بن الداية ، وأخواه ، سابق الدين ، وبنو الدين ، فسار أولاد الداية الى الملك الناصر ، فأكرمهم ، وأنعم عليهم ، وأما جورديك ، فأقام في خدمة الملك الصالح ، وعلم الجماعة براءته مما ظنوا به .

وعصى غرس الدين قلج في «تل خالد» (٢٩٩) لانه نسب اليه امر أوجب وحشته ، فحصل فيها بماله ، وحصنها ، فخرج اليه سعد الدين كمشتكين بالعسكر ، ومعه «طمان» ، فحصره مدة ، فسير واستشفع بالملك الناصر ، فشفع فيه الى الملك

الناصر ، فقبل الشفاعة وامنه ، فخرج بماله وأهله ، وحاشيته ، ومضى الى منبج ، فنزل بهـا عند «الدويل» ، وكان الملك الناصر قد اقطعه اياها ، وكان ذلك في سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة .

وفي هذه السنة ، أظهر اهل «جبل السماق» الفسق والفجور ، وتسموا بالصفاة ، واختلط الذساء والرجال في مجالس الشرب ، ولا يمتنع احدهم من اخته ولا بنته ، ولبس الذساء ثياب الرجال ، وعلن بعضهم بأن «سنانا» ربه ، فسير الملك الصالح اليهم عسكر حلب ، فهربوا من «الجبل» وتحصنوا في رؤوس الجبال ، فأرسل «سنان» ، وسأل فيهم ، وأذكر حالهم ، وكانوا قد نسبوا ذلك إليه ، وانهم فعلوا ذلك بأمره ، فأشار سعد الدين بقبول شفاعته فيهم ، وعاد العسكر عنهم (٣٠٠) .

وشرع «سنان» في تتبع المقدمين منهم ، فأهلكهم ، وكان في «الباب» منهم جماعة فثار بهم «البنوية» (٣٠١) من اهل ذلك البلد ، وقتلوه من التركمان ، فانهزموا واختبئوا في المغاير ، فنهبوا دورهم ، وعروا نساءهم ، وبخدوا عليهم في المغاير ، وقتلوا من امكنهم قتله .

ثم ان الاسماعيلية قفزوا على الوزير شهاب الدين أبي صالح بن العجمي ، يوم الجمعة رابع شهر ربيع الأول ، من سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة ، وكان السبب في ذلك أن أبا صالح كان يواطئ المجاهد «اللالا» وجمال الدين شاذبخت ، على سعد الدين كمشتكين ، ويحاولون حطه عن مرتبته ، فعلم كمشتكين ذلك ، فكتب كتابا الى «سنان» مقدم الاسماعيلية «بالحصون» ، على لسان الملك الصالح ، يلتمس منه قتل أبي صالح ، واللالا ، وشاذبخت ، وكان قد احضر الكتاب إلى الملك الصالح ، وهو خارج الى الصيد ، وطلب خطه ، وهو أبيض ، لم يكتب فيه شيء أصلا ، وقال له : «المولى خارج ويحتاج ان يكتب كتابا في امر كذا وكذا ، فيكتب المولى علامته» . فكتب ثقة بأن الأمر كما ذكر .

فكتب كمشتكين الى «سنان» بالامر الذي اراده ، وسيره
إليه ، فلم يشك «سنان» في أن الامر وقع من الملك الصالح ، ليستقل
بأموره وملكه ، فندب جماعة لقتل المذكورين ، فوثبوا على شهاب
الدين أبي صالح عندما خرج من باب الجامع
الشرقي (٣٠٢) ، بالقرب من «خانكاه القصر» (٣٠٣) ، وتعلق
بنيل «بغلثاقه» (٣٠٤) ، ليضربه بالسكين ، فرفض اللالا
الفرس ، وخرج من «البغلثاق» ، ففجأ ، وأحاط الناس بالجماعة
الذين قفزوا عليه ، وفيهم اثنان كانا يتربدان الى «ركابدار»
(٣٠٥) اللالا ، فقتل احدهما وصلب ، وصلب الركابدار
ايضا ، وكتب على صدره : «هذا جزاء من يؤوي الملحة».

وأما الآخر ، فصعدوا به الى القلعة ، فضرب ضربا
عنيفا ، وذهب كعبه ، ليقرر على السبب الذي أوجب ووثبهم ، فقال
للملك الصالح : «انت تبعث كتبك الى مولانا سنان بقتل من امرنا
بقتله ، ثم تذكر فعل ذلك؟» فقال: «ما أمرت بشيء» . وكتب إلى
«سنان» يعتب عليه فيما فعل بأبي صالح واللالا ، فقال: «أنا ما
فعلت شيئا الا بأمرك وخطك» . وسير اليه كتابا فيه علامته بقتل
الثلاثة المذكورين ، فعلم أن ذلك كان مكيدة من كمشتكين .

وكان الاسماعيلية قد اجتهدوا في قتل شاذبخت ، فلم يقدرُوا على
الوثوب عليه ، لشدة احتزازه في القلعة ، فعند ذلك وجد اعداء
كمشتكين طريقا للطعن عليه ، وقالوا: «انما اراد قتل هؤلاء ليستقل
بملكك ، ويفعل فيه ما لا يقدر ان يفعله معهم ، وانه قد
استصغرك ، واحتقر امرك».

وكانت حارم لسعد الدين كمشتكين ، أقطعه إياها الملك
الصالح ، حين أخذها من بدر الدين حسن ، فأنهاى الى الملك
الصالح أن سعد الدين يريد أن يسلمها إلى الفرنج ، لأن أصله
فرنجي ، وانه قد قرر معهم ان يبيعها عليهم بمال وافر ، والدليل
على صدق ذلك أنه اطلق البرنس «ارناط» فقطع الطريق

بالكرك ، وسير أمواله من حلب وغيبها ، وكتب اليه رجل من الفرنج
يقال له : الفارس «بدران» بشيء من ذلك ، وبعث بعدة كتب من سعد
الدين الى الفرنج ، تشهد بما أنهاه ، ولعله وضع ذلك كله
عليه ، حتى نالوا غرضهم منه .

فقبض الملك الصالح على سعد الدين ، في التاسع من شهر ربيع
الأول ، من سنة ثلاث وسبعين ، وكان قد جاء يطلب دستورا إلى
حارم ، وطلب تسليمها منه ، فامتنع فحمل اليها تحت
«الدوطة» ، وجيء به إلى تحت قلعتها ، وعذب ، فاستدعى بعض
من يثق اليه من المستدفظين بالقلعة ، وأسر إليهما (٣٠٦) أنهم
لا يسلمونها ، ولو قطع ، ثم قال لهما جهرا ، «بعلامة كذا
وكذا ، سلموا » فصعد الى القلعة ، وأظهر من فيها العصيان
والمقاتلة ، فعذب عذابا شديدا ، وعلق برجليه ، وسقط بالخل ،
والكأس ، والدخان ، وعصر ، وأصحابه يشاهدونه ، ولا يجيبون
إلى التسليم .

وخرج الفرنج من «أنطاكية» ، يطلبون «حارم» ، فتقدم الملك
الصالح بخندق كمشتكين ، فخذق بوتر ، وأصحابه يشاهدونه ولا
يسلمون ، وكسروا يديه وعنقه ، ورموه الى خندق «حارم» ، فحين
علم الفرنج ذلك ساروا الى شيزر .

وبخل الملك الصالح الى حلب ، وخاف العسكر بأرض «عم»
(٣٠٧) «وجاشر» ، حول حارم ، يمنعونها من الفرنج ، ويباكرونها
كل يوم لطلب التسليم ، ومقدم العسكر «طمان بن غازي» - وكان
من أكبر الأمراء .

وعاد الفرنج الى حماة فحاصروها ، ولم يظفروا بطائل ، وطمعوا
في حارم ، لعصيان أصحاب كمشتكين بها ، وظنوا ان الملك الصالح
صبي ، وعسكره قليل ، والملك الناصر بمصر ، فلا ينجدهم الا بعد
ان يأخذوا «حارم» ، فنزلوا عليها ، ومعهم كند كبير من

الفرنجة ، كان قد خرج من البحر الى الساحل ، يقال له كند كبير «فلنط لماني» (٣٠٨) ، ومعهم البرنس ، وابن لاون ، والقومص صاحب طرابلس ، فندم من «بحارم» ، حيث لم يسلموها الى الملك الصالح .

وحصرها الفرنجة ، وضايقوها بالمجانيق والسهل ، فصاح من فيها : «صالح الدين يا منصور! فأحضروا خيمة ، كانوا اخذوها من خيم الملك الناصر في كسرة «الرملة» في هذه السنة (٣٠٩) ، واخبروهم بالكسرة ليضعفوا عزيمتهم ، وعسكر حلب بازائهم من «عم» الى تيزين (٣١٠) .

ودخلت سنة اربع وسبعين: والفرنجة مجدون على قتال «حارم» ، ونقبوا في تل القلعة ، من جهة القبلة نقبا ، ومن جهة الشمال آخر ، فانهد السور على من تحته ، وهو موضع البغلة ، التي جدها السلطان الملك الظاهر - قدس الله روحه .

وامتنع القتال من تلك الناحية ، خوفا من وقوع شيء آخر فأخرج المسلمون رجلا من عندهم الى «طمان» ، يطلب الامان من الملك الصالح والنجدة ، فسير الى الملك الصالح ، واعلمه .

فانتخب الملك الصالح رجلا اجلادا من الحلبيين ، اعطاهم مالا جزيلا ، وقال لهم: «اريد منكم ان تدخلوا قلعة حارم» ، فجاءوا ، والفرنجة محدقون بها ، في الليل ، فسلخوا خيامهم مفرقين ، حتى جاوزوها ، وصاحوا بالتكبير والتهليل ، وصعدوا القلعة ، وصار فيها شوكة من المقاتلة ، بعد ان كان قتل من المسلمين بها رجال عنة ، والمسلمون - اعني عسكر حلب - اذ ذاك حول الفرنجة جرايد ، واذاقاهم «بدير سمعان» ، وهم يتحفظون من يمكنهم اخذه من الفرنجة ويحفظون اطراف البلد .

وسار العسكر عند ذاك الى «بير أطمه» (٣١١) ، وصادفوا

الفرنج في وطاة «أطمة» فحملوا عليهم ، فانهزموا وقتل من
الفرنج ، واسر جماعة ، فدام حصار الفرنج أربعة أشهر ، وأرسل
الملك الصالح اليهم ، وقال : «إن الملك الناصر وأصل الى
الشام ، وربما يسلم من بحارم اليه قلعتها ، ويضحي في
جواركم» ، وبذل لهم مالا بمقدار ما انفقوا مدة حصارهم
لها ، وانتظم الصلح ، ورحلوا .

وخرج الملك الصالح ، فنزل على «حارم» ، فسلمها إليه أصحاب
كمشتكين ، وصفح عن جرمهم ، وولى فيها «سرخك» جمدار
(٣١٢) أبيه نور الدين ، وبخل حلب وطالب نواب كمشتكين
بماله ، واعتقل ابن التنبى وزيره ، فأحضر بعض المال ، وعذب
حتى أحضره ، ثم هرب من الاعتقال .

وفي سنة خمس وسبعين وخمسمائة ، سعى جماعة بالقاضي
محيي الدين أبي حامد بن الشهرزوري ، قاضي حلب وقبحوا فيه
عند جمال الدين شاذبخت ، وأوهموه أنه يميل الى الملك
الصالح ، ووضعوا على لسانه أشعارا نسبوها إليه ، فأوجب ذلك
استيحاشه ، وتوجه الى الموصل ، وعرض القضاء على عمي «أبي
غانم محمد بن هبة الله بن أبي جرانة» فامتنع ، فقلد والذي
القضاء بحلب وأعمالها ، وبقي على قضائها الى ان مات الملك
الصالح وفي دولة عز الدين وعماد الدين ومدة من دولة للسلطان الملك
الناصر .

وقبض الملك الصالح قرية للاسماعيلية تعرف بحجيرا من ضياع
نقرة بني اسد ، فكتب «سنان» الى الملك الصالح كتباً عدة في
اطلاقهم ، فلم يطلقها ، فأرسل جماعة من الرجال معهم النقط
والنار ، فعمدوا الى الدكان التي في رأس «الزجاجين» من الشرق في
القرنة ، فألقوا فيها النار .

فنهض نائب رئيس البلد بمن معه في المربعة ، والجماعة المرتبون

لحراسة الأسواق ، وأخذوا السقائين ليطفئوا الحريق ، فأتى الاسماعيلية من أسطحه الأسواق ، وألقوا النار والنفط في الأسواق ، فاحترق سوق البز الكبير وسوق العطارين ، وسوق مجد الدين ، المعد للبز ، وسوق الخليع ، وسوق الشراشين - وهو الآن يعرف بالكتانيين - وسوق السراجين ، والسوق الذي غربي الجامع ، جميعه ، الى أن انتهى الحريق الى المدرسة الحلاوية (٣١٣) .

واحترق للتجار والسوقية ، من القماش والآلات شيء كثير ، واقتدر كثير منهم بسبب ذلك ، ولم يظفروا من الاسماعيلية بأحد ، وذلك في سنة خمس وسبعين وخمسمائة .

ومات سيف الدين غازي ، صاحب الموصل ، ووليها اخوه عز الدين مسعود ، وذلك في سنة ست وسبعين وخمسمائة .

وكان الملك الصالح في هاتين السنتين رخي البال ، مستقرا في مملكته ، سالكا في الاحسان الى اهل حلب طريق أبيه عفيف اليد والفرج واللسان ، فقدر الله تعالى أن حضر أجله ، وله نحو من تسع عشرة سنة ، (٣١٤) فمرض بالقولنج ، واشتد مرضه .

فدخل اليه طبيب به «ابن سكرة اليهودي» ، وقال له سرا : «يا مولانا شفاؤك في الخمر ، فإن رأيت أن تأنن لي في حملي في كمي ، بحيث لا يطلع اللالا ، ولا شاذبخت ، ولا أحد من خلق الله علي ذلك » ، فقال : «يا حكيم ، كنت والله أظنك عاقلا ، ونبينا صلى الله عليه وسلم - يقول : إن الله لم يجعل شفاء امتي فيما حرم عليها . (٣١٥) وما يؤمنني أن أموت عقيب شربها - فألقى الله ، والخمر في بطني ، والله لو قال لي ملك من الملائكة : إن شفاؤك في الخمر لم استعملته .» .

حكى لي ذلك والذي عن ابن سكرة الطبيب .

ولم أيس من نفسه أحضر الأمراء والمستحفظين ، وأوصاهم

بتسليم البلد الى ابن عمه عز الدين مسعود بن مسعود بن زكي ، واستدأفهم على ذاك ، فقال له بعضهم: «إن عماد الدين ابن عمك ايضا ، وهو زوج اختك ، وكان والدك يحبه ويؤثره ، وهو تولى تربيته ، وليس له غير سنجار ، فلو أعطيته البلد لكان أصلح ، وعز الدين له من البلاد من الفرات الى همذان ، ولا حاجة له الى بلدك » ، فقال له: «إن هذا لم يغب عني ، ولكن قد علمتم ان صلاح الدين ، قد تغلب على البلاد الشامية ، سوى ما بيدي ، ومتى سلمت حلب الى عماد الدين يعجز عن حفظها ، وإن ملكها صلاح الدين لم يبق لاهلنا معه مقام ، وإن سلمتها الى عز الدين أمكنه حفظها بكثرة عساكره وبلائه » . فاستحسنوا هذا القول منه ، وعجبوا من حسن رأيه مع شدة مرضه ، وصغر سنه .

ثم مات يوم الجمعة خامس وعشرين شهر رجب ، من سنة سبع وسبعين وخمسائة ، ودفن بقلعة حلب ، الى أن ابتنت والدته «الخانكاه» تجاه القلعة ، ونقل اليها في أيام ، فسير الامراء (٣١٦) . جورديك ، والبصيري ، ويزغش ، وجمال الدين شاذبخت ، النوريون ، مع جماعة المماليك النورية ، الى «عز الدين» ، يستدعونه ، وجددوا الايمان فيما بينهم له .

وأما علم الدين سليمان بن جندر ، وحسام الدين طمان بن غازي ، وأهل الحاضر ، فانهم راسلوا «عماد الدين» صاحب سنجار ، وكتبوا أمرهم ، و«شاذبخت» هو والي يالقلعة ، والحافظ لخزانقتها ، والمدير للأمور مع «النورية» ، فسير الى علم الدين سليمان ، وحسام الدين طمان ، وطلب منهما الموافقة في اليمين لعز الدين ، فمأطلا ، ودافعا ، فلما تأخر وصول «عماد الدين» عليهما ، وافقا على اليمين لعز الدين .

ولما وصل رسول الأمير الى عز الدين ، سار هو ومجد الدين قايماز الى الفرات ، فنزل على «البيرة» ، ووصل شهاب الدين - أخو عماد الدين - مختفيا ، واجتمع بطمان وابن

جنذر ، وأعلمهما ان «عماد الدين» في بعض الطريق ، فأخبروه بأخذ
اليمين عليهم ، وأن تربصه بالحركة احوجهم الى ذلك ، فعاد اليه
أخوه وعرفه ، فعاد الى بلاده .

وأما «عز الدين» ، فحين وصل الى «البيرة» أرسل الى الامراء
الدين بحلب ، واسـتـدعاهم اليه . فـخـرجوا والتقوا به
«بالبيرة» ، وساروا معه الى حلب ، وبـخـلها في العشرين من
شعبان ، واستقبله مقدموها ورؤساؤها ، وصعد الى القلعة .

وكان «تقي الدين عمـر» - ابن أخـي الملك
الناصر - بمنـبـج ، فعـزم على ان يـحـول بين «عز الدين»
وحلب ، حين وصل الى «البيرة» لأنه وصل جريـدة ، وتـخـاف عنهم
الغلمان والحشد ، ثم انه ثقـال هو وأصحابه عن ذلك .

ولما وصل «عز الدين» الى حلب ، سار تقي الدين من منبج الى
حماة ، وثار اهل حماة ، ونادوا بشعار «عز الدين» ، فأشار عسكر
حلب على عز الدين بقصدها ، وقصد دمشق ، وأطمعوه فيها وفي
غيرها من الشام ، وأعلموه محبة اهل الشام لاهل بيته .

وكان «الملك الناصر» بالنيار المصرية ، فلم يفعل ، وقال : «بيننا
يمين ، ولا نغدر به» ، ولما بلغ «الملك الناصر» اخذ عز الدين حلب
قال : «خرجت حلب عن أيدينا ، ولم يبق لنا فيها طمع» .

وأقام عز الدين بحلب ، فسير إليه أخوه «عماد الدين زنكي بن
مـودود» ، وقال : «كيف تختص انت ببـلاد عمـي وابنه
وبأمواله ، دوني ، وهذا أمر لا صبر لي عنه» وطلب منه تسليم حلب
إليه ، وأن يأخذ منه «سنجار» عوضا عنها .

فامتنع «عز الدين» ، ولم يجبه الى ما أراد ، فأرسل اليه وهدده
بأن يسلم «سنجار» الى «الملك الناصر» فيضايق الموصل بها ،
فأشار عليه طائفة من الامراء ، بأخذ «سنجار» منها واعطائه

حلب ، وكا أشد الناس في ذلك «مجاهد الدين» ، وهو الذي كان يتولى تدبيره ، وكان أمراء حلب لا يلتفتون الى «مجاهد الدين» ، ولا يسلكون معه ما يسلكه عسكر الموصل ، فلذلك ميل «عز الدين» الى ذلك .

وشرع «عز الدين» في الميل الى الأمراء ، الذين حلفوا له أولا ، والاعراض عن الذين مالوا الى اخيه «عماد الدين» ، وأحسن الى اهل حلب ، وخلق عليهم ، وأجراهم على عادتهم في أيام عمه «نور الدين» ، وابنه «الملك الصالح» ، وأبقى قضايتها والدي ، وخطيبها عمي ، ورئيسها «صفي الدين طارق بن الطريرة» على ولاياتهم ، وولى بقلعة حلب «شهاب الدين اسحق بن أميرك» الجاندار (٣١٨) صاحب الرقة ، وأبقى «شهاب» «شاذبخت» في القلعة ناظرا معه ، وولى مدينة حلب والديوان مظفر الدين بن زين الدين .

وكان الصلح قد اندفسخ ، بموت الملك الصالح ، بين الفرنج والمسلمين ، وكانت «شيخ الحديد» (٣١٩) مناصفة بين المسلمين والفرنج ، فأضافها عسكر حلب ، قبل وصول عز الدين الى «الدربساك» (٣٢٠) ، واختصوا بها دون الفرنج ، وحضر اهلها الى طمان ، فأعطاهم الأمان .

فلما وصل «عز الدين» سير العساكر الى ناحية «حارم» ، وحاولوا نهب «العمق» ، فانحاز اهل كله الى «شيخ» لعلمهم بأن «طمانا» آمنهم ، فأراد عساكر الموصل ان ينهبوها ، فقال لهم: «ان شيخ لحلب ، وانهم في امانى» . فلم يلتفتوا الى قوله ، وسار واليهما ليلا ، فسبّحهم الى «المخاض» ، ووقف في وجوههم يردهم ، فقتل منهم جماعة ، ثم تكاثروا وعبروا ، فسبّحهم طمان الى «شيخ» ، وأمرهم ان يجعلوا النساء في المغاير ودربها .

فوصل عسكر الموصل ، فرأوا ذلك ، فعسزموا على القتال ، فصاح طمان: «إذا كنتم تخفرون ذمتي ، فأنا أرحل الى الفرنج» . وسار في اصحابه الى ان قرب من «يغرا» ، فوصله من اخبره بأنهم عادوا عنها ، ولم ينالوا منها طائلا ، وخافوا من ملامة عز الدين ، فعاد «طمان» ، ونزل كل منهم في خيامه «بحارم» .

وكاتب المواصلة «عز الدين» يطعنون على «طمان» ، وأنه وافق اهل «شيخ» في العصيان ، وأراد اللحاق بالفرنج ، فأحضر «طمان» والمواصلة ، وتقابلوا بين يديه ، فقال عز الدين : «الحق مع حسام الدين ، ولا يجوز نقض العهد لواحد من المسلمين» . وكان ذلك في شهر رمضان من السنة .

وبقيت المواجهة بين امراء حلب والمواصلة ، والحلييون لا يرون التغاضي لمجاهد الدين ومجاهد الدين يحاول ان يكونوا معه كأمرء الموصل ، والأمراء الحلييون يمدون عليه ، بأنهم اختاروه لهذا الامر ، ويطلبون منه الزيانة ، ويخلق المواصلة عليهم الاكائب .

فهرب الأمير علم الدين سليمان بن جندر ، قاصدا «الملك الناصر» الى مصر ، فقالوا لعز الدين: «ان طمانا سيهرب بعده ، فأمر عز الدين مظفر الدين بن زين الدين ، وبني الغراف ، والجراحي وغيرهم ان يمدوا من «السعدي» الى «المباركة» في طريقه ، وان يقف جماعة حول دار «طمان» - وكان يسكن خارج المدينة - فلما لم يجر من «طمان» شيء من ذلك ، جاؤوا إليه نصصف الليل ، وطلبوه ، فخرج اليهم ، فوجد ابن زين الدين وبني الغراف ، فسألهم عما يريدون ، فقالوا: «انه انهي الى عز الدين بأنك تريد الهرب ، وقد أمرنا بأن نعوقك» فقال: «والله ما لهذا صحة ، ولو اردت المسير عن حلب لمضيت ، لا على وجه الخفية ، ولا أخاف من أحد» .

فجعلوا لهم طريقا آخر الى نيل غرضهم ، وأصبحوا ، وعز الدين منتظر ما يكون ، فقالوا له: «كان قد عزم على الهرب ، فلما علم أن الطريق قد أخذ عليه ، وأن الدار قد أحيط بها آخر ذلك الى وقت ينتهز فيه الفرصة ، والمصلحة قبضة قبل هربه». فأمرهم بأن يقبضوه محترما ، ويحضروه اليه .

فجاءوه ليلا ، من أعلى الدار وأسفلها ، وأزعجوه ، وكان نائما ، فخرج الى الباب ، فوجد مظفر الدين بن زين الدين مع بني الغراف فقالوا: «إن المولى عز الدين قد أمرنا بالقبض عليك». فقال لهم : «السمع والطاعة ، فشأكم ومما أمـرتـم به» ، فاركبوه ، وحملوه ، والرجال محيطة به ، وفتحوا بالليل باب القلعة ، واعتقلوه بها غير مضيق عليه .

وأحضره «عز الدين» ، وودسه ، وقال: لم أفعل ما فعلت إلا لشدة رغبتى فيك ، وافتقاري الى مثلك » ، فعرفه ما ينطوي عليه ، وإن ما نقل عنه لم يخطر بباله . فقال: «إن وقية اعدائك فيك ، لم تزدك عندي الا حظوة ».

وبقي معتقلا في القلعة اسبوعا ، ثم خلع عليه ، وأطلقه وزاد في اقطاعه «الاختارين» (٣٢٠) .

وأقام «عز الدين» حتى انقضت مدة الشتاء ، ثم تزوج ام الملك الصالح ، في خامس شوال من السنة ، ثم سـيـرها الى الموصل ، واستولى على جميع الخزائن التي كانت لذور الدين وولده بقلعة حلب ، ومما كان فيها مـا مـن السلاح ، والزرد ، والقسي ، والخـوذ ، والبـركستـوانات (٣٢١) ، والنشاب ، والآلات ، ولم يترك فيها إلا شيئا يسيرا من السلاح العتيق ، وسير ذلك كله إلى «الركة».

وترك في قلعة حلب ولده نور الدين محمودا طفلا صغيرا ، ورد

أمره الى الوالي بالقلعة : شهاب الدين اسحق ، وسلم البلد والعسكر الى مظفر الدين بن زين الدين ، وسار الى الرقة ، سادس عشر شوال ، فأقام بها فصل الربيع .

وراسل اخاه «عماد الدين» ، في المقايسة «بسنجار» ، ليتوفر على حفظ بلاده ، ويضم بعضها الى بعض ، ولعلمه انه يحتاج الى الإقامة بالشام ، لتعلق اطماع «الملك الناصر» بحلب ، وقدم عليه أخوه . واستقرت المقيضة على ذلك ، وتحالفا على ان تكون حلب وأعمالها لعماد الدين و«سنجار» وأعمالها لعز الدين ، وأن كل واحد منهما ينجد صاحبه ، وأن يكون «طمان» مع عماد الدين ، فسير «طمان» ، وصعد الى قلعة حلب ، وكان معهم علامة من عز الدين ، فتسلمها ، وسير عز الدين من تسلم سنجار .

وفي حال طلوع «طمان» ، ونقل الوالي متاعه ، طمع «مظفر الدين بن زين الدين» بأن يملك القلعة ، ووافق جماعة من الحلبيين كاندوا بقربه ، في الدار المعروفة بشمس الدين علي بن الداية وجماعة من الأجناد ، ولبس هو زربية ، تحت قبائه ، وألبس جماعة من اصحابه الزرد تحت الثياب ، ومع كل واحد منهم سيف ، وأرسل الى شهاب الدين ، وقال له: إنه وصلني كتاب من اتسابك عز الدين ، وأمرني أن أطلع في جماعة اليك ، فأمره بالصعود .

وكان «جمال الدين شاذبخت» ، في حوش القلعة الشرقي ، الذي هدمه الملك العادل - وكان بين الجسرين اللذين جديهما السلطان الملك الظاهر - رحمه الله - وعمل مكان ذلك الحوش بغلة (٣٢٢) - فرأى الجند مجتمعين تحت القلعة ، فسير «شاذبخت» ، وأحضر بوابا كان للقلعة ، يقال له «علي بن منيعة» وكان جلدا يقظا ، وأمره بالاحتراز .

فلما ان أراد أن يدخل من باب القلعة ، تقدم إليه ، وقال له: «لا تدخل إلا أنت وحدك» . وكان في ركابه جماعة فمنعوههم ، فلم يتم له ما أراد .

وعاد ابن زين الدين الى داره ، وقيل إن ابن مقبــــــــــــل
الاسبسلار ، قال له: «أنت تصعد الى القلعة ، فما هذا الزرد
عليك؟» فعاد ، وجعل يعتذر عما شاع في الناس من فعله .

وكتب شهاب الدين الوالي وجمال الدين شاذبخت الى عز الدين
كتابا بخط «حسين بن يلدك» ، إمام «المقام» . وأخذ تحته خطوط
الاجناد ، والنقيب والاسباسلار ، فلم يمكن «عز الدين» مكاشفته في
ذلك ، لقرب «الملك الناصر» من البلاد .

وبعث «مظفر الدين» الى «عز الدين» يعتذر ، ويقول: «إن
الاسماعيلية أوعدونى القتل ، وما أمكنني الا الاحتزار
بالسلاح ، أنا ومن معي ، وأنكر الحفظة بالقلعة ذلك علي ، ولم يكن
ذلك لأمر غير ما ذكرته» . فلم يقابله على ذلك .

وأما «طمان» ، فإنه قبض على الجماعة الذين كانوا
معه ، وحبسهم في القلعة ، واطلع على ماكانوا اضمروه ، وأطلقهم
في اليوم الثاني ، وستر هذا الأمر .

ثم وصل قطب الدين ابن عماد الدين الى حلب ، ثم ورد أبوه
«عماد الدين» ، فوصل بأهله ، وماله ، وأجناده ، وزوجته بنت نور
الدين ، ووصل على البرية من جهة «الأحص» (٣٢٣) والتقاء
الأكابر من الحلبيين ، وصعد الى قلعة حلب ، في ثلاث عشر
المحرم ، من سنة ثمان وسبعين وخمسمائة ، وقيل في مستهله .

وولى القلعة «عبد الصمد بن الحسن الحــــــــــــكــــــــــــاك
الموصلى» ، والعسكر ، والخزائن ، والنظر في احوال القلعة الى
مجاهد الدين بــــــــــــزغش ، وأنزل «شــــــــــــاذبخت» مــــــــــــن
القلعة ، والقضاء ، والخطابة ، والرئاسة ، على ما كان عليه ، في
أيام أخيه وابن عمه .

وولى الوزارة «بهاء الدين أبا الفتح نصر بن محمد بن

القيسراني ، أخا «مـ» وفق الدين خـ «ـالد» - وزير نور الدين - واستمر الشيعة في أيامه ، وأيام أخيه ، على قاعدتهم ، التي أقرهم عليها «الملك الصالح» ، من إقامة شعارهم بالشرقية ، بالمسجد الجامع .

وأبقي «سرخك» في حارم على ما كان عليه . وحكم «شاذبخت» في عزاز وقلعتها - وهو وكيل عن ابنة نور الدين التي أطلقها الملك الناصر لها - وصالح الفرنج .

وجرى في الاحسان الى اهل حلب ، على قاعدة عمه وابن عمه وأخيه ، ولما بلغ الملك الناصر حديث حلب وأخذ عماد الدين إياها ، قال : «أخذنا والله حلب» ، فقليل له : «كيف قلت في عز الدين لما أخذها : خرجت حلب عن أيدينا ، وقلت : حين أخذها عماد الدين : أخذنا حلب؟» فقال : «لأن عز الدين ملك صاحب رجال ومال ، وعماد الدين ، لا مال ولا رجال» !

وخرج «الملك الناصر» ، من مصر في خامس المحرم من هذه السنة ، وخرج الناس يودعونه ، ويسيرون معه ويتأسفون على فراقه ، وكان معه معلم لبعض أولاده ، فالتفت الى بعض الحاضرين ، وأنشد :

تمتّع من شميم عرار «نجد»
فما بعد العشية من عرار

فانقبض السلطان ، وتطير ، فقدر انه لم يعد الى مصر ، الى أن مات ، مع طول مدته ، واتساع ملكه في غيرها .

وسار على «أيلة» وأغار على بلاد الفرنج في طريقه ، ووصل دمشق في صفر ، ثم خرج منها الى ناحية «الغور» ، فأغار على ناحية «طبرية» و«بيسان» ، وعاد الى دمشق ، ثم خرج الى «بيروت» ، ونازلها ، واجتمع الفرنج فدخلوها ، فدخل الى

دمشق ، وبلغه ان المواصلة كاتبوا الفرنج على قتاله ، فجعل ذلك حجة عليهم .

وسار حتى نزل على حلب ، في ثامن عشر من جمادى الاولى ، سنة ثمانى وسبعين وخمسمائة . ونزل على «عين أشمونيث» (٣٢٤) ، وامتد عسكريه حولها شرقا ، وأقام ثلاثة أيام ، فقال له عماد الدين : «امض الى سنجار ، وخذها وادفعها إلي ، وأنا اعطيك حلب» .

وكان «عماد الدين» قد ندم على مقبضه أخيه بحلب وسنجار ، حيث وصل ووجد خزائنها صفرا من المال ، وقلعتها خالية من العدد وال سلاح والآلات ، وأنه يجاور مثل «الملك الناصر» فيها .

فعند ذلك سار «الملك الناصر» الى جسر «البيرة» ، وكان صاحبها «شهاب الدين بن أرتق» قد صار في طاعته ، فعبر اليه مظفر الدين ابن زين الدين الى الناحية الشامية ، وحران إذ ذاك في يده ، كان أقطعه اياها عز الدين صاحب الموصل ، وحصلت بينه وبينه وحشة من الوقت الذي عزم فيه على أخذ قلعة حلب ، فكانت رساله تتردد الى «الملك الناصر» تطمعه في البلاد ، وتحثه على الوصول .

وعاد ابن زين الدين معه حتى عبر الفرات في جسر «البيرة» ، وكان «عز الدين» قد وصل بعساكر الموصل الى «دارا» (٣٢٥) ليمنع «الملك الناصر» من حلب ، فلما عبر الفرات عاد الى الموصل ، وعبر «الملك الناصر» ، فأخذ «الرها» من ابن الزعفراني ، وسلمها الى ابن زين الدين ، وأخذ الرقة من ابن حسان ، ودفعها الى ابن الزعفراني ، وكاتب ملوك الشرق ، فأطاعوه ، وقصد «نصيبين» فأخذها .

وسار الى الموصل ، وفيها عسكري قوي ، فقتل قتالا شديدا ، ولم يظفر منها بطائل ، فرحل عنها الى «سنجار» فأنفذ

«مجاهد الدين» اليها عسكرا ، فمنعه «الملك الناصر» من الوصول ، وحاصر «سنجار» ، فسلمها اليه امير ذلك الناحية ، وصارت «الباشورة» (٣٢٦) معه ، فضعت نفس واليها «أمير أميران» أخي عز الدين ، فسلمها بالآمان ، في ثاني شهر رمضان من السنة ، وقرر «الملك الناصر» أمورها ، وعاد الى حران .

ولما قصد «الملك الناصر» البلاد الشرقية ، رأى عماد الدين ان يخرب المعقل المطيفة بببلد حلب ، فشن الغارات على شاطئ الفرات ، وهدم حصن بالس ، وحصر قلعة نادر (٣٢٧) ففتحها ، ثم هدمها بعد ذلك ، وأغار على قرى الشط ، فأخربها واستاق مواشيها ، وأحرق جسر «قلعة نجم» (٣٢٩) ، وعبر الفرات فأغار على «سروج» (٣٣٤)

ثم عاد الى حلب ، ثم خرج وهدم «حصن الكرزين» (٣٣١) وخرب حصن «بزاغا» وقلعة «عزان» ، في جمادى الآخرة ، وخرب حصن «كفرلاثا» (٣٣٢) بعد اخذه من صاحبه بكمش ، وكان قد استأمن الى «الملك الناصر» ، وضاق الحال عليه ، فشرع في قطع جامكية اجناد من القلعة ، وقتر على نفسه في الذفقات .

وأما «الملك الناصر» ، فرحل من «حران» فنزل «بحرزم» (٣٣٣) تحت قلة «ماردين» . فلم ير له فيها طمعا ، فسار الى «أمد» ، في ذي الحجة ، وكان قد وعد «نور الدين محمد بن قرا أرسلان» بأخذها من ابن نيسان (٣٣٤) ، وتسليمها اليه ، وحلف له على ذلك ، فتسلمها في العشر الأول ، من المحرم من سنة تسع وسبعين وخمسمائة ، وكان فيها من المال شيء عظيم ، فسلم ذلك كله مع البلد الى نور الدين ، وقيل له في أخذ الأموال وتسليم البلد فقال : «ماكنت لاعطيه الاصل وابخل بالفرع» .

ثم إن الملك الناصر عبر الى الشام ، فمر «بتل خالد»

فحصها ، فسلمها أهلها بالأمان في الحرم . ثم سار منها الى عين
 قاتب ، وبها «ناصر الدين محمد» أخو «الشيخ اسماعيل
 الخزندار» ، فدخل في طاعته ، فأبقاها عليه .

ولما علم «عماد الدين» ذلك ، وتحقق قصصه لحلب ، أخذ رهائن
الحلبيين ، وأصعد جماعة من أولادهم وأقاربهم ، خوفا من تسليم
البلد ، وقسم الأبراج والأبواب على جماعة من الأمراء ، وكان
الأمراء «الياروقية» بها في شوكتهم .

وجاء الملك الناصر ، ونزل على حلب في السادس والعشرين من محرم سنة تسع وسبعين وخمسمائة . وامتد عسكره من «بابلى» الى النهر ممتدا الى «باسلين» (٣٣٥) ، ونزل هو على «الخاناقية» (٣٣٦) ، وقاتل عسكر حلب قتالا عظيما ، في ذلك اليوم ، وأسر «حسام الدين محمود بن الختلو» ، بالقرب من «باندقوسا» (٣٣٧) ، وهو الذي تولى شحنة حلب ، فيما بعد .

وهجم تاج الملوک بوري بن أيوب ، أخو «الملك الناصر» ، على
عسکر حلب ، فحضر بذي شهاب زنبورك (٣٣٨) فأصاب ركبته ، فوقع
في الأكلد ، فبقي أياما ، ومات بعد فتح حلب ، ودفن بترية «شهاب
الدين الحارمي» ، «بالمقام» (٣٣٩) ، ثم نقل الى دمشق .

وجد الملك الناصر ، بسبب أخيه على محاصرة حلب أياما ، فاجتمع إليه (٣٤٠) الاجناد من العسكر والرجال ، وطلبوا منه قرارهم فمطلهم ، فقالوا : « قد ذهب اخبارنا (٣٤١) ونحتاج لفسلاء الاسوار الى مـــــــــــــار الا بـــــــــــــــد منه ، وشح بماله ، فقال لهم : « أنتم تعلمون حالي ، وقلة مالي ، وأنني تسلمت حلب صافرا من الاموال ، وضياعها في اقطاعكم . فقال له بعضهم : « من يريد حلب يحتاج الى ان يخرج الاموال ولو باع حلي نسائه » فأحضر أواني من الذهب والفضة ، وغيرها ؛ وباع ذلك ، وأنفقه فيهم .

وكان الحلبيون يخرجون على جاري عادتهم ، ويقاقلون أشد قتال بغير جامكية (٣٤٢) ، ولا قرار ، نخوة على البلد ، ومحبة لملكهم ، فأفكر عماد الدين ، ورأى أنه لا قبل له بالملك الناصر ، وأن ماله ينفد ، ولا يفيد شيئا ، فخلا ليلة بطمان ، وقال له :

« ما عندك في أمرنا؟ هذا الملك الناصر ، قد نزل محاصرا لنا ، وهو ملك قوي ، ذو مال ، والظاهر أنه يطيل الحصار ، وتعلم انني اخذت حلب خالية من الخزائن ، والجند فيطالبونني وليس لي من المال ما يكفيني لمصابرته ، ولا أدري عاقبة هذا الأمر الى ما ينتهي

فأحس طمان عند ذلك بما قد حصل في نفسه ، فقال له : «أنا اذكر لك ما عندي ، على شريطة الكتمان والاحتياط بالمواثيق والایمان ، على أن لا يطلع احد على ما يدور بيننا ، فإن هؤلاء الامراء ان اطلعوا على شيء مما نحن فيه افسدوه ، وانعكس الغرض» ، فتحالفا على كتمان ذلك ، فقال له طمان : «أرى من الرأي في حلب ان تسلمها الى الملك الناصر ، بجاهها ، وحرمتها ، قبل أن تنتهك حرمتها ، ويضعف امرها ، وتنفى الاموال ، وتضجر الرجال ، ويستغل بلدها فيتقوى هو وعسكره به ، ونحن لا نزيد الا ضعفا ، والآن فنحن عندنا قوة ، ونأخذ منه ما نريد من الاموال والبلاد ، ونستريح من الأجناد والحاحم في الطلب ، ثم قد اصبح ملكا عظيما ، وهو صاحب مصر ، وأكثر الشام ، وملوك الشرق قد اطاعوه ومعظم الجزيرة في يده . فقال له : «والله هذا الذي قلته كله رأيي ، وهو الذي وقع لي فاخرج إليه ، وتحدث معه على ان يعطيني : الخابور ، وسنجار ، وأي شيء قدرت على ان تزداده فافعل ، واطلب الرقة لذفسك

ثم ان طمان كتم ذلك الأمر ، وباكر القتال ، وأظهر أن بداره واصطبله (بالحاضر) خشبا عظيما ، وأنه يريد نقضها كيلا يحرقها العسكر ، فكان يبني كل ليلة في داره ، خارج المدينة .

ويجتمع بالسلطان الملك الناصر ، خاليا ، ويرتّب معه ، ويجيء الى عماد الدين ويقرر الحال معه ، وينزل ، ويصعد الى القلعة من «برج المذشار» - وكان عند باب الجبل الآن متصلا بالمذشار - الى أن قرر مع الملك الناصر : أن يأخذ حلب وعملها ، ولا يأخذ معها شيئا من أموالها ، ونخائرها ، وجميع ما فيها من الآلات والسلاح ، وأن يعطي عماد الدين عوضا عنها : سنجار ، والخابور ونصيبين ، وسروج ، وأن يكون لطمان الرقة (٣٤٣) ، ويكون مع عماد الدين .

وشرط عليه أن تكون الخطابة والقضاء للحنفية (٣٤٤) بحلب ، في بني العنيم ، على ما هي عليه ، كما كان في دولة الملك الصالح ، وأن لا ينقل الى الشافعية .

هذا كله يتقرر ، والقِتال في كل يوم بين العسكرين على حاله ، وليس عند الطائفتين علم بما يجري ، ويخرج من الحلبيين في كل يوم عشرة آلاف مقاتل أو أكثر ، يقاتلون أشد قتال .

ولم يعلم أحد من الأمراء ولا من أهل البلد ، حتى صعدت أعلام «الملك الناصر» على القلعة ، بعد أن توذّق كل واحد من المالكين من صاحبه بالايمان ، فأسقط في أيدي أهل حلب والأمراء من «الياروقية» ، وغيرهم ، وخُصاف «الياروقية» على أخبازهم ، والحلبيون على أنفسهم ، لما تكرّر منهم من قتال «الملك الناصر» ، مرة بعد أخرى ، في أيام الملك الصالح .

وصرح العوام بسبه ، وحمل رجل من الحلبيين يقال له «سيف بن المؤنن» إجان الغسال ، وصار بها الى تحت الطيارة (٣٤٥) ، بالقلعة ، وعماد الدين جالس بها يشير اليه أن يغسل فيها كالمخانيث ، ونادى اليه : «يا عماد الدين ، نحن كنا نقاتل بلا جامكية ولا جرية ، فما حملك على أن فعلت ما فعلت؟»

وقيل: إن بعضهم رماه بالذشاب ، فوقع في وسط

الطيارة ، وعمـل عوام حلب اشـهارا عامية ، كانوا يغنون
بها ، ويدقون على طبيلاتهم بها ، منها :

أحباب قلبي لا تلوموني
هذا «عماد الدين» مجنون
قايض بسنجار لقلعة حلب
وزانه المولى نصيبين
ودق آخر على طبله ، وقال مشيرا الى «عماد الدين» :
وبعت «بسنجار» قلعة حلب
عدمتك من بايع مشتري
خریت على حلب خرية
نسخت بها خرية «الاشعري» (٣٤٦)

وصعد اليه «صفي الدين» - رئيس البلد - ووبخه على ما
فعل ، وهو في قلعة حلب لم يخرج منها بعد ، فقال له عماد الدين :
فما مات ، فاستهزا به (٣٤٧) .

وأذفد عسكر حلب وأهلها ، الى السلطان الملك الناصر : عز
الدين جورديك ، وزير الدين بك ، فاستحافوه للعسكر ولأهل
البلد ، في سابع عشر صفر ، من سنة تسع وسبعين وخمسمائة .

وخرجت العساكر ومقدمو حلب اليه الى «الميدان الأخضر» (٣٤٨)
وخلع عليهم ، وطيب قلوبهم .

ولما استقر أمر الصلح ، حضر الملك الناصر صلاح الدين عند
أخيه تاج الملوك ، «بالخناقية» يعوده وقال له : «هذه حلب ، قد
أخذناها ، وهي لك» فقال : «لو كان وأنا حي ، والله ، لقد أخذتها
غالية حيث تفقد مثلي» . فبكى الملك الناصر والحاضرون .

وأقام «عماد الدين» بالقلعة ، يقضي أشغاله ، وينقل
أقمشته ، وخزائنه ، والسلطان الملك الناصر مقيم «بالميدان

الاخضر » ، الى يوم الخميس ثالث وعشرين من صفر ، فنزل «عماد الدين» من القلعة ورتب فيها «طمان» مقيما بها ، الى ان يتسلم نواب «عماد الدين» ما اعتاض به عن حلب ، واستنابه في بيع جميع ما كان في قلعة حلب ، حتى باع الاغلاق والخوابي ، واشترى الملك الناصر منها شيئا كثيرا .

ونزل عماد الدين ، في ذلك اليوم الى السلطان الملك الناصر وعمل له السلطان وليمة واحتفل وقدم «لعماد الدين» اشياء فاخرة من الخيل والعدد ، والمتاع الفاخر ، وهم في ذلك إذ جاءه بعض أصحابه وأسر اليه بموت أخيه «تاج الملوك» ، فلم يظهر جزعا ولا هلعا ، وكتم ذلك عن عماد الدين ، الى ان انقضى المجلس ، وأمرهم بتجهيزه .

فلما انقضى أمر الدعوة ، وعلم عماد الدين بعد ذلك عزاه عن أخيه ، وسار السلطان الملك الناصر معه مشيعا في ذلك اليوم ، فسار حتى نزل «مرج قرا حصار» (٣٤٩) فنزل به ، والسلطان في خيمته الى ان وصل «عماد الدين» رسل أصحابه يخبرونه بأنهم تسلموا «سنجار» ، والمواضع التي تقرررت له معها ، فرفعت اعلام الملك الناصر ، عند ذلك على القلعة ، وصعد اليها في يوم الاثنين السابع والعشرين ، من صفر ، من سنة تسع وسبعين وخمسمائة .

وامتنع سرخك ، والي «حارم» ، من تسليمها الى السلطان الملك الناصر ، فبذل له ما يحب من الاقطاع ، فاشتط في الطلب ، وراسل الفرنج ، ليستنجد بهم ، فسمع بعض الأجناد ، بقلعة حارم ذلك ، فخافوا ان يسلموها الى الفرنج ، فوثبوا عليه ، وحبسوه ، وأرسلوا الى السلطان ، يعلمونه بذلك ، ويطلبون منه الأمان والانعام ، فأجابهم الى ذلك وتسلمها .

وأقر عين تاب بيد صاحبها ، وسلم «تل خالد» الى «بدر الدين» و«بدر» صاحب «تل باشر» ، وكان من كبار الياوقية ، وأقطع

«عزاز» الأمير علم الدين سليمان بن جندر . وولى الملك الناصر قلعة حلب سيف الدين يازكج الاسدي ، وولى شحنة حلب حسام الدين تميرك بن يوندس ، وولى ديوان حلب ناصح الدين بـن العميد دمشقي ، وأبقى الرئيس «صفي الدين طارق بن أبي غانم بن الطريرة» ، في منصبه على حاله ، وزاد اقطاعه .

وكان الفقيه «عيسى» كثير التعصب ، فما زال به ، حتى نقل الخطابة عن الحنفية الى الشافعية ، وعزل عنها عمي «أبو المعالي» . وولياها «أبو البركات سعيد بن هاشم» ، وفعل في القضاء كذلك ، فسير إلى القاضي محي الدين محمد بن زكي الدين علي إلى دمشق ، بسفارة «القاضي الفاضل» ، فأحضر إلى حلب وولى قضاءها ، وعزل «والدي» عن القضاء ، وامتنحه محيي الدين بن الزكي ، بقصيدة بائية ، قال فيها :

وفتحكم «حلبا» بالسيف في صفر
مبشر بفتوح «القدس» في رجب

فاتفق من أحسن الاتفاقات ، وأعجبها ، فتح القدس في شهر رجب من سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة .

وأقام محيي الدين في القضاء بحلب مدة ، ثم استناب القاضي زين الدين أبا البيان نبأ بن البانياسي في قضاء حلب ، وسار الى بلده دمشق .

ثم إن السلطان «الملك الناصر» أقام بحلب ، ورحل منها في الثاني والعشرين من ربيع الآخر ، من سنة تسع وسبعين وخمسمائة . وجعل فيها ولده الملك «الظاهر غازي» - وكان صبيا - وجعل تدبير أمره الى سيف الدين يازكج .

وسار الى دمشق ، ثم خرج الى الغزاة في جمادى الآخرة ، وسار الى «بيسان» ، وقد هرب أهلها ، فخربها ، وجرد

قطعة من العسكر ، فخرّبوا «الناصر» والفولة» (٣٥٠) ، وما حولهما من الضياع .

وجاء الفرنج فنزلوا «عين الجالوت» ، ودار المسلمون بهم ، وبثوا السرايا في بيارهم ، الفارة والنهب ، ووقع جورديك ، وجاولي الأسدي ، وجماعة من الذورية على عسكر «الكرك» و «الشوبك» ، سائرين في نجدة الفرنج ، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وأسروا مائة نفر ، وعادوا .

وجرى للمسلمين مع الفرنج وقعات ، ولم يتجاسروا على الخروج للمصاف ، وعاد السلطان «الى الطور» (٣٥١) في سابع عشر جمادى الآخرة . فنزل تحت «الجبـل» ، مترقبا رحيلهم ، ليجد فرصة ، فأصبحوا ، ورحلوا راجعين على أعقابهم . ورحل نحوهم ، وناوشهم العسكر الاسلامي ، فلم يخـرجوا اليهم ، والمسلمون حولهم ، حتى نزلوا «الفولة» راجعين ، وفرغت أزواد المسلمين ، فعادوا الى دمشق ، وبخل السلطان دمشق ، في رابع وعشرين من جمادى الآخرة .

ثم عزم على غزو «الكرك» ، فخرج اليها في رجب ، وكتب الى أخيه «الملك العادل» ، وأمره ان يلتقيه الى الكرك ، وسار السلطان الى الكرك ، وحاصرها ، ونهب أعمالها ، وهجم ربضها ، في رابع شعبان ، وهدم سورها بالمنجنيات ، وأعجزه طـهم خندقها ، ووصلت الفرنج لنجدتها فلما اجتمعوا «بالجليل» ، رحل عنها ، ونزل بازائها (٣٥٢)

ووصل أخوه «الملك العادل» ، من مصر ، وعقد لابن أخيه ، «تقي الدين عمر» ، على ولايتها ، فسار اليها في نصف شعبان .

وعاد السلطان الملك الناصر الى دمشق ، والملك العادل أخوه معه ، فعقد له على ولاية حلب ، وسار اليها في ثاني وعشرين من

شهر رمضان ، وخرج السلطان الملك الظاهر منها ومعه «يازكج» ، فوصل الى والده في شوال .

ويقال إن «الملك العادل» دفع الى السلطان ، لأجل حلب ، ثلاثمائة ألف دينار مصرية ، وقيل دون ذلك ، وكان السلطان محتاجا اليها لأجل الغزاة ، فلذلك سلم اليه حلب ، وأخذها من ولده .

ولما دخلها «الملك العادل» ، ولى بقلعتها صارم الدين بـزغش ، وولى الديوان والأقطاع والجند ، واستـتـهـاء الأموال ، وشحنكية البلد : «شجاع الدين محمد بن بـزغش البصراوي» ، واستكتب الصنيعة ابن النحال - وكان نصرانيا - فأسلم على يديه ، وولى وقوف الجامع فخر الدين أحمد ابن عبد الله بن القصري ، وأمره بتجديد المساجد الدائرة بحلب ، والقيام بمصالحها ، وتوفير أوقافها عليها ، وأن لا يتعرض لوقف المسجد الجامع ، بل يوفر وقفه على مصالحه ، ولا يرفع الى «الزريخان» (٣٥٣) إلا ما فضل عن ذلك كله ، وجدد في أيامه مساجد متعددة كانت قد تهدمت.

ووقع في أيامه وقعة بين الحنفية والشافعية ، وصار بينهم جراح ، فصنع لهم الملك العادل دعوة في الميدان الأخضر ، وأصلح بين الفريقين ، وخلع على الأكابر من الفقهاء والمدرسين ، وهدم الحوش القبلي الشرقي الذي كان للقلعة ، وهو ما بين الجسرين تحت المركز ، ورأى أن يسفحه فسفحه السلطان الملك الظاهر بعده ، وكتب عليه اسمه بالسواد الى أن غاب في أيام ابنه الملك العزيز فجدد ، وزالت الكتابة ، وبقي بعضها .

ووصل رسول الخليفة شيخ الشيوخ «صدر الدين عبد الرحيم بن اسماعيل» ، الى السلطان «الملك الناصر» ، في الإصلاح بينه وبين عز الدين - صاحب الموصل - وورد معه من الموصل القاضي محيي

الدين أبو حامد بن الشهرزوري ، الذي كان قاضي حلب ثم تولى قضاء الموصل ، والقاضي بهاء الدين أبو المحاسن بن شداد ، الذي صار قاضي عسكر السلطان «الملك الظاهر» ، وولي قضاء حلب في أيام ابنه الملك الظاهر ، ولم يتفق الصلح بينهما (٣٥٤)

وحضرني حكاية جرت لشيخ الشيوخ مع «محيي الدين» ، في هذه السفرة ، وذلك ان شيخ الشيوخ كان قد وصل الى السلطان «الملك الناصر» ، وهو محاصر للموصل ، ليصلح بينه وبين عز الدين ، في المحاصرة الأولى ، فلم يتفق الصلح ، واتهم أهل الموصل شيخ الشيوخ بالميل مع «الملك الناصر» ، فعمل محيي الدين فيه ابياتاً منها:

بعثت رسولا أم بعثت محرصاً
على القتل تستجلي القتال وتستجلي؟

وقال فيها مخاطباً للامام الناصر:

فلا تغترر منه بفضل تنمس
فما هكذا كان «الجنيد» ولا «الشبلي» (٣٥٥)

فبلغت الأبيات شيخ الشيوخ.

فلما اجتمعا في هذه السفرة وتباسطا ، قال له شيخ الشيوخ:
«كيف تلك الأبيات التي عملتها في؟» فغالطه عنها ، فأقسم عليه بالله ان يذشده اياها ، فذكرها له ، حتى أنشده البيت الذي ذكرناه أولاً ، فقال: «والله لقد ظلمتني ، وإنني والله ، اجتهدت في الاصلاح فما اتفق» فأذشده تمامها ، حتى بلغ الى قوله: «فما هكذا كان الجنيد ولا الشبلي» فقال: «والله لقد صدقت ، فما هكذا كان الجنيد ولا الشبلي ، أدور على أبواب الملوك من باب هذا الى باب هذا».

ثم إن الرسل ساروا عن غير زبدة ، وتوجه الملك العادل من حلب في ذي الحجة ، وعيد عند أخيه بدمشق ، ثم عاد الى حلب .

واهتم السلطان الملك الناصر ، في سنة ثمانين وخمسائة ، لغزاة «الكرك» ، فوصل اليه «نور الدين بن قرا أرسلان» ، واجتاز بحلب ، فأكرمه «الملك العادل» ، وأطلععه الى قلعتها في صفر ، ثم رحل معه الى دمشق ، فخرج السلطان ، والتقاءه على عين الجر (٣٥٦) ، « بالبقاع » ، ثم تقدم الى دمشق وتجهز وتأهب للغزاة ، وخرج الى «الكرك» ، واستحضر العساكر المصرية ، فوصل تقي الدين ابن أخيه ، ومعه بيت الملك العادل ، وخزائنه ، فسيرهم الى حلب .

ونازل الكرك ، وأحدثت العساكر بها ، وهجموا الرض ، وبينه وبين القلعة خندق وهما جميعا على سطح جبل ، وسدوا أكثر الخندق ، وقاربوا فتح الحصن ، وكانت للبرنس (أرناط) ، فكتب من فيها الفرنج ، فوصلوا في جموعهم الى موضع يعرف «بالواله» (٣٥٧) ، فسير «الملك الناصر» الأتقال ، ورحل بعد أن هدم الحصن بالمنجنيات .

ورحل عنها في جمادى الآخرة ، وأمر بعض العسكر فدخلوا الى بلاد الفرنج ، فهجموا نابلس ، ونهبوها ، وخربوها ، واستنفذوا منها أسرى من المسلمين ، وفعلوا في «سبسطية» (٣٥٨) و«جينين» (٣٥٩) مثل ذلك ، وعادوا وبخلوا دمشق مع السلطان .

ووصل اليه «شيخ الشيوخ» بالخلع ، من الخليفة الناصر ، له ولأخيه «الملك العادل» ، ولابن عمه ناصر الدين (٣٦٠) ، فلبسوها ، ثم خلع السلطان ، بعد أيام خلعتة الوارية من الخليفة على نور الدين بن قرا أرسلان .

وورد اليه رسول مظفر الدين بن زين الدين ، يخبره ان عسكر

الموصل ، وعسكر قـزل نزلوا على اربـل ، وأنهم نهـبوا وأخربوا ، وأنه انتصر عليهم ، ويشير عليه بقصد الموصل ، ويقوي طمعه ، وبذل له اذا سار اليها خمسين الف دينار ، فعند ذلك هابن الفرنج مدة .

ورحل من دمشق في ذي القعدة من سنة ثمانين ، فوصل حلب وأقام بها الى أن خرجت السنة .

وسار منها الى حران والتقاء مظفر الدين بالبيرة ، في المحرم سنة احدى وثمانين ، وعاد معه الى حران ، وطالبه بما بذل له من المال ، فأذكر ، فقبض عليه ، ووكل به .

ثم اخذ منه مدينتي حران والرها ، وأقام في الاعتقال الى مستهل شهر ربيع الاول ثم أطلقه خوفا من انحراف الناس عنه ، لأنهم علموا انه الذي ملكه البلاد الجزرية ، واعاد عليه حران ، ووعد باعادة الرها ، اذا عاد من سفرته ، فأعادهما عليه .

وسار الملك الناصر الى الموصل ، فوصل بلد (٣٦١) ، فنزلت اليه والدة عز الدين ، ومعها ابنة نور الدين ، وغيرها من نساء بني اتابك ، يطلبن منه المصالحة ، والموافقة ، فردهن خائبات ، ظنا منه أن عز الدين أرسلهن عجزا عن حفظ الموصل ، واعتذر بأعذار ندم عليها بعد ذلك .

ورحل حتى صار بينه وبين الموصل مقدار فرسخ فكان يجري القتال بين العسكريين ، وبذل اهل الموصل نفوسهم في القتال لربه النساء ، وندم السلطان على ردهن ، وافتتح تل عفر ، فأعطاهما عماد الدين صاحب سنجار.

وأقام على حصار الموصل شهرين ، ثم رحل وجاءه الخبر بموت شاه أرمن ، وكاتبه جماعة من اهل خلاط ، فترك الموصل طمعا في خلاط ، فاصطلح اهل خلاط مع البهلوان صاحب اندريجان ، فنزل

السلطان على ميا فارقين ، وكان صاحبها قطب الدين ايلغازي بن البي بن تمر تاش ، وملك بعده حسام الدين يولق أرسلان ، وهو طفل ، فطمع في أخذها ، ونازلها ، فقتلها من واليها ، وزوج بعض بنيه ببنت الخاتون بنت قرا أرسلان ، ثم عاد الى الموصل عند اياسه من خلاط ، فوصل الى كفرزمار (٣٦٢) ، فسار عائدا الى حران ، واتبعه عز الدين بالقاضي بهاء الدين بن شداد ، وبهاء الدين الربيب ، رسولين اليه في موافقته على الخطبة والسكة ، وأن يكون معه عسكر من جهته ، وان يسلم اليه شهرزور (٣٦٣) وأعمالها ، وما وراء الزاب .

واشتد مرض السلطان بحران في شوال ، وأيس منه ، وأرجف بموته ، ووصل اليه الملك العادل من حلب ومعه أطباؤها ، واستدعى المقدمين من الأمراء من البلاد ، فوصلوا اليه . وعزم الملك العادل على استحلاف الناس لنفسه.

وسار ناصر الدين صاحب حمص طمعا في ملك الشام ، وقيل انه اجتاز بحلب ، ففرق على أحداثها مالا ، وسار إلى حمص ، وجرى من تقي الدين بمصر حركات من يريد أن يستبد بالملك .

وتمائل السلطان ، وبلغه ذلك كله ، وأركب ، فـرأه الناس ، وفرحوا ، وابتنى دارا ظاهر حران فجلس فيها حين عوفي ، فسميت دار العافية . ولما عوفي رد على مظفر الدين الرها ، وأعطاه سنجقا ، وأحضر رسولي الموصل ، وحلف لهما على ما تقرر في يوم عرفة .

وبلغه موت ابن عمه ناصر الدين ، صاحب حمص ، ورحل عن حران الى حلب ، وصعد قلعتها يوم الأحد ، رابع عشر محرم سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة . وأقام بها أربعة ايام ، ثم رحل الى دمشق ، فلقه «أسد الدين شيركوه» ، ابن صاحب حمص ، فأعطاه حمص ، وسار الى دمشق .

وسير الى «الملك العادل» ، وطلبه اليه الى دمشق ، فخرج من حلب جريدة ، ليلة السبت الرابع والعشرين ، من شهر ربيع الأول من سنة اثنتين . فوصل اليه الى دمشق ، وجرت بينهما أحاديث ، ومراجعات استقرت على أن الملك العادل يطلع الى مصر ، ومعه الملك العزيز ، ويكون أتابكه ، ويسلم حلب الى الملك «الظاهر غازي» ، وينزل الأفضل الى دمشق من مصر ، وينزل تقي الدين ايضا منها .

وكان الذي حملة على إخراج الملك العادل من حلب أن علم النين سليمان بن جندر كان بينه وبين الملك الناصر صحبة قديمة ، قبل الملك ، ومعاشرة ، وانبساط ، وكان الملك العادل وهو بحلب لا يوفيه ما يجب له ، ويقدم عليه غيره .

فلما عوفي الملك الناصر سايره يوما «سليمان» ، وجرى حديث مرضه ، وكان قد أوصى لكل واحد من أولاده بشيء من البلاد ، فقال له «سليمان بن جندر»: «بأي رأي كنت تظن أن وصيتك تمضي كآنك كنت خارجا الى الصيد ، وتعود فلا يخالفونك ، أما تستحي أن يكون الطائر أهدى منك الى المصلحة؟» . قال: «وكيف ذلك؟» - وهو يضحك - . قال:

«إذا أراد الطائر أن يعمل عشا لفراخه ، قصد أعالي الشجرة ، ليحمي فراخه ، وأنت سلّمت الحصون الى أهلك ، وجعلت أولادك على الأرض ،

هذه حلب ، وهي أم البلاد بيد أخيك ، وحماة بيد تقي الدين ، وحمص بيد ابن أسد الدين ، وابذك الأفضل مع تقي الدين بمصر يخرجهم متى شاء ، وابذك الآخر مع أخيك في خيمته يفعل به ما أراد» . فقال له: «صدقت ، وأكتم هذا الأمر» .

ثم أخذ حلب من أخيه ، وأعطاه ابنه «الملك الظاهر» ، وأعطى

الملك العادل بعد ذلك حران ، والرها وميافارقين ، ليخرجه من الشام ، ويتوفر الشام على أولاده .

فكان ما كان ، وأخرج «تقي الدين» من مصر ، فشق عليه ذلك وامتنع من القدوم ، ثم خاف ، فقدم عليه .

وسير الملك العادل «الصنيعة» لاحتضار أهله من حلب وسار «الملك الظاهر» - قدس الله روحه - إلى حلب ، وسير في خدمته «شجاع الدين عيسى بن بلاشوا» (٣٦٤) ، وولاه قلعة حلب ، وأوصاه بتربية الملك الظاهر ، وأخيه الملك الزاهر ، وحسام الدين بشارة ، صاحب بانياس - وولاه المدينة ، وجعل الديوان بينهما .

وجعل قرار «الملك الظاهر» في السنة ثمانية وأربعين ألف دينار بيضاء ، في كل شهر أربعة آلاف دينار . وكل يوم قباء وكمه (٣٦٥) ، وعليق دوابه من الأهراء ، وخبزه من الأهراء ، واستمرت هذه الوظيفة ، إلى سنة ست وثمانين إلى رجب .

فورد كتاب الملك الناصر إلى ولده الملك الظاهر ، يأمره بأن يأمر وينهى ، وأن يقطع الاقطاعات ، وأن البلد بلده ، وكان القاضي الزبداني يكتب له ، فلم يعجبه ، فانصرف على حال غير محمودة .

وعلى ذكر «علم الدين سليمان بن جندر» ، تذكرت حكاية مستملحة عنه ، فأثبتها :

أخبرني الزكي أحمد بن مسعود الموصلي المقرئ ، قال: كنت أوم بعلم الدين سليمان بن جندر ، فاتفق أن خرجت معه إلى حارم ، في سنة سبع وسبعين وخمسمائة ، وجلست معه تحت شجرة هناك ، فقال: كنت ومجد الدين أبو بكر بن الداية والملك الناصر صلاح الدين ، تحت هذه الشجرة ، ونور الدين إذ ذاك يحاصر حارم ، وهي في أيدي الفرنج فقال مجد الدين : كنت أتمنى أن نور

الدين يفتح حارم ، ويعطيني إياها ، فقال صلاح الدين: أتمنى على الله مصر ، ثم قالاً لي: تمن أنت شيئاً ، فقلت: إذا كان مجد الدين صاحب حارم وصلاح الدين صاحب مصر ، ما أضيع بينهما ، فقالا: لا بد من أن تتمنى شيئاً ، فقلت: إذا كان ولا بد من ذلك فأريد «عم».

فقدّر الله نور الدين كسر الفرنج ، وفتح حارم ، وأعطاهما مجد الدين ، وأعطاني «عم». فقال صلاح الدين: أخذت أنا مصر والله ، فإننا كنا ثلثة ، وتمنى «مجد الدين» حارم ، وأخذها ، وتمنى علم الدين «عم» وأخذها . وقد بقيت آمينتي. فقدّر الله تعالى: أن فتح أسد الدين مصر ، ثم آل الأمر إلى أن ملكها صلاح الدين وهذا من أغرب الاتفاقات .

وزوج السلطان الملك الناصر ولده «الملك الظاهر» ، في هذه السنة ، بابنة أخيه «غازية خاتون» بنت «الملك العادل». ودخل بها يوم الأربعاء سادس وعشرين من شهر رمضان. ثم إن السلطان عزم على قصد «الكرك» مرة أخرى فبرز من دمشق ، في النصف من محرم سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، وسير إلى حلب يستدعي عسكرها ، فاعتاق عليه ، لاشتغاله بالفرنج بأرض «أنطاكية» ، وبلاد «ابن لاون» ، وذلك أنه كان قد مات ، وأوصى لابن أخيه بالملك .

وكان الملك المظفر تقي الدين بجماعة ، فسير إليه السلطان ، وأمره بالدخول إلى بلاد العدو ، فوصل إلى حلب في سابع عشرين محرم ، ونزل في دار «عفيف الدين بن زريق» (٣٦٦) ، وأقام بها إلى أن صالحهم ، في العشر الآخر من شهر ربيع الأول ، ثم سار حتى لحق السلطان ، وأما السلطان فإنه سار إلى رأس الماء (٣٦٧) واجتمعت إليه العساكر الإسلامية من الموصل ، والشرق ، ومصر ، والشام ، «بعشترا» ، بعد أن أتته الأخبار أن البرنس «أرناط» يريد الخروج على الحاج ، فأقام قريباً

من «الكرك» مشغلا خاطره ، ليلزم مكانه الى أن وصل الحاج ، وتقدم الى الكرك ، وبث سراياه ، فنهبوا بلدها وبلد «الشوبك» ، وخرّبوه .

وأرسل الى ولده الملك الافضل ، فأخذ قطعة من العسكر ، فدخل الى بلد عكا ، فأخربوا ونهبوا ، وخرج اليهم جمع من الداوية والاسبتارية ، فظفروا بهم ، وقتل منهم جماعة ، وأسر الباقون ، وقتل مقدم الاسبتار .

وعاد السلطان الى العسكر ، وعرض العسكر قلبا وجناحين ، وميمنة وميسرة ، وجاليشية وساقة ، وعرف كلا منهم موضعه ، وسار على تعبئة ، فنزل بالاقحوانة (٣٦٨) بالقرب من طبرية ، وكان القمص صاحبها (٣٦٩) قد انتمى الى السلطان ، لخلف جرى بينه وبين الفرنج . فأرسل الفرنج اليه البطرك والقسوس والرهبان ، وتهدده بفسخ نكاح زوجته ، وتحريمه ، فاعتذر ، وتنصل ، ورجع عن السلطان اليهم ، ثم ساروا كلهم بجمعهم الى «صفورية» (٣٧٠) .

فرحل السلطان ، يوم الخميس لسبع بقين من ربيع الآخر ، وخلف طبرية وراء ظهره ، وصعد جبلها ، وتقدم الى الفرنج ، فلم يخرجوا من خيمهم ، فنزل ، وأمر العسكر بالنزول ، فلما جنة الليل ، جعل في مقابلة الفرنج من يمنعهم من القتال ، ونزل الى طبرية جريئة ، وقاتلها ، وأخذها في ساعة من نهار ، ونهبوا المدينة وأحرقوها .

فلما سمع الفرنج بذلك ، تقدموا إلى عساكر المسلمين ، فعاد السلطان الى عسكره ، والتقى الفريقان ، وجرى بينهما قتال ، وفرق بينهما الليل . وطمع المسلمون فيهم ، وباتوا يحرض بعضهم بضعا .

فلما كان صباح السبت لخمس بقين من الشهر ، طلب كل من
الفريقين موضعه ، وعلم المسلمون أن «الأرين» من ورائهم ، وبلاذ
القوم بين أيديهم ، فحملت العساكر الاسلامية من
الجوانب ، وحمل القلب ، وصاحوا صيحة واحدة ، فهرب القمص
في أوائل الأمر نحو «صور» ، وتبعه جماعة من المسلمين ، فنجا
وحده ، فلم يزل سقيما حتى مات في رجب .

وأحاط المسلمون بالباقيين من كل جانب ، فانهزمت منهم
طائفة ، فتبعها المسلمون فلم ينج منهم أحد . واعتصمت الطائفة
الأخرى بتل حطين - وحطين : قرية عندها قبر شعيب عليه
السلام - فضايقهم المسلمون على التل ، وأوقدوا النيران
حولهم ، فقتلهم العطش ، وضاق الأمر بهم حتى استسلموا للأسر ،
فأسر مقدموهم وهم : الملك كي ، والبرنس أرناط صاحب الكرك
وأخو الملك ، وابن الهذري ، وأولاد الست (٣٧٢) ، وصاحب
جبيل ، ومقدم الداوية ، ومقدم للاسبتار ، وأمم لايقع عليها
الاحضاء ، حتى كان الرجل المسلم يقتاد منهم عشرين فرنجيا ، في
حلقهم حبل .

وأسروا من المصاف ، ومن بلاد الفرنج أكثر من ثلاثين الفا من
الفرنج ، ما بين رجل ، وأمرأة ، وصبي . وقتل من المقدمين
وغيرهم خلق لا يحصى ، ولم يجر على الفرنج منذ خرجوا الى
الساحل مثل هذه الواقعة .

وكان من جملة الغنيمة في يوم المصاف صليب الصليبوت ، وهو
قطعة خشب مغلفة بالذهب ، مرصعة بالجواهر ، يزعمون أن ربهم
صلب عليها ، وضربت في يديه المسامير ، أحضره معهم المصاف
تبركا به ، ورفعوه على رمح عال .

فأما مقدم الداوية والاسبتار ، فاختار السلطان قتلهم
فقتلوا ، وأما الملك «كي» ، فإنه أكرمه ، وجلس له في بهليز
الخيمة ، واستحضره ، وأحضر معه «البرنس أرناط» ، وناول

المالك «كي» شربة من جلاب بذلج ، فشرب منها ، وكان على أشد حال من العطش ، ثم ناول الملك بعضها «ابرندس أرناط» ، فقال السلطان للترجمان: « أنت الذي سقيته ، والا ما سقيته أنا » . وأراد بذلك عادة العرب ان الأسير إذا أكل أو شرب ممن اسره أمن .

وكان السلطان قد نذر مرتين إن أظفره الله به أن يقتله : إحداهما لما أراد المسير الى مكة والمدينة ، وبعثرة قبر النبي - صلى الله عليه وسلم .

والمرة الأخرى ان السلطان كان قد هانده ، وتحالفا على أمن القوافل المتردة من الشام الى مصر ، فاجتاز به قافلة عظيمة ، غزيرة الاموال ، كثيرة الرجال ، ومعها جماعة من الأجناد ، فغدر بهم الملعون ، واخذهم وأموالهم وقال لهم: «قولوا لحمد يجيء وينصركم» فبلغ ذلك السلطان وسير اليه ، وهديه ، ولامه ، وطلب منه ردها فلم يجب ، فنذر أن يقتله متى ظفر به .

فالتفت السلطان الى «ارناط» ، وواقفه على ما قال ، وقال له: «ها أنا أنتصر لحمد» . ثم عرض عليه الاسلام ، فلم يفعل . فسل السيف ، وضربه به ، فحل كتفه ، وتمم عليه من حضر ، واخذ ورمي على باب الخيمة .

فلما رآه الملك على تلك الصورة لم يشك في أنه يثني به ، فاستحضره ، وطيب قلبه ، وقال: «لم تجر عانة الملوك أنهم يقتلون الملوك ، ولكن هذا طغى ، وتجاوز حده فجري ما جرى» .

ثم إن السلطان أصبح يوم الأحد ، الخامس والعشرين ، فنزل على «طبرية» ، وتسلم قلعتها بالأمان من صاحبها ، ثم رحل منها يوم الثلاثاء الى «عكا» ، فنزل عليها يوم الأربعاء سـلـخ الشهر ، وقـاـتـلـها يوم الخميس مسـتـهل جمـادى

الأولى ، فأخذها ، واستنفذ منها أربعة آلاف أسير من المسلمين ، وأخذ جميع ما فيها ، وتفرق العسكر .

وفتح بعدها : قيسارية ونابلس ، وحيفا ، وصفورية ، والناصر ، والشقيف ، والفولة ، فأخذوها ، واستولوا على سكانها ، وأموالها .

ورحل السلطان من عكا إلى «تبنين» ، وقا تلها وفتحها يوم الأحد ثامن عشر جمادى الأولى ، ثم رحل منها إلى «صيدا» فتسلمها يوم الأربعاء العشرين منه ، ثم سار إلى «بيروت» ، ففتحها في التاسع والعشرين منه ، ثم سلمت «جبيل» إلى أصحابه وهو على بيروت .

ثم سار إلى «عسقلان» ونازلها يوم الأحد السادس عشر من جمادى الآخرة ، وتسلمها يوم السبت سلخ جمادى الآخرة ، بعد أن تسلم في طريقه مواضع «كالرملة» و«يبنا» و«الداروم» . وأقام على عسقلان ، وتسلم أصحابه غزة ، وبيت جبرين ، والنطرون ، وبيت لحم ، ومسجد الخليل عليه السلام .

وسار إلى بيت «المقدس» ، فنزل عليه يوم الأحد الخامس عشر من شهر رجب من سنة ثلاث وثمانين ، فنزل بالجانب الغربي ، وكان مشحونا بالمقاتلة من الخيالة والرجالة ، وكان عليه من المقاتلة ما يزيد على ستين ألفا غير النساء والصبيان ، ثم انتقل إلى الجانب الشمالي ، يوم الجمعة العشرين من شهر رجب ونصب عليه المنجنيقات ، وضايقه بالزحف ، والقتال ، وكثرة الرماة ، حتى أخذ النقب في السور ، مما يلي «وادي جهنم» ، في قرنة شمالية .

ولما رأوا ذلك وعلموا أن لا ناصر لهم ، وأن جميع البلاد التي افتتحها السلطان صار من بقي من أهلها إلى «القدس» ، خرج عند ذلك إليه ابن بارزان (٣٧٤) ، ملقيا بيده ، ومتوسلا لأمر قومه ، حتى استقر مع السلطان خروج الفرنج عنها بأموالهم

وعيالهم ، وأن يؤدوا عن كل رجل منهم عشرة ننانير ، وعن كل امرأة خمسة ننانير ، وعن كل طفل لم يبلغ الحلم بينارين ، ومن عجز عن ذلك استرق ، فبلغ الحاصل من ذلك عن من خرج منهم مائتين وستين ألف دينار صورية ، واسترق بعد ذلك منهم نحو ستة عشر ألفا .

وكان السلطان قد رتب في كل باب أميرا أميناً لأخذ ما استقر عليهم ، فخانوا ، ولم يؤدوا الأمانة ، فانه كان فيه ، على التحقيق ، العدة التي ذكرناها ، وأطلق «ابن بارزان» ثمانية عشر ألف رجل من الفقراء ، وزن عنهم ثلاثين ألف دينار .

وتسلم القدس في يوم الجمعة السابع والعشرين ، من شهر رجب ، وأقيمت صلاة الجمعة فيه ، في الجمعة التي تلي هذه ، وهي رابع شعبان .

وخطب بالناس محيي الدين بن زكي الدين - وهو يومئذ قاضي حلب - وأزيلت الصليبان من قبة الصخرة ، ومحراب داود ، وأزيل ما كان بالمسجد الأقصى من حوانيت الخمارين ، وهدمت كنائسهم والمعابد ، وبنيت المحاريب والمساجد .

وأقام السلطان على «القدس» ، ثم رحل عنه ، في الخامس والعشرين من شعبان ، فنزل على صور بعد أن قدم عليه ولده «الملك الظاهر» ، من حلب في ثامن عشر شهر رمضان ، قبل وصوله إليها .

وكان نزوله على «صور» في ثاني عشرين من شهر رمضان ، وضايقها ، وقتلها ، واستدعى اسطول مصر ، فكانت منه غرة في بعض الليالي ، وظنوا انه ليس في البحر - من يخافونه ، فما راعهم الا ومراكب الفرنج من «صور» قد كبستهم ، واخذوا منهم جماعة ، وقتلوا جماعة ، فاذكر نشاط

السلطان ، ورحل عنها في ثاني ذي القعدة ، وأعطى العساكر دستورا ، وساروا الى بلادهم (٣٧٥) .

وأقام هو بعكا ، الى أن بخلت سنة اربع وثمانين وخمسمائة ، وكان من «بهونين» (٣٧٦) قد ارسلوا الى السلطان ، وهو «بصور» ، فأمنهم ، وسير من تسلمها ، وسار السلطان فنزل على حصن «كوكب» (٣٧٧) في أوائل المحرم من السنة ، وكان قد جعل حولها جماعة يحفظونها من دخول قوة ، فأخذ الفرنج غرتهم ليلا ، وكبسوهم بعفر بلا (٣٤٨) وقتلوا مقدمهم «سيف الدين» أخا «الجاولي» فسار السلطان ، ونزل عليها بمن كان قد بقي من خواصه بعكا ، وكان ولده «الملك الظاهر» قد عاد عنه الى حلب ، وعاد أخوه «الملك العادل» الى مصر ، فحصره ، ثم رأى أنه حصن منيع ، فرحل عنه وجعل عليه قايماز النجمي محاصرا .

وسار إلى دمشق ، ثم سار من دمشق في النصف من ربيع الأول الى حمص ، فنزل على بحيرة «قدس» (٣٧٩) ، ووصل اليه «عماد الدين زنكي» صاحب سنجار ، وتلاحقت به العساكر ، واجتمعت عنده ، فنزل على تل قبالة «حصن الأكراد» ، في مستهل ربيع الآخر ، وسير إلى الملك الظاهر إلى حلب وإلى «الملك المظفر» ، بأن يجتمعا وينزلا «بتيزين» قبالة «أنطاكية» لحفظ ذلك الجانب ، فسارا حتى نزلا «تيزين» في شهر ربيع الآخر وتواصلت اليه العساكر في هذه المنزلة .

ثم رحل يوم الجمعة رابع جمادى الأولى ، على تعبئة لقاء العدو ، وبخل الى بلاد العدو ، وأغار على «صافيتا» و«العريمة» وغير ذلك من ولاياتهم ، ووصل الى «أنطوطوس» (٣٨٠) في سادس جمادى الأولى فوقف قبالتها ، ونظر إليها ، وسير من رد الميمنة ، وأمرها بالنزول على جانب البحر ، وأمر الميسرة بالنزول على البحر ، من الجانب الآخر ، ونزل في موضعه ، وأحدقت

العساكر بها من البحر الى البحر ، وزحف عليها ، فما استتم نصب الخيم حتى صعد الناس السور ، وأخذها بالسيف ، وغنم العسكر جميع ما بها ، وخرّب سور البلد .

وسار الى حلب ، فوصل اليه ولده «الملك الظاهر» في أثناء الطريق ، بالعساكر التي كانت «بتيّزين» . ووصل الى «جبلّة» في ثامن عشر يوم الجمعة ، فما استتم نزول العسكر حتى تسلم البلد ، سلمها اليه قاضيها واهلها ، وكانوا مسلمين تحت يد الفرنج ، فعملوا عليها وسلموها وبقيت القلعة ممتنعة ، وقاتل القلعة ، فسلمت بالأمان يوم السبت تاسع عشر الشهر .

وسار عنها الى «اللاذقية» ، فنزل عليها يوم الخميس رابع عشري جمادى الأولى ، ولها قلعتان ، فقاتلها ، وأخذ البلد ، وغنموا منه غنيمة ، وفرق الليل بين الناس ، وأصبح المسلمون يوم السبت ، واجتهدوا في قتال القلعتين ، ونقبوا في السور مقدار ستين ذراعاً ، فأيقن الفرنج بالعطب ، فطلبوا الأمان ، يوم الجمعة الخامس والعشرين من جمادى الأولى ، وسلموها يوم السبت .

ورحل عن اللاذقية ، يوم الأحد ، فنزل على صهيون (٣٨١) ونزل عليها يوم الثلاثاء تاسع عشري جمادى الأولى ، واستدار العسكر حولها ، واشتد القتال عليها من جميع الجوانب .

فضرّبها منجنيق ولده «الملك الظاهر» ، حتى هدم قطعة من سورها تمكن الصاعد الصعود منها ، وزحف عليها السلطان بكرة الجمعة ، ثاني جمادى الآخرة ، فما كان الا ساعة حتى ارتقى المسلمون على أسوار الرّيبض ، فهجموه ، فانضم اهلها الى القلعة ، فقاتلهم المسلمون فصاحوا الأمان ، وسلموها على صلح القدس .

وأقام السلطان بها حتى تسلم عدة قلاع ، «كالعيد» و«قلعة

الجماهريين» و«حصن بلاطس» . ثم رحل ونزل على بكاس (٣٨٢) وهي قلعة حصينة ، من أعمال حلب على جانب العاصي ، ولها نهر يخرج من تحتها ، يوم الثلاثاء سادس جمادى الآخرة على شاطئ «العاصي» وصعد السلطان جريدة الى القلعة ، وهي على جبل مطل على العاصي ، فأحرق بها من كل جانب وقاتلها قتالا شديدا بالمنجنيقات والزحف ، وفتحها يوم الجمعة تاسع جمادى الآخرة غدوة ، وأسر من كان بقي فيها ، وغنم جميع ما كان فيها . وكان لها قلعة تسمى «الشغر» قريبا منها يعبر من احدهما الى الأخرى بجسر ، فضربها بالمنجنيقات الى أن طلبوا الأمان ، ثم سلمها أهلها بعد ثلاثة أيام ، يوم الجمعة سادس عشر الشهر .

ثم عاد السلطان الى الثقل ، وسير ولده الملك الظاهر الى قلعة تسمى «سرمانية» يوم السبت ، فقاتلها قتالا شديدا ، وتسلمها يوم الجمعة ثالث عشرين الشهر المذكور .

واتفق له هذه الفتوحات المتتابعة كلها في ايام الجمع ، وكذلك القدس يوم الجمعة .

ثم سار السلطان جريدة الى «حصن برزية» وهو الذي يضرب به المثل في الحصانة ، ويحيط به أوبية من سائر جوانبه ، وعلوها خمسمائة ذراع ونيف وسبعون ذراعا ، فتأمله وقوى عزمه على حصاره ، واستدعى الثقل وبقية العسكر ، يوم السبت رابع عشرين جمادى الآخرة . فنزل الثقل تحت الجبل .

وفي بكرة الأحد صعد السلطان جريدة ، مـمـع المقاتلة ، والمنجنيقات ، وآلات الحصار الى الجبل ، فأحرق بالقلعة ، وركب المنجنيقات عليها فقاتلها ليلا ونهار ، ثم قسم العسكر على ثلاثة أقسام ، يوم الثلاثاء ، ورتب كل قسم يقاتل شطرا من النهار ، بحيث لا يفتر القتال عليها .

وحضرت نوبة السلطان ، فتسلمها بنفسه ، وركب ، وصاح في

الناس ، فحملوا حملة الرجل الواحد ، وطلعوا الى الاسوار ، وهجموها عنوة ، ونهبوا جميع ما فيها ، وأسروا من كان فيها ، وعاد السلطان الى الذقل ، وأحضر صاحبها ومعه من اهله سبعة عشر ذفرا ، فرق له السلطان ، وأطلقه مع جماعته ، وأنفذهم الى صاحب «انطاكية» ، استمالة له ، فانهم كانوا من اهله (٣٨٣) .

ثم سار السلطان حتى نزل على «درب ساك» ، يوم الجمعة ثامن شهر رجب من السنة ، فقاتلها قتالا شديدا بالمنجنيات ، وأخذ الذقب تحت برج منها ، فوقع ، وحماه الفرنج بالرجال ، ووقفوا فيه يحمونه عن كل من يروم الصعود فيه ، وجعلوا كلما قتل منهم واحدا اقاموا غيره مقامه ، عوضا عن السور .

ثم طلبوا الامان على ان ينزلوا بأنفسهم وثيابهم لا غير ، بعد مراجعتهم انطاكية ، وتسلمها السلطان ، يوم الجمعة الثاني والعشرين من شهر رجب ، وأعطاهم علم اللين سليمان بن جندر .

وسار عنها بكرة السبت ، ثالث عشري الشهر ، ونزل في مرج «بغراس» ، وأحرق بعض العسكر «ببغراس» ، وأقام يزكا (٣٨٤) على باب انطاكية بحيث لا يشذ عنه من يخرج منها ، وقاتل البلد مقاتلة شديدة ، حتى طلبوا الامان ، وشرطوا استئذان انطاكية ، وتسلمها في ثاني شعبان من السنة (٣٨٥)

وفي ذلك اليوم عاد الى الخيم ، وراسله أهل «انطاكية» في طلب الصلح فصالحهم ، لشدة ضرر العسكر ، وقلق عماد اللين - صاحب سنجار - لطلب العود إلى بلاده ، واستقر الصلح بينه وبين صاحب انطاكية على انطاكية لا غير ، دون غيرها من بلاد الفرنج ، على أن يطلقوا جميع أسرى المسلمين الذين عندهم ، وأن يكون ذلك إلى سبعة اشهر ، فإن جاءهم من ينصرهم والا سلموا البلد الى السلطان .

وطلبه ولده «الملك الظاهر» ان يتوجه معه الى حلب ، فسار معه اليها ، وبخلها في حادي عشر شعبان ، وأقام بقلعتها ثلاثة أيام في ضيافة «الملك الظاهر» ، وأنعم «الملك الظاهر» على جماعة كثيرة من عسكره ، فأشفق السلطان عليه ، وسار من حلب في رابع عشر شعبان ، فوصل دمشق قبل دخول شهر رمضان .

فسار في أوائل شهر رمضان حتى نزل «صفد» ، ونصب عليها المناجيق ، ودأومها بالقتال حتى تسلمها بالأمان في رابع عشر شوال ، وكان أصحابه الذين جعلهم على حصار «الكرك» لازموا الحصار هذه المدة العظيمة ، وصابروهم من بها من الفرنج ، حتى فنيت أزوادهم ونخائثرهم ، وأكلوا دوابهم ، فرأسلوا أخا السلطان «الملك العادل» - وكان قريبا منهم ، منازل بعض القلاع - فطلبوا منه الأمان فأمنهم ، وتسلمها ، وتسلم أيضا «الشوبك» ، وغيرها من القلاع التي تجاورها .

ثم سار السلطان من «صفد» الى «كوكب» (٣٨٦) ، فنزل على سطح الجبل ، وأحرق العسكر بالقلعة ، وضايقها بالقتال ، حتى تمكن الذقب من سورها ، فطلب أهلها الأمان فتسلمها في النصف من ذي القعدة (٣٨٧) .

وسار بعد ذلك بمدة الى «بيت المقدس» فدخله يوم الجمعة ثامن ذي الحجة ، وسار الى «عسقلان» مودعا أخاه «الملك العادل» وكان متوجها الى مصر ، فأخذ من أخيه عسقلان ، وأعطاه «الكرك» .

وتوجه لتفقد البلاد الساحلية - وبخلت سنة خمس وثمانين وخمسمائة - وهو بعكا . وتوجه الى دمشق فدخلها مستهل صفر .

ثم توجه في الثالث من شهر ربيع الأول ، الى «مرج فلوس» (٣٨٨) محاصرا «لشقيف أردون» (٣٨٩) ورحل من «مرج فلوس» فأتى «مرج عيون» - وهو قريب من شقيف أردون - في سابع عشر ربيع الأول .

وضاق على الفرنج المجال ، وقلت أزواجهم . فنزل «أرناط» صاحب الشقيف إليه - وكان عظيما فيهم ذا رأي ودهاء ، فأظهر الطاعة والمودة للسلطان ، ووعده بتسليم المكان وقال: «أريد أن تمهلني حتى أخلص أولادي وأهلي من الفرنج ، وأسلم إليك الحصن ، وتعطيني موصعا أسكن فيه بدمشق ، وأقطعا تقوم بي وبأهلي وتمكنني الآن من الإقامة بالشقيف ، حتى أخلص أولاد». فأجابه السلطان إلى ذلك ، وجعل يتردد إلى خدمته .

وكانت الهدنة بين أنطاكية وبينه قد قرب وقتها ، وخاطره مشغول بذلك ، وقد سير إلى تقي الدين أن يجمع من يقارب تلك الناحية من العساكر ، ويكون بازاء أنطاكية .

وبلغه أيضا أن الفرنج قد تجمعوا «بصور» في جموع عظيمة ، وكان الأمر قد استقر مع «أرناط» أن يسلم إليه «الشقيف» ، فاعتذر بأولاده وأهله ، وأن «المركيس» لم يمكنهم من المجيء إليه ، وطلب التأخير مدة أخرى ، فعلم السلطان مكره ، فأخذه وحبسه ، فأجاب إلى التسليم ، فسير مع جماعة من العسكـر إلى تحـصـنـات «الشـقيـف» ، فـأمرهم بالتسليم ، فامتنعوا ، وطلب قسيسا حدثه بلسانه وعاد بما قال اليهم ، فاشتدوا في المنع .

فعلم حينئذ أن ذلك كان تأكيدا مع القسيس ، فأعادوه إلى السلطان ، وسيره إلى «بانياس» ، وتقدم إلى «الشقيف» فحصره ، وضيق عليه ، وجعل عليه من يحفظه ، إلى أن سلمها ، من بها بعد أن عذب صاحبها أشد العذاب ، واشترطوا إطلاق صاحبها ، في يوم الأحد خامس عشر شهر ربيع الأول من سنة ست وثمانين (٣٩٠) .

وأما بقية الفرنج ، فإن ملكهم كان وعده السلطان أنه متى سلم «عسقلان» أطلقه ، فاتفق أنه أطلقه «بأنطربوس» ، حين فتح تلك الناحية ، واشترط عليه أن لا يشهر في وجهه سيفا أبدا فنكت .

واتفق مع « الماركيس » صاحب « صور » وعسكرا مع جموع الفرنج على باب « صور » . واتفق بينهم وبين المسلمين حروب وغارات ، كانت الزكاية فيها سجلا بين الفريقين ، بحيث تحتاج الفريقان في آخر تلك الايام ، من جمادى الآخرة من هذه السنة .

وسار الفرنج إلى حصار « عكا » ، فنزلوا عليها في يوم الأربعاء ثامن شهر رجب . وسار السلطان فنزل عليهم بظاهر « عكا » ، ومنعهم من الاحاطة بسورها ، فكان نازلا على قطعة منها تلي الشمال ، ومعه الباب الشمالي من « عكا » مفتوحا ، والمسلمون يدخلون اليها ويخرجون ، والفرنج على الجانب الجنوبي ، وقد أغلق في وجوههم الباب المعروف بباب « عين البقر » ، وكان الفرنج يقومون بمحاربة المسلمين ، من جانب المدينة ومن جانب العسكر .

وجرت بينهم وبين الفرنج وقعات متعددة ، من أعظمها خرج الفرنج واصطفوا على تعبئة القتال ، والملك في القلب وبين يديه الانجيل ، فوقف المسلمون ايضا على تعبئة ، وتحركت ميسرة الفرنج على ميمنة المسلمين ، وفيها الملك المظفر ، فتراجع عنهم ، وامده السلطان بأطلاب عدة من القلب ، فخذف القلب ، وعادت ميسرة الفرنج فطمعت فيه فحملوا على القلب فانكسر ، وانكسر معه معظم الميمنة ، وبلغت هزيمتهم الى « الاقحوانه » ومنهم من دخل دمشق .

ووصل الفرنج إلى خيم السلطان ، فقتلوا ذلك اليوم « أبا علي الحسين بن عبد الله بن رواحة » . وكان قد مدح النبي صلى الله عليه وسلم - ووقف بازاء قبره ، وأنشد قصيدته ، وقال : « يارسول الله إن لكل شاعر جائزة وقرى ، وإنني أطلب جائزتي الشهادة ، فاستجاب الله دعاءه » .

وقتل ذلك اليوم مكبس السلطان وطشت داره (٣٩١) ، وثبتت ميسرة المسلمين ، وصاح « السلطان » فيمن بقي من المسلمين : « يال الاسلام » ، وعادت ميسرة الفرنج إلى عسكره ، فتكاثر

الناس وراءهم ، وحملوا عليهم ، فانهزموا ، وتبعهم المسلمون ، فقتلوا منهم زهاء سبعة آلاف ، ولم يقتل من المسلمين غير مائة وخمسين ذفرا .

ثم إن الحرب اتصلت بينهم ليلا ونهارا ، وكثر القتل بينهم ، وأقبل الشتاء ، فلقي المسلمون منه شدة .

وحضروا إلى السلطان ؛ وأشاروا عليه بالرحيل عن « عكا » إلى « الخروبة » (٣٩٢) ، لينفصح ما بين العسكرين . وكان ذلك للضجر من تلك المواقفة ، وملازمة القتال ، حتى أوهم السلطان (وقالوا له :) (٣٩٣) « إنك قد ضيقت على الفرنج مجال الهرب ، وحلت بينهم وبين صور ، وطرابلس ، ولو أفرجت لهم عن الطريق لما وقفوا بين يديك » فرحل السلطان إلى « الخروبة » .

فأصبح الفرنج وقد انبسطوا على عكا ، وأحاطوا بها من سائر جهاتها ، واتصل ما بينهم وبين « صور » ، وجاءت مراكبهم منها ، فحصرت « عكا » من جانب البحر ، وضعفت قلوب المسلمين بعكا ، وعادوا يقتاتون من الحواصل المدخورة ، بعد أن كان من المير المجلوبة .

وتوفر الفرنج على قتال أهل « عكا » بعد أن كانوا مشغولين بالعسكر ، وشرع الفرنج في إدارة خندق على عساكرهم ، كاستدارتهم بعكا ، وجعلوه شكلا هلاليا : طرفاه متصلان بالبحر ، وأقاموا عليه سورا مما يليهم ، وشرفوه بالجذويات والطوارق (٣٩٤) ، والتراس .

واتصلت الامداد إليهم من البحر ، بالأقوات والرجال والأسلحة ، حتى كان ينقل إليهم البقول الرطبة ، والخضروات من جزيرة « قبرس » فتصبح عندهم في اليوم الثاني .

وسير السلطان إلى الخليفة ، وإلى ملوك الاسلام يستنصر

ويستصرخ ، واتصلت الاخبار بوصول ملك الالمان إلى « القسطنطينية » في ستمائة ألف رجل ، منهم ثلاثمائة ألف مقاتل ، وثلاثمائة ألف سوقة وأتباع وضياع .

وحكي أنه كان في عسكره خمسة وعشرون ألف عجلة تنقل الأسلحة والعلوفات ، فأسقط في أيدي المسلمين ، واستولى اليأس عليهم ، وتعلقت آمالهم أنه ربما مانعه من في طريقه من « الأوج » (٣٩٥) ومن قلج أرسلان (٣٩٦) ، فلم يتدفق شيء من ذلك ، بل سار ، وقطع البلاد ، حتى وصل إلى المصيصة .

وأرسل الله عليهم وباء عظيما وحرا عظيما ، ومجاعة أحوجتهم إلى نحر دوابهم ، وذبح البقر الذي يجرع العجل ، فكان يموت في كل يوم ألوف من الرجال ، ويسابقون الموتان إلى ما معهم من الدواب الحاملة للأثقال ، حتى وصلوا إلى « انطاكية » ولم يبق منهم إلا دون العشر .

وكان في جملة من مات منهم ملكهم الذي غزا الشام ، في سنة أربع وأربعين ، وحاصر دمشق ، مات غريقا في نهر « بطرسوس » يقال له « الفاتر » ، نزل ، وسبح فيه فغرق ، وقيل بأنه سبج فيه وكان الماء باردا ، فمرض ومات ، وأخذ وسلق في خل ، وجمعت عظامه ليدفن في البيت المقدس .

وأوصى بالملك لابنه مكانه ، واتفقت الكلمة عليه ، فمرض « بالتينات » (٣٩٧) ، وأقام بها ، وسير « كندأكرا » على عسكره ، ووصل إلى « أنطاكية » ، فمات ذلك « الكند » بها .

وخرج البرنس إلى الملك ، واستدعاه إلى أنطاكية طمعا في أنه يموت ويأخذ ماله ، وكان قد فرق عسكره ثلاث فرق لكثرت ، فالفرقة الأولى : اجتازت تحت « بغراس » مع الكند المذكور ، فوقع عليه عسكر حلب فأخذ منهم مائتي رجل ، ووقع أيضا على جمع عظيم

خرجوا للعلوفة ، فقتلوا منهم جماعة كثيرة ، وأسروا زهاء خمسمائة نفر .

ولما وصل ملك الألمان إلى أنطاكية أخذها من صاحبها ، وأودع فيها خزائنه ، وسار منها يوم الأربعاء خامس وعشرين من شهر رجب ، سنة ست وثمانين وخمسمائة ، متوجهاً إلى عكا ، وفشا فيهم الوباء حتى لم يسلم من كل عشرة واحد ، ولم يخرجوا من « أنطاكية » حتى ملأوها قبورا .

ووصل الملك إلى « طرابلس » ، في نحو ألفي فارس ، لو صادفهم مائة من المسلمين لأخذوهم ، ووصلوا إلى « عكا » رجالاً ضعفاء ، لا يذفعون ، ومات ابن ملك الألمان على « عكا » في ذي الحجة من سنة ست (٣٩٨) .

ووصل إلى المسلمين « بعكا » الأسطول المصري في خمسين شينياً غنم في طريقه إليها بطس ومراكب فرنجية ، أسر رجالها وغنم أموالها ، وجرى له مصادمات مع مراكب الفرنج المحاصرة لعكا ، كانت الغلبة فيها للمسلمين ، فدخلوا إلى عكا ، وتماسكت بما دخل فيها من الأقات والسلاح ، وكان دخولها في يوم الاثنين رابع عشر شعبان ، من سنة ست وثمانين .

وفي هذا الشهر ، جهز الفرنج بطساً متعددة ، لمحاصرة « برج الذبان » - وهو على باب ميناء عكا - فجعلوا على صواري البطس برجاً ، وملأوه حطباً ونفطاً ، على أنهم يسرون بالبطس ، فإذا قاربت « برج الذبان » ولاصقته ، أحرقوا البرج . الذي على الصاري ، وألصقوه ببرج الذبان ، ليلاقوه على سطحه ، ويقتل من عليه من المقاتلة ويأخذونه .

وجعلوا في البطسة وقوداً كثيراً ، ليلاقوه في البرج إذا اشتعلت النار فيه . وعبأوا بطساً ملأوها حطباً ، على أنهم يدفعونها لتدخل بين بطس المسلمين ، ثم يلهبونها لتحرق بطس المسلمين .

وجعلوا في بطسه ثلاثة مقاتلة ، تحت قبو ، بحيث لا يصل إليهم
نشاب ، ويكودون تحت القبو ، ويقدمون البطسة إلى البرج ،
فاوقدوا النار ، وضربوا الذفت ، فانعكس الهواء عليهم ، فاحترقت
البطسة ، وهلك من فيها ، واحترقت البطسة الثانية ، وأخذها
المسلمون ، واندقلت الثالثة التي فيها القبو بمن فيها . (٣٩٩) .

وفي هذه السنة ، في ربيع الأول ، أحرق المسلمون ما كان صنعه
الفرنج من آلات الحرب والزحف إليهم ، وهي أبرجة عظيمة
المقدار ، يزحف بها على عجل ، وفيها المقاتلة ، والجروح ،
والمجانيق ، فعمد لها رجل دمشقي يعرف « بعلي بن النحاس » ،
فرماها من السور ، بقدر نطف متتابعة ، وصار فيها ريح غريبة ،
كانت سببا لاحتراق تلك الآلات وما فيها ومن فيها .

واشتد حصار الفرنج على عكا ، ومل من بها من الأجناد المقام ،
ووصل إليهم من مصر مراكب فيها غلة ، فاتلفوها بالاضاعة
وبالتغريق ، تبرما بالمقام .

وفي ربيع الأول ، وصلت من بلاد الفرنج مراكب كثيرة ، فيها
الوف من مقاتلة الفرنج من أكبرهم ملكان : يعرف أحدهما بملك
« الفرنسيس » والآخر بملك « انكتير » ، فاشتدت وطأتهما على
عكا ، وعظمت نكايتهما ، في سورها ، وقل ما بها من الميرة
والسلاح .

فأمر السلطان بأن أوسق مركب عظيم من « بيروت » ، واستكثر
فيه من السلاح والأقوات والمقاتلة ، وأظهر عليه زي الفرنج
وشعارهم ، وأخذ قوم من أسارى الفرنج الذين في قبضة المسلمين ،
فتركوا على ظاهر المركب ، وأنزل معهم في المركب جماعة من
المسلمين ممن يعرف لغة الفرنج ، وتزيوا بزي الفرنج ، وحلقوا
شعورهم ، وأخذوا معهم خنازير ، ورفعوا على قلع المركب صليبا .

وأوهموا الفرنج أنهم واصلون إليهم نجدة من بلادهم ، وأقلعوا

داخليين إلى مرسى « عكا » ، مسلمين على الفرنج بلغتهم ، مبشرين لهم بأن وراءهم من المدد ، من تشتد به منتهم ، وتعز به نصرتهم ، فلم يرتب المحاصرون بذلك ، وأفرجوا لهم عن المرسى (٤٠٠) .

فدخلوا إلى « عكا » ، وأوصلوا إلى المسلمين بها ، ما كان معهم من الميرة والسلاح والرجال ، وتمت هذه الحيلة ، وكانت من الفرص التي لا ينبغي أن تعاود فركن المسلمون إليها ، وطعموا في أخرى مثلها ، فجهزوا مركبا عظيما من « بيروت » أيضا ، وأودعوه مثل ما كان قبله من الآلات والسلاح والأقوات بما مبلغ قيمته خمسة آلاف دينار ، وجعل فيه سبعمئة من مقاتلة المسلمين .

وكان خبرهم قد وصل إلى الفرنج ، فأخذوا عليهم الارصاد ، فمكثوا أياما يلججون في البحر ، ويقاربون عكا ، فلا يجدون في الدخول مطمعا ، حتى صادفتهم مراكب « الانكيتير » في حال قدومه من بلاده ، في إحدى وعشرين مركبا فقاتلوا ذلك المركب الاسلامي يومين ، وثبت لهم مع قلته ، فغرق المسلمون من مراكب الفرنج ثلاثة .

ولما رأوا أنهم قد يئسوا من النجاة ، وأن الفرنج إن ظفروا بالمركب حصل لهم به قوة عظيمة ، وحصلوا في الأسر والذلة ، عمد رجل حلبي حجار من أهل « باب الأربعين » (٤٠١) ، يقال له « يعقوب » وكان مقدم الجماعة إلى سفل المركب وأخذ قطاعته ، وخسف المركب ، وبخل فيه الماء ، وغرق ، ولم يظفر الكفار منه بشيء ، سوى رجلين تخطفهما الفرنج من رأس الماء ، واحتملوهما في مراكبهم ، فأخبرا بهذه الكائنة .

ولما وصل هذا الخبر إلى « عكا » قطع قلوب من بها ، وأسقط في أيديهم ، وهرب جماعة من الأمراء منها ، فألقوا أنفسهم في شخاتير صغار ، فأضعف ذلك قلوب من بقي بها ، وعظمت النكاية في سور المدينة ، وفشلوا ، وكاتبوا السلطان ، فأنن لهم في مصالحة الفرنج عن أنفسهم بالبلد .

فصالحوا الفرنج على تسليم البلد ، وجميع ما فيه من الآلات ، والعدد والأسلحة ، والمراكب ، وغير ذلك ، وعلى مائتي ألف دينار وألف وخمسمائة أسير ، مجاهيل الأحوال ، ومائة أسير معينين من جاذبهم يختارونهم ، وصليب الصليبوت ، على أن يخرجوا سالمين بأنفسهم ، وذرايهم ، وأموالهم ، وقماشهم ، وضمنوا « للمركيس » عشرة آلاف دينار ، لأنه كان الواسطة ، ولأصحابه أربعة آلاف .

وحلف الفرنج لهم على ذلك ، وتسلموا « عكا » ، في يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة ، سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، ونكثوا ذلك العهد ، وأسروا كل من كان بها من المسلمين ، وفرقوا بينهم ، واستصفوا أموالهم ، وسلبوهم ثيابهم وأسلحتهم ، ثم قتلوا منهم ألفين ومائتين صبورا ، على دم واحد ، في يوم واحد ، حيث توهّموا فيهم أنهم فقراء ، ليس لهم مفاد ، وأسروا من رجوا منه أن يفقدى بمال ، أو يكون من السلطان على بال (٤٠٢) .

وأقاموا بعكا نحو أربعين يوما ، و « الملك الناصر » على حصارهم ، ثم خرجوا منها متوجهين إلى « عسقلان » ، فسار في عراضهم ، ليمنعهم أن يخرجوا من ساحل البحر ، فساروا من عكا إلى « يافا » ، وهي مسيرة يوم واحد ، في شهر كامل ، لمضايقة السلطان لهم ، وجرى بينهم وبين المسلمين مناظلة ومطاردة ، فلما أشفق السلطان من أخذهم « عسقلان » سبق إليها فهدمها ، وأخرج أهلها منها ، في شهر رمضان من سنة سبع .

فأقام الفرنج « بيافا » ، وانتقل السلطان إلى « الرملة » ، وشرع الفرنج في بناء « يافا » وتحصينها ، ثم ساروا عنها ، فنزلوا بعسقلان ، وشرعوا في عمارتها ، ثم ساروا إلى « الداروم » ، فحصرها ثلاث مرات ، وأخذوها في المرة الثالثة بالأمان .

وعاد السلطان ، في ثالث ذي الحجة ، بالعساكر إلى البيت

المقدس ، وعمره ، وحصنه ، ووعر طريقه ، وعمق خندقه ، وجعل
« الملك العادل » ، بازاء الفرنج « بالرملة » .

وتوفي الملك المظفر تقي الدين ، « على مناز كرد » ، وهو محاصر
لها ، بعد أن جرى له مصاف مع بكتمر صاحب « خلاط » ، وكسرة
تقي الدين .

وبخلت سنة ثمان وثمانين ، والسلطان بالبيت المقدس ، والملك
العادل في الرملة ، وقد صار بيد الفرنج مما كان بيد المسلمين من
الفتوح ، ما بين عكا و « الداروم » ، ولم يمكنهم مفارقة الساحل ،
خوفا من أن يحول المسلمون بينهم وبين مراكبهم ، فتقطع مادتهم .

وعصى فيها الملك المنصور ابن تقي الدين على السلطان
بميفارقين ، وحينئذ (٤٠٣) ، وحران ، والرها ، وسميساط ،
والموزر ، فسير إليه ابنه الملك الأفضل وأقطعه تلك البلاد الشرقية ،
فسار إلى حلب ومعه أخوه « الملك الظاهر » ، ووصلا إلى حلب .
فأرسل السلطان أخاه « الملك العادل » ، جريدة ، في عشرين فارسا
من مماليكه ، وأمره أن يرد « الملك الأفضل » ، ويطيّب قلب « الملك
المنصور » ، ويعطيه ما يريد ، فوصل « الملك العادل » ، واجتمع
بالمالك المنصور ، وقرر أمره .

ثم أن السلطان جرت له أحوال مع الفرنج ، ووقعات
ومراسلات ، يطول الكتاب بتعدادها ، إلى أن انتظم الصلح بينه
وبين الفرنج ، في حادي وعشرين من شعبان سنة ثمان وثمانين ،
لمدة ثلاث سنين وخمسة أشهر ، على أن سلموا إلى المسلمين
« عسقلان » ، و « غزة » ، و « الداروم » . واقترضوا من البلاد
الساحلية على ما بين « صور » و « يافا » بعد أن فتح السلطان
« يافا » ، وبقي القلعة .

واتفق ملوك الجزائر من الفرنج على تملك الساحل رجلا منهم

يعرف « بالكند هري » ، وزوجوه بنت ملكهم القديم ، التي قد استقر عندهم أن يجعلوها على كل مرة من ملكوه (٤٠٤) .

وسار السلطان من القدس إلى بيروت في شوال ، ووصل إلى خدمته صاحب أنطاكية « الابرنس » وولده « قومص طرابلس » ؛ وخلق عليهما ، وجدد بينه وبينهما الهدنة والعقد .

وفي سادس عشري ذي القعدة ، دخل إلى دمشق ، بعد مدة تقارب أربع سنين ، وكان « الملك الظاهر » قد ودعه من « القدس » ، ورحل إلى حلب في شهر رمضان ، وأخبرني القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم : أنه ودعه ، ثم سير إليه ، واستأننه في مراجعته في أشياء فأدخله عليه - وكنت حاضرا - ثم قال للملك الظاهر : « أوصيك بتقوى الله فإنها رأس كل خير : وأمرك بما أمرك الله به ، فإنه سبب نجاتك ، وأحذرك من الدماء والدخول فيها والتقلد لها ، فإن الدم لا ينام ، وأوصيك بحفظ قلوب الرعية ، والنظر في أحوالهم ، فأنت أمين وأمين الله عليهم ، وأوصيك بحفظ قلوب الأمراء ، وأرباب الدولة والأكابر ، فما بلغت ما بلغت إلا بمداواة الناس ، ولا تحقد على أحد ، فإن الموت لا يبغي على أحد ، واحذر ما بينك وبين الناس ، فإنه لا يغفر إلا برضاهم ؛ وما بينك وبين الله يغفره الله بتوبتك إليه ، فإنه كريم »

وفي شهر ذي القعدة ، سلم إلى « الملك المنصور » ما كان لأبيه بالشام ، وهو « منبج ، وحماة ، وسلمية ، ومعرة النعمان » وانقضت سنة ثمان وثمانين .

والهدنة مع الفرنج مستمرة ، و« الملك الناصر » بدمشق ، « الملك الظاهر » بحلب ، والملك العزيز بمصر ، والملك الأفضل ، وهو أكبر ولد السلطان ، معه بدمشق .

فمرض السلطان ، في اليوم الخامس عشر ، من صفر بحمى حادة ، واختلط ذهنه في السابغ ، وحبس كلامه ، وانجذبت مائة

المرض إلى دماغه ، وتوفي - رحمه الله - في الثالث عشر من مرضه ، في وقت الفجر ، من يوم الأربعاء ، السابع والعشرين من صفر ، من سنة تسع وثمانين وخمسمائة .

وليس في خزانته من المال يوم وفاته سوى دينار واحد صوري ، وسبعة وأربعين درهما ذقرة (٤٠٥) ، ودعوته على المنابر من أقصى حضرموت في الجذوب إلى أوائل بلاد « أرانية » (٤٠٦) في الشمال عرضا ، ومن طرابلس الغرب إلى باب همذان طولا . ونقودها من الدراهم والدينار مضروبة باسمه ، وعساكرها مطيعة لأمره ، سائرة تحت لوائه . ومن جملة ملكه نيار مصر ، والشام جميعه ، والجزيرة ونيار بكر ، واليمن .

تلك المكارم لاقعبان من لبن
شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

وكان وزيره القاضي الفاضل « عبد الرحيم بن علي البيساني » ، صاحب البلاغة في الكتابة .

واستقر ملك ابنه السلطان « الملك الظاهر غازي بن الملك الناصر يوسف بن أيوب » لحلب ، والبيرة ، وكفر طاب ، وعزاز ، وحارم ، وشيزر ، وبارين ، وتل باشر . واستقل بملك حلب ، وأنعم على رعيته ، واستمال قلوبهم بالاحسان ، وعمل بوصية أبيه في الأفعال الحسان ، وشارك أهل حلب في سرورهم والحزن ، وقلد أعناقهم أطواق الانعام والمنن ، وجالس الكبير منهم والصغير ، واستمال الجليل والحقير .

وكان - رحمه الله - مع طلاقة وجهه ، من أعظم الملوك هيبه ، وأشدهم سطوة ، وأسدهم رأيا ، وأكثرهم عطاء ، وكانت الوفود في كل عام تزدهم ببابه من الشعراء ، والقراء ، والفقراء ، وغيرهم . وكان يوسعهم فضلا وإنعاما ، ويوليهم مبرة وإكراما .

ولم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد « سيف الدولة بن حمدان »
ما اجتمع ببابه - رحمه الله - وزاد على « سيف الدولة » في
الحباء ، والفضل والعطاء .

وخرج صاحب ، الموصل « عز الدين » ، باتفاق « عماد الدين »
وصاحب مارين . لاستنقاذ حران والرها ، من يد « الملك
العادل » ، في شهر ربيع الآخر من هذه السنة ؛ ونزل بنديسر .

ونزل « الملك العادل » بحران ، واستنجد بعساكر « الملك
الظاهر » و « الملك الأفضل » ، فسير الملك الظاهر عسكره ومقدمه
الملك المنصور ابن تقي الدين ، ونزل الملك العادل على سروج
فافتتحها . ومرض عز الدين ، وعاد الى الموصل عن غير لقاء .

ثم نزل الملك العادل على الرقة ، فأخذها ، وأعطاه ابن أخيه
« الملك الظافر » . وسار بالعساكر الى نصيبين ، وأقطع الخابور
وبلد القنا ، ثم اصطلدوا في شهر شعبان .

وكان الياروقية ومقدمهم « دلدرم » صاحب « تل باشر » ، قد
تكبروا وتحامقوا على الملك الظاهر ، وقصروا في خدمته ، في حياة
أبيه . وكانوا يعظمون « بدر الدين دلدرم » ، ويركبون كلهم في
خدمته حتى كأنه السلطان ، وكان بأيديهم من الاقطاع خير ضياع
« جبل السماق » ، وغيرها ؛ وملك الملك الظاهر حلب ، فسلخوا معه
من حماقة ، ما كانوا يسلكونه من قبل ، فاعتقل مقدمهم « دلدرم »
في قلعة حلب ، وقيدته ، وأخرج الباقيين عن حلب ، وقبض اقطاعهم
وطلب من « دلدرم » تسليم « تل باشر » فامتنع ، وذلك في سنة
تسعين وخمسمائة .

واتفق أن وقع خلاف بين الأفضل والملك العزيز ، بسبب اميرين من
الناصرية ، احدهما ميمون المصري ، والآخر سنقر الكبير ، وكان
بأيديهما عنة من القلاع ، فاستشعرا من الملك الأفضل أن
يقبضهما ، فسارا الى مصر ، وكاشفا « الأفضل » بالعصيان .

وطلباً من العزيز الكون في خدمته على أن يذب عما في ايديهما ،
فأقطع الملك الأفضل بلاتهما ، وأقطعهما الملك العزيز نابلس -
وكانت مقطعة مع ابن المشطوب - فامتنع من تسليمها اليهما ،
وسار الى الملك الأفضل فوقع الشر بينهما بسبب ذلك .

ونزل الملك العزيز الى دمشق ، في جمادى الآخرة ، وأقطع بلدها ،
فسير الملك الأفضل الى عمه ، وأعلمه بذلك ، فسار « الملك العادل »
من بلات شرقى الفرات جريدة ، واجتمع بالملك الظاهر غازي
بحلب ، وأصعده الى قلعة حلب ، وأنزله في الدار ، التي فيها ابنة
الملك العادل « غازية خاتون » ، زوجة السلطان الملك الظاهر .
وطلب من الملك الظاهر - وافقته على المسير الى نصرة الملك
الأفضل ، واصلاح ما في قلوب الملكين من المضاغنة ، فوافقه على
ذلك . ثم قال له الملك العادل : « انا ضيفك ، ولا بد للضيف من قرى
واطلب ان تكون ضيافتي منك دلدرم » . فأجابه الى ذلك وأطلقه .
وكان « العلم بن ماهان » في خدمة السلطان « الملك الظاهر » في
محل الوزارة ، فأشار عليه بقبض عمه الملك العادل ، فامتنع :
وقال : « هذا عمي ، ومحله محل الوالد » . ونزل الملك « بدلدردم »
من القلعة فمضى في يومه الى « تل باشر » .

وصعد الملك العادل والملك الظاهر الى نصرة الملك الأفضل ، بعد
ان سلم الملك الأفضل الى الملك الظاهر جبلة ، واللاذقية ، وبلاطس
وأعمال ذلك كله ، لينصره على أخيه . واجتمع الملك العادل ، والملك
الظاهر بالملك الأفضل ، وتأخر الملك العزيز عن دمشق .

وجرت بين الملوك الثلاثة مراسلات افضت الى الاتفاق والصلح ،
على ان تكون بلاد الملك الأفضل بحالها ، وما كان بيد « ميمون » و
« سنقر » ، على حاله ، ويكونان في خدمة « الملك العزيز » . ووقعت
الايمان والعهود على ذلك ، في شعبان من سنة تسعين وخمسائة .
وعاد « الملك العزيز » الى مصر ، و « الملك الظاهر » الى حلب ،
والملك العادل الى الشرق .

وفي سنة إحدى وتسعين اتصل القاضي « بهاء الدين أبو- المحاسن ، يوسف بن رافع بن تميم » بخدمة « الملك الظاهر » .
وقدم اليه الى حلب ، وولاه قضاء حلب ووقفها ، وعزل عن قضائها
« زين الدين أبا البيان بنا » نائب « محيي الدين ابن الزكي » ،
وحل عنده بهاء الدين في رتبة الوزارة والمشورة .

ثم إن « الملك الأفضل » استدشعر من أخيه « الملك العزيز » أن
ينزل الى دمشق ، ويحاصرها ، في سنة إحدى وتسعين ، كما فعل
في السنة الخالية ، فسار الى « قلعة جعبر » واجتمع بعمه « الملك
العادل » . بها ، وفاوضه في الوصول اليه الى دمشق ، لينصره على
الملك العزيز أن وصل الى دمشق ، أما بصلح أو بغيره ، فوافقه
على ذلك .

وتوجه الملك العادل الى دمشق ، ثم عدل الملك الأفضل الى حلب ،
الى أخيه الملك الظاهر ، ووصل اليه الى حلب ، وفاوضه في انجاده
على الملك العزيز ، فلم يجد عنده نية صادقة في الحركة معه الى
دمشق ، واشترط عليه شرائط من جعلتها أن صاحب « حماه »
الملك المنصور محمد بن تقي الدين ، وعز الدين بن المقدم صاحب
« بارين » و « بدر الدين دلدردم بن ياروق » ، صاحب « تل باشر » ،
كانوا كلهم في طاعته ، ومضافين اليه ، وبلاذهم من جملة بلاد الملك
الظاهر ، وأنهم كانوا من جملة أصحابه ، فأنحرفوا عنه ،
وانضافوا الى عمه الملك العادل .

وكان الملك العادل قد شفع إليه في دلدردم ، وأطلقه لأجله ، وضمن له
عنه الطاعة والقيام بما يجب ، فانضاف الى عمه .

وطلب « الملك الظاهر » أن الملك العادل يقوم له ، بما جرى بينه
وبينه من الشرط ، وأن لا يعرض لاتباعه المذكورين .

وسار الملك الأفضل الى دمشق ، على أن يقرر مع عمه ما التمسه
الملك الظاهر . فلم يتفق للملك الظاهر شيء مما التمسه . فعاد بالكلية

عنهما ، وأرسل الى الملك العزيز ، يحضه ، ويحرضه على قصدهما لأن الملك الأفضل مال الى الملك العادل ، وألقى أموره كلها اليه .

ووصلت رسل الملك العزيز الى الملك الظاهر ، بموافقته معه ، ومعاضدته . وحلف له الملك الظاهر ، في شهر رجب من السنة .

ونزل الملك العزيز ، من مصر ، في شهر رمضان ؛ والاسدية والاكراد مخامرون عليه ، والملك العادل والملك الأفضل ، قد كاتباهم ، فمالوا إليهما لتقديمه الملك العزيز الناصرية عليهم .

وخرج الملك الظاهر ، فنزل بقنشرين ، وعيد بها عيد الفطر ، وعيد الملك العزيز « بالفوار » ، وعزم الملك العزيز على الرحيل الى دمشق ، والنزول عليها ، ورحل أبو الهيجاء السمين والمهرانية ، والاسدية في رابع شوال . وساروا الى دمشق .

ورحل الملك الظاهر من « قنشرين » الى « قراحصار » ، قاصدا حصار منبج - وهي في يد الملك المنصور صاحب حماه - فلما وصل الملك الظاهر الى « بزاعا » ، وصله الخبر بأن العسكر خامر على الملك العزيز ، وأنه رجع عن دمشق ؛ وسار الملك الأفضل خلفه الى مصر ، فعاد الملك الظاهر الى « قراحصار » حتى اندسلخ شوال ، وبخل حلب .

ووصله الخبر بأن الملك العادل والأفضل ، سارا خلف الملك العزيز الى مصر ، ونزلا على « بلبيس » ، وبخل الملك العزيز الى مصر ، واستقر أمره بها ، وعلم الملك العادل بأنه لا يتمشى أمرهما مع الملك العزيز ، فكتب الى القاضي الفاضل ، وطلب الاجتماع به ، فألزمه الملك العزيز بالخروج إليه ، فاجتمع به ، وأصلح حاله مع الملك العزيز ، وشرط عليه أن يعفو عن الاسدية . وقال للملك الأفضل : « أنا كان مقصودي الاصلاح بينكم ، وأن لا يقع على دولتكم خلل ، وقد حصل ذلك » .

وتحالفوا ، وعاد الملك الأفضل ، ومعه أبو الهيجاء السمين ، وبقي الملك العادل مع الملك العزيز بمصر ، ووافقه ، فأنحرف الملك الظاهر عن الملك العزيز بذلك السبب ، ومال إلى الملك الأفضل .

وكان الملك العادل قد احتوى على الملك العزيز ، وأوقع في نفسه أن السلطنة تكون له في بلاد الاسلام ، والخطبة والسكة ، وكان يبلغه عن الملك الأفضل كلمات توجب الحق عليه ، فاتفق مع الملك العزيز على أن ينزلا جميعا إلى الشام ، لتقرير هذه القاعدة في جميع بلاد الشام .

فسير الملك الظاهر أخاه الملك الزاهر داود ، والقاضي بهاء الدين قاضي حلب ، وسابق الدين عثمان ، صاحب شيزر ، في سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة إلى الملك العزيز ، لتسكين الفتنة ، والرجوع إلى ما فيه صلاح النية والموافقة بين الأهل .

فوصلوا والملك العادل ، والملك العزيز ، قد خرجا مبرزين إلى « البركة » في ربيع الأول من السنة ، وأعادوا الرسل بغير زبدة ، فعرفوا الملك الأفضل في اجتيازهم عليه ، بما عزم الملك العزيز ، والملك العادل عليه ، من إقامة الخطبة والسكة للملك العزيز ، وتعجب من نقضهما الهدنة معه .

ولما وصلوا إلى حلب ، راسل الملك الظاهر ، أخاه الأفضل ، في تجديد الصلح بينهما ، وتحالفا على المعاضدة والمناصرة . ووصل إلى الملك الظاهر من الأمراء : علم الدين قيصر الناصري ، أمير جاندار أبيه الملك الناصر ، فأقطعه اللاذقية ، وأخذها من ابن السلار . وسير العلم بن ماهان ، ليعتبر ما في قلعتها ويسلمها إلى قيصر ، ويجعل الاجناد فيها على حالهم ، ويحلفهم للسلطان الملك الظاهر .

وكان العلم بن ماهان ، إذ ذاك عند الملك الظاهر في محل الوزارة فلما وصل إليها ، وبخل قلعتها طمع باللاذقية ، وحدثته نفسه

بالعصيان ، واستحلف الاجناد لنفسه ، وخالفه بعضهم ، وامتنعوا ، وكتبوا الى « الملك الظاهر » ، وقبضوا على ابن ماهان فسارع الملك الظاهر ، وخرج الى اللاذقية ، وصعد الى القلعة ، وأحضر ابن ماهان ، وقطع يده ، وقلع عينه ، وقتل غلاما من خواصه ، وقطع لسان البدر بن ماهان قرابته وانفيه ، وسلخ العامل النصراني الذي كان بها .

واحتوى على جميع ما كان لابن ماهان ، وفرقه ، ودخل الى حلب وهو معه ، فأركبه حمارا مقلوبا ، وعلى رأسه خفاف امرأة ، ويده معلقة في عنقه . وطيف به على تلك الحال ، ولطم بالدرة ، ثم صعدوا به الى القلعة ، فالتقاه « ابن منيفة » بوابها ، وقال له : « اريد حقي منك » . وأخذ نعله من رجله ، ولطمه به لطمًا كثيرا . وحبس في القلعة .

وتحدث بعض الناس أن الملك الظاهر أراد أن يرجع عن اقطاع قيصر اللاذقية ، فكتب الى ابن ماهان يأمره بالعصيان ، ثم التزم بما فعل ، ولم يظهر صحة ذلك .

ولما دخل السلطان الملك الظاهر من اللاذقية ، سير عسكرا من عسكر حلب ، نجدة لأخيه الملك الأفضل ، ووصل الملك العزيز والملك العادل ، فنزلا على دمشق ، وحصراها ، وتسلمها الملك العزيز بمخامرة ، أوجبت دخول الملك العادل من « باب توما » ، والملك العزيز من باب « الفرج » .

وخرج الملك الأفضل من القلعة ، وعوض عن دمشق بصرخد ، فسار اليها ، ووصل « الملك الظاهر » إلى أخيه « الملك الظاهر » إلى حلب ، فأكرمه ، واحتفل به ، وذلك في شعبان من سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة .

وشرع « الملك الظاهر » في حفر الخنادق بحلب وتحصينها ، وسير

القاضي بهاء الدين ، وغرس الدين قلج ، الى الملك العزيز ، يطلب موافقته ، وكان قد رحل الى مصر ، وابقى الملك العادل بدمشق .

وخرج « الملك الظاهر » الى « مرج دابق » ، وأقام بها وأظهر أن صاحب « مرعش » عاث في بلد « رعبان » ، وسير يقدمه عسكره الى « عين تاب » ، فخاف صاحبها حسام الدين بن ناصر الدين ، وحفظ القلعة . ونزل العسكر في الرض مظهرين أن صاحب مرعش سير الى « الملك الظاهر » واعتذر ، وانقاد الى طاعته ، وحلف له .

أفرحل السلطان الى « الراوندان » ، وأقام بها ثلاثة أيام ، ورحل الى « عزاز » ليلا ، وهي في ايدي نواب الأمير « سيف بن علم الدين علي بن سليمان بن جندر » ، وكان مريضا بحلب ، فأراد السلطان أن يصعد الى القلعة من شدة المطر ، فمنعه من في القلعة أن يطلع إلا بانن « سيف الدين » ، فسار الى « دربساك » وبها « ركن الدين الياس » ابن عم « سيف الدين » ، فقبض عليه .

وعاد الى حلب مغضبا ، ودخل الى دار سيف الدين بنفسه ، وأخذه في محفة ، وسيره الى « عزاز » ليسلمها ، ووكل به « حسام الدين عثمان بن طمان » ، فوصل معه اليها وسلمها الى نواب السلطان « الملك الظاهر » ، وعادوا به الى حلب .

ولما جرى على سيف الدين ذلك ، وكانت « دربساك » معه ، وفيها ماله ونوابه ، وبها جماعة من أسرى الفرنج ، فأسعملوا الحيلة ، وكسروا القيود ، وفتحوا خزانة السلاح ، ولبسوا العدد ، وقاموا في القلعة ، فاحتفى الوالي في القلعة مع جماعة من الأجناد ، والقتال عليهم . فعلم الملك الظاهر ، بذلك ، فخرج مجدا في السير حتى وصل « درب ساك » ، فوجد الوالي قد انتصر على الأسرى ، وقتلهم .

وعاد السلطان الى « حارم » ، ثم دخل الى حلب ، فأقام حتى

تقضت سنة اثنتين وتسعين . ووصله القاضي « وقلج » بجواب الملك العزيز ، بانتظام الصلح بينه وبينه .

ورحل الملك العادل الى بلاده الشرقية ، ووصل ابنه « الملك الكامل محمد » الى حلب ، زائرا ابن عمه الملك الظاهر ، وكان قد طلبه من ابيه ليزوره ، فالتقاه الملك الظاهر ، وأحسن ضيافته ثم سار الى أبيه .

وعصى « سربك » « برعبان » على الملك الظاهر ، وقد كانت في يده ، عوضه بها عن « حارم » وكان من مماليك أبيه الشجعان ، فأظهر الملك الظاهر أنه يخرج الى الغزاة ، وخرج الى « قدسرين » ، ثم عطف من غير أن يعلم أحد حتى وصل الى « رعبان » ، فنزل عليها ، وأقام أياما لا يقاتلها ، في شهر رمضان ، من سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة .

واستغل بلدها ، فلبس « سربك » سلاحه ، وركب ، وحوله جماعة ، قد لبسوا ، وفتح باب القلعة ، ونزل الى السلطان ، والتمس منه العفو فعفا عنه . ورد « رعبان » إليه وسار ، الى حلب ، فأقام بها الى اول ذي الحجة من سنة ثلاث وتسعين .

وكان الملك العادل قد سار الى « الغور » لحركة الفرنج ، واستصحب معه نجدة من الملك الظاهر ، فوصلت رساله الى السلطان الملك الظاهر ، يخبره ان الفرنج قد عزموا على قصد جبلة واللاذقية فخرج الملك الظاهر الى « الاثارب » ، وسير الحجارين والزرايين ، لهدم حصني جبلة واللاذقية . وسار « المبارك أقجا » لهدم « جبلة » فهدموا سورها ودورها ، وأجلى أهلها منها .

وسار غرس الدين قلج ، وابن طمان ، لهدم اللاذقية ، فنقبوا القلعة ، وعلقوها ، ورفعوا نخائرها ، وهدموا المدينة ، ونهب أهلها ، وبقي العسكر منتظرا وصول العدو ، ليلقوا النار في الاخشاب المحشوة في الانقاب ، فلم يصل احد منهم .

وجاء البرنس في البحر تحت « المرقب » ، وطلب غرس الدين وابن طمان فوصلوا اليه ، وكلماه على جانب البحر ، فأشار عليهما بأن لا تهدم اللاذقية ، واخبرهما ان الفرنج فتحوا « صيدا » و « بيروت » ، وعادوا الى « صور » .

فسيرا وأعلما السلطان وهو « بريحا » (١) فأمر ببناء ما استهدم منها ، وسار الى « حارم » ، فوصلها في محرم سنة أربع وتسعين . وأقام بها مدة ، ثم رحل الى اللاذقية ، فعمرها وعمر ضياعها ، وتوجه الى حلب .

وتوفي غرس الدين قلج ، فعصى أولاده بالقلع التي كانت بيده ، وهي : « دركوش » ، و « الشغر » ، و « بكاس » ، و « شقيف الروج » ، وامتنعوا من تسليمها الى الملك الظاهر ، فخرج اليها ، ونازلها ، وأخذ عليها الذقوب ، واستنزلهم منها ، وصدف عن جرمهم ، وأجرى لهم المعيشة السنية ، وتقدم عنده منهم : سيف الدين علي بن قلج .

ودخلت سنة خمس وتسعين

ومات الملك العزيز بمصر ، واختلف أمراؤها ، فمال الأسدية الى الأفضل ، والناصرية الى الملك العادل .

وانقاد الناصرية على نيات غير موافقة ، واستدعوا الملك الأفضل ، فسار من « صرخد » الى مصر وبخلها ، وتلقاه اخوته على مرحلتين منها ، واستوثقوا منه بالايمان ، على ان يكون كافلا للملك المنصور « محمد بن الملك العزيز » ومربيا له .

وخرج الجحاف ، وجهاركس ، الى « ميمون » الى القدس ، فقيد « الملك الأفضل » أخاه « الملك المؤيد » وجماعة من الأمراء كاتبوا « الملك العادل » ، وأرسل الملك الظاهر وزيره نظام الدين أبا المؤيد محمد بن الحسين ، الى أخيه الملك الأفضل ، مهنئا له بدولة مصر ، فأقام عنده مدة ، والرسل تتردد اليه من « الملك الظاهر » في الاتفاق على الملك .

وكان الملك العادل ، اذ ذاك محاصرا « ماريدين » ، وقد أشرف على اخذها ، فسار الملك الأفضل الى دمشق ، وخرج الملك الظاهر الى « حارم » ، لغدر وقع من الفرنج بناحية « العمق » أغاروا على التركمان ، في تلك الناحية . وسير بعض العسكر الى « خناصره » ليقطع الطريق على الملك العادل إن توجه الى دمشق .

وصالح الملك الظاهر الفرنج ورحل الى « مرج قراحصار » في سلخ رجب من سنة خمس وتسعين .

وسار الملك العادل حتى بلغ الى « تدمر » ، وسار في البرية الى دمشق ، ونزل الملك الأفضل على دمشق ، في نصف شعبان من السنة ، ونزل بعض عسكره في « الميدان » ، وهجم بعض العسكر

المدينة بمخامرة من أهلها ، ونادوا بشعار الملك الافضل ، وكان مجد الدين - أخو الفقيه عيسى - هو الذي بخل منها حتى بلغ السوق ، وشربوا الفقاع ، فخرج الملك العادل ، من القلعة ، وأخرجهم من البلد .

· وخامر بعض العسكر على « الملك الافضل » وبخلوا في الليل الى دمشق ، فاقتل الأمر عند ذلك ، وتأخر الملك الافضل الى « جسر الخشب » .

وسار الملك الظاهر الى حماه ، فالتقى سيف الدين طغرل الظاهري قطعة من عسكر حماة سائرة الى منبج فسظفر بها « طغرل » وأسر رجالها ، وأحضرهم الى الملك الظاهر ، فأطلقهم بعدتهم ودوابهم .

ولما وصل الملك الظاهر الى « حماة » منعه عسكرها من العبور على الجسر فعبر قهرا ، ونزل عليها ، وقتلها ، فهادنه الملك المنصور صاحبها ، وأخرج اليه مقدمة سنية ، وسير عسكره في خدمته ، فأقطعه الملك الظاهر « بارين » وكانت في يد ابن المقدم ، فخرج صاحب « حماة » اليها محاصرا لها .

وسير الملك الظاهر الى « الموصل » رسولا يأمر صاحبها بانجاد « ماربين » وترحيل الملك الكامل والملك العادل عنها ، ووصل الملك الظاهر الى دمشق ، واجتمع بالملك الافضل في منزلته ، وخيموا بأرض « داريا » ، ثم إنهم زحفوا على المدينة ، وقتلوها .

وبلغ الملك الظاهر ان « جهاركس » و « سامة » و « سراسنقر » وغيرهم ، قد عزموا على الدخول الى دمشق ، نجدة للملك العادل ، فسير الملك الظاهر عسكرا مقدمه « سيف الدين بن علم الدين » ، ليمنعوه من الدخول ، فاختلفوا في الطريق ، وبخل المذكورون الى الملك العادل ، فاشتد بهم ازره ، ولم يكن ينصح في القتال ، وقت الحصار غير العسكر الحلبي ، فأما المصري فأكثره منافق .

ووصل المواصلة الى « مارين » ؛ ورحلوا الملك الكامل عنها ،
ونهبوا ما كان لعسكره بها ، فضربت البشائر خارج دمشق في
العسكر .

وسير الملك « الظاهر » عسكرا ، مقدمه « سيف الدين » المذكور
الى الشرق ليجمعوا مع المواصلة ، ويحصروا بلاد الملك العادل
بالشرق ، وأقطع سيف الدين « سروج » وكان الامر قد استقر مع
المواصلة ، أن يرد إليهم سروج والركة . فلما علموا بأن السلطان
أقطع سيف الدين « سروج » انصرفوا عنه ، وعادوا ، وخرج عسكر
الرها ، فوقعوا على سيف الدين فانهزم عن سروج .

وفتح الملك المنصور صاحب حماة « بارين » في ذي القعدة من ابن
المقدم ، وعوضه عنها بمنبج ، بعد ذلك ، على ما سنذكره فيما بعد .
ووصلت رسل الشرق الى الملك الظاهر - وهو على دمشق -
واتفقوا على ان يكون لصاحب الموصل حران ، والرها ، والركة ،
وسروج ، وأن يكونوا يدا واحدة على من خالفهم ، وتحالفوا على
ذلك ، في ذي الحجة من سنة خمس وتسعين وخمسمائة .

وبخلت سنة ست وتسعين

والحصار على دمشق على حاله ، وأكثر الأجناد يحملون الأزواد في الليل ، ويبيعونه على أهل البلد ، فأخرج الملك العادل خزائنه جميعها ، ثم اقترض من التجار جملة كبيرة ، وأمر بعمل الروايا والقرب ، للصعود إلى مصر ، واستدعى ابنه الملك الكامل من البلاد الشرقية ، فجمع وحشد .

وسير الملك الظاهر إلى سيف الدين بن علم الدين ، وإلى الملك المنصور صاحب حماة ، فاجتمعوا على « سلمية » ليمنعوا الملك الكامل من العبور ، فعبر في جيش عظيم ، لم يكن لهما به طاقة ، فانحازوا إلى « حماة » ، وساق سيف الدين بن علم الدين ، وأعلم السلطان الملك الظاهر بذلك .

ووصل الملك الكامل إلى دمشق ، فرحل الملك الظاهر ، والملك الأفضل ، إلى « مرج الصفر » ، ثم إلى « رأس الماء » .

ورحل الملك الظاهر ، وأخفى نفسه جريدة إلى ناحية « صرخد » ومعه الملك المجاهد صاحب حمص ، وسار إلى طرف « السماوة » ، وخرجوا إلى « تدمر » . وسار الملك الظاهر إلى حلب ، ووصل بعده بغال الذقل ، دون الجمال على البرية ، حتى وصلوا إلى « القريتين » ، ولحقهم الملك الكامل « بالقريتين » ، وهو مسرع إلى الشرق ، ووقع عسكر حلب على قطعة من أصحابه ، فظفروا بهم .

فلما وصل الملك الكامل ، وقد دخل ثقل السلطان إلى « القريتين » ، سير إلى مقدم عسكر حلب « علم الدين قيصر الناصري » ، واستدعاه ، وقال له : « ما بيننا وبينكم إلا الخير ، وما جئنا لنتبعكم ، فردوا علينا ما أخذتم لنا » . ففعل ذلك ، وسار

الملك الكامل الى الشرق ، ووصلت البغال الى حلب ، في تاسع عشر شهر ربيع الاول .

واما الملك الافضل ، فانه توجه من « رأس الماء » الى مصر ، وتوجه ثقل الملك الظاهر وخزائنه معه الى مصر ، وخرج الملك العادل من دمشق ، وسار خلفه الى مصر ، فنخلها ، وهرب الملك الافضل الى « صرخد » .

واستولى الملك العادل على الديار المصرية ، في صورة الكافل ، والمربي ، للملك المنصور محمد بن العزيز ، وسير خزانه « الملك الظاهر » ، وبقيّة ثقله جميعه إليه ؛ وخفر أصحابه حتى وصلوا الى حلب ، في نصف جمادى الاولى ، والسلطان « بتل السلطان » ، فنخل الى حلب .

ووصلته رسل الملك العادل تطلب منه الموافقة ، فلم يجبهم الى ذلك ، وخرج الى « بكاس » و « حارم » فمرض . وبخل حلب ، واشتد مرضه ، وطلب اليه الى القلعة الزهاد الذين كانوا بحلب ، مثل ابي الحسن الفاسي ، وعمي ابي غانم ، وعبد الرحمن ابن الاستاذ ، وسألهم الدعاء ، وتبرك بهم ، وازال مظالم كثيرة . ثم ابل من مرضه ذلك ، في ذي الحجة من سنة ست وتسعين .

وانفصل عنه صاحب حمص وصاحب حماه ، وصارا مع عمه الملك العادل ، وعوض صاحب حماة عز الدين بن المقدم بمنبج عن « بارين » ، بإشارة الملك العادل . ومات ابن المقدم بأفامية ، وصار فيها أخ له صغير .

واستقل الملك العادل بملك مصر ، وقطع الخطبة والسكة للملك المنصور بن العزيز ، واختلف جندها ، فمنهم من مال الى تمليك الملك العادل ، وأقام في خدمته ، ومنهم من كان يريد ابن العزيز ، فانفصل منهم جهاركس ، والجحاف ، وغيرهما ، فانهم انفصلوا عن مصر ، واتفقوا مع الملك الافضل .

فوصل الملك الافضل الى أخيه السلطان الملك الظاهر الى حلب ،
في عاشر جمادي الأولى من سنة سبع وتسعين وخمسمائة ، ووصل
معه الجحاف ، واخبراه أن جهاركس « بالغور » ، مع العسكر ،
واتفقوا على محاصرة دمشق .

وسير الملك الظاهر الى الموصل بطلب نجدة تصله ، وبرز مع أخيه
الافضل ، وقصدا منبج ، ففتحها الملك الظاهر ، وقبض على ابن
المقدم وحبسّه ، وأقطعها الجحاف ، بعد أن خرب حصنها .

وكان ابن فاخر سعد الدين مسعود بقلعة نجم ، نائباً عن ابن
المقدم ، وأخته معه ، فسلمها الى « الملك الظاهر » ، وعوضه
« بمائز » - قرية من بلد عزاز - وسلمها الملك الظاهر الى
الافضل .

وسار الى أفامية ، ومعه ابن المقدم ، فعاقبه تحتها ليسلموا
اليه ، فلم يسلموا ، فسيره ، وحبسّه ، بحلب ، وأقام بكفر طاب ،
واستولى على بلدها ، ونزل بمعرة النعمان ، ونهب بلدها ، وأخذ ما
فيها لبيت المال ، وسار الى حمص ، ونزل عليها ، في
شعبان ، وقتلها الى أن صالحه الملك المنصور صاحبها ، ووزن له
ثلاثين ألف دينار ، ووافقه .

وسار الى حمص ، فصالح الملك المجاهد صاحبها ، ووافقه ،
وسار الى دمشق فنازلها ، واستدعى « جهاركس » و « قراجا »
من الغور فدافعا عن الوصول ، فسار السلطان الملك الظاهر اليهما
بذفسه ، ولاطفهما حتى رحلا معه ، بعد أن أعطى الملك الافضل
قراجا « صرخد » ، وأخرج امه وعياله منها ، ونزلوا على دمشق
وعزموا على قتالها ، ففند جهاركس عن ذلك ، وكان قد صار في
الباقيين مع الملك العادل ، وقال : « المصلحة أننا نلقى الملك العادل ،
فاذا كسرناه تم لنا ما نريد » .

وكان الملك العادل قد نزل من مصر الى « الكرك » ، ثم توجه الى نابلس ، فلما رأى جهاركس جد الملك الظاهر على حصار دمشق ، هرب من العسكر الى الملك العادل الى نابلس ، وهرب قراجا الى صرخد ، وعصى بها وتركها خيامهما على حالها وبركهما ، فأذهب السلطان الملك الظاهر ذلك جميعه ، ثم زحف بالعساكر على دمشق ، وقتلوها قتالا شديدا ، وأحرقوا « العقيبة » ونهبوا الخانات .

وراسل الملك العادل صاحب الموصل ، فاتفق معه ، ورجع عن الملك الظاهر ، بعد ان وصل الى « رأس عين » (٢) .

وسار الملك « الفائز بن العادل » من البلاد الشرقية ، طالبا تشييث بلاد السلطان الملك الظاهر ، وشغل خاطره عن حصار دمشق ، فسير الملك الظاهر « المبارز أقجا » - وكان من أكبر أمراء حلب - ومعه بعض العسكر ، فنزل على « بالاس » ونهبها ، وسار الى « منبج » فنزلها ، فوصل الملك « الفائز » إليها ، فانهزم بمن كان معه من العسكر الى « بزاعا » ، وبخلها الفائز « وبنى قلعتها وحصنها ، وسار منها طالبا عسكر حلب الى « بزاعا » فاندفعوا بين يديه الى حلب ، وأقام على بزاعا أياما ، وجفل بلد حلب خوفا منه ، وهرب فلاحوه .

ورحل الى أبيه إلى نابلس ، فسير الملك العادل نجدة تدخل الى دمشق ، فبلغ حديثها الملك الظاهر ، وقد أهدقت العساكر بدمشق ، فكمن لهم كميناً ، فوقعوا عليهم ، وقتلوا منهم جمعا كثيرا ، وانهزم بعضهم ، ولم يدخل إلى المدينة الا القليل . ونكث صاحب حماة ، وخرج الى ناحية « الروج » ، وأغار عليه ، ونهب رستاق « شيزر » .

وسار عسكر حلب الى منبج ، فلم يجد فيها مطمعا ، واستدعاهم الملك الظاهر ، فمضوا اليه الى دمشق ، وطال الحصار ، وضجر العسكر ، وهرب شقير ، والجحاف ، بعد استيلاء الفائز على منبج ، وكانت خبز الجحاف .

ووقع الخلف بين الملك الأفضل والملك الظاهر على دمشق ، فالملك الظاهر يريد لها لنفسه ، لانه أخرج الخزائن ، وبذل الأموال ، وحصرها بعسكره ، والملك الأفضل يريد لها لنفسه لأنها بلده ، وأنه أخرج « صرخد » من يده بسببها . وحصل بينهما منافرة أوجبت رحيل الملك الظاهر ، ومعه ميمون القصري ، وسراسنقر ، وأيبك فطيس ، والبكي الفارس ، والقبيسي .

ورحل الملك الأفضل فنزل حمص ، عند صاحبها الملك المجاهد ، وزوج ابنه « الملك المنصور إبراهيم » بابنة الملك الأفضل .

وسار الملك الظاهر الى حماة ، فأغار عليها ، وشعث بلدها ، وصانع صاحبها الملك المنصور ، على مال اخذه منه وسار الى منبج ، وعزم على ان يهجمها بالسيف ، ويقتل جميع من بها ، لأنهم قاموا مع الملك « الفائز » فشفع اليه الأمراء في ان يسلموها طائعين ، ويعفو عنهم ، فتسلمها ، وأقطعها ابن المشطوب ، في المحرم من سنة ثمان وتسعين وخمسمائة .

ثم دخل الى حلب ، وأقطع ميمون القصري عزاز ، وشيخ ، وبلد الحوار ، وأقطع أيبك فطيس اقطاعا أرضاه ، وعاد عنه سراسنقر ، وتسلم السلطان أقمية من ابن المقدم وعوضه عنها « بالراوندان » .

وتوفي وزير السلطان الملك الظاهر « جمال الدين أبو غالب عبد الواحد بن الحصين البغدادي » في شعبان سنة سبع وتسعين ، وكان في خدمة أبيه الملك الناصر ، فانتقل بعد موته الى حلب ، ووزر له ، وصار وزيره بعده نظام الدين أبو المؤيد محمد بن الحسين .

ووصل الملك العادل الى دمشق ، فتوجه اليه الملك المجاهد صاحب حمص ، ومعه الملك الأفضل ، وترفق اليه ، فأعطى الملك الأفضل « شـبـخـتـان » و « جـمـلـين » و « الموزر » و « قلعة السن » و « سـمـيـسـاط » وسار اليها الملك الأفضل ، ونزل الملك العادل الى حماة ، وراسل الملك الظاهر ، حتى استقر الصلح بينه وبينه ، على

أن خطب له الملك الظاهر بحلب ، وضرب السكة باسمه مع اسمه ، في شهر جمادى الآخرة ، من سنة ثمان وتسعين وخمسمائة .

وصعد الرسول شمس الدين بن التنبلي الى المنبر ، وقت اقامة الدعوة له ، يوم الجمعة ، ونشر نهباً كثيراً على الناس . وبلغ الملك الظاهر ، عن ابن المشطوب ، أنه كان قد عزم على المخامرة ، فسير الى « منبج » العسكر ، وأخذها منه ، وعفا عنه ، وهدم قلعتها وسورها ، فمضى ابن المشطوب الى الشرق .

وجمع الملك الظاهر العرب في دابق ، لأخذ العداد منهم ، وخاف ابن المقدم منه ، فهرب الى « الراوندان » ، ليعصي بها ، فسار الملك الظاهر خلفه ، ولم يمهله ، فلم يبت في قلعتها غير ليلة واحدة ، ومضى الى « بدر الدين دلدرد » ، بتل باشر ، منهزماً من السلطان . فوصل السلطان اليها ، ونزل عليها محاصراً لها ، فسلمها من كان بها اليه ، وحاز جميع ما كان فيها من النخائر والاموال ، ورتب امورها .

وسار منها الى منبج ، وسير نجدة للملك الكامل ابن عمه العادل ، وكان نازلاً على « مارين » ، لأن صاحبها صار مع ركن الدين بن قلج رسلان ، ونزل السلطان في « بدايا » ، واتفق الامر بينه وبين [صاحب] « مارين » وابن الملك على الصلح ، فعاد الى حلب بعد ان توجه الى « البيرة » .

وخرج من البحر جمع كبير من الفرنج ، في سنة تسع وتسعين وخمسمائة . ووصلت طائفة منهم الى جهة « انطاكية » ، مجتازة على اللاذقية في البر ، وكان مقطع اللاذقية اذ ذاك ، سيف الدين بن عام الدين ، وعبروا في ارض اللاذقية ، على كره من المسلمين ، وفي عزمهم ان رأوا لهم طمعاً في اللاذقية يأخذوها .

فخرج سيف الدين بعسكره ، والتقوا ، ونصره الله عليهم ،

واسر ملوكهم ومقدميهم - وكان ملكهم أعور - وقتل منهم جمعا كثيرا ، ووصل الأسرى ، والرؤوس ، والخيول ، والسلاح ، الى حلب وكانت غنيمة عظيمة .

وعصى الملك الأفضل على عمه الملك العادل ، في البلاد التي كان اعطاه إياها ، فسير ، واستعاد منه شبختان ، وجملين ، والموزر ، وسروج ، والسن ، وسار الملك الظاهر الى « قلعة نجم » ، فأخذها من الملك الأفضل خوفا أن يستولي عليها عمه ، وكان « الملك الظاهر » قد سلمها الى الأفضل ، فوصلت أم الملك الأفضل الى حلب ، تسأل الملك الظاهر ، سؤال عمه فيه ، وفي رد البلاد عليه ، فسير معها الى دمشق « سيف الدين بن علم الدين » في ذلك فلم يجب الى ترك شيء من البلاد عليه ، سوى « سميساط » . وشرط عليه أن لا تكون له حركة بعد ذلك .

ودخلت سنة ستمائة

ووصلت الأخبار بحركة الفرنج الى « جبلة » و « اللاذقية » ، فسير السلطان اليها العساكر ، وأمرهم بخراب « جبلة » و « اللاذقية » فلم يكن للفرنج حركة ، وخربت قلعة « اللاذقية » و « العتيقة » - وكانت من جهة الشمال - وذلك بعد ان اخذت اللاذقية من ابن جندر - سيف الدين بن علم الدين .

وولد للسلطان « الملك الظاهر » ولده ، الملك « الصالح أحمد » في صفر ، وسر به سرورا عظيما ، وزين البلد والقلعة ، ولبس العسكر في أجمل هيئة وزى . ولبس السلطان ، ولعب العسكر معه في ميدان « باب الصغير » .

وفي محرم سنة احدى وستمائة ، هجم ملك الارمن « ابن لاون » - وهو من ولد « بردس الفقاس » ، الذي كان في زمن سيف الدولة [صاحب] انطاكية - فسير الملك الظاهر عسكرا من حلب ، لنجدة البردس صاحبها ، فلما وصلوا الى « العاصي » ، ضعف أمر ابن « لاون » عندهم ، وقاموا عليه ، وأخرجوه منها ، وقتلوا جماعة كبيرة من أصحابه ، فعاد عسكر حلب اليها ، ففسخ « ابن لاون » الهدنة ، وأغار على بلد العمق ، واستاق مواشيها وشرع في عمارة حصن داثر في الجبل ، بالقرب من « دربساك » ، ليضيق به عليها .

وارسل الى السلطان ، وسأله أن يخلي بينه وبين « انطاكية » . وأن يعيد جميع ما اخذه من « العمق » فأجابه الى ذلك ، وهابنه على هذا الأمر . ونزل على « انطاكية » ، وخرب رستاقها ، ووقع فيها غلاء عظيم ، فكان الملك الظاهر يمد أهل « انطاكية » بالغلال ، حتى قويت .

ودخلت سنة اثنتين وستمائة

فجرد « ابن لاون » في جمادى الاولى ، في الليل ، عسكريا في ليلة الميلاد ، وجاء على غفلة الى ربض « دربساك » ، فلم يذكروا وقود النار في ليلة الميلاد ، فقاتلهم اهل الربض ومن به من الاجناد ، في بيوت الربض ، فلم يظفروا منهم بطائل ، وطلع الفجر ، فانتشروا في ارض « العمق » ، ونهبوا من كان فيه من التركمان ، وداموا الى ضحوة ذلك النهار ، ورجعوا .

وابتدرت عساكر تلك الناحية من المسلمين فلم يدركوهم ، وبخل الارمن الى « جبل اللكام » ، فجاءهم في الليل ثلج عظيم ، وهلك معهم من الخيل والمواشي ، فكانوا يسألون الاشياء ويلبسون جلوبها ، اشد البرد ، فسير الملك الظاهر عسكريا من عسكر حلب يقدمه « ميمون القصري » ، ومعه « أيبك فطيس » ، فنزلوا على « حارم » ، وقطعة من العسكر مع ابن طمان « بدربساك » ، وسيف الدين بن علم الدين نازل بعسكره على « تيزين » - وكانت جارية في اقطاعه - وفي اكثر الايام تجري وقعتات بين العسكر المقيم « بدربساك » ، وبين عسكر ابن لاون « ببغراس » .

وخرج السلطان الى « مرج دابق » ، في شعبان من هذه السنة ، للدخول الى بلد « لاون » ، وجمع العساكر ، وسير اليه عمه « الملك العادل » ، وغيره من ملوك الاسلام النجد ، فأقام « بدابق » الى ان انسلخ شهر الصيام .

فسار « ابن لاون » من « التينات » ، جاء على غير طريق اليزك في الليل ، فأصبح في « العمق » غائرا على غرة من العسكر ، وكبس العسكر الذي كان مع ميمون ، حتى حصلوا معهم في الخيام ، وقابلوهم على غير ابهة فقاتلهم المسلمون ، فقتل منهم جماعة ، ولم يلبث إلا قليلا ، عاد وساق سيف الدين من « تيزين » ، فوجده قد رجع .

وبلغ الخبر إلى السلطان ، وهو « بدابق » ، فسار بالجيش التي معه فنزل « بالعمق » ، واجتمع من العساكر والتركمان مالا يحد كثرة ، فسير « ابن لاون » يبذل الطاعة ، وأن يهدم الحصن الذي بناه بقرب « دربساك » .

فأعرض عنه ، ورد فلاح « العمق » ، وعمر ضياعه ، وكمل استغلال ذلك البلد ، والرسال تتردد في اصلاح الحال ، إلى أن استقرت القاعدة : على أن يهدم « لاون » الحصن الذي بناه ، ويرد جميع ما أخذ في الغارة ، ويرد جميع أسارى المسلمين الذين في يده ، وأن لا يعرض « لأنطاكية » . وقرر الصلح الى ثماني سنين ، وخرب الحصن ، ورد ما استقر الأمر عليه .

وبخل السلطان حلب ، في سنة ثلاث وستمائة ، وأمر جماعة من مماليكه وأصحابه . وعاث الفرنج على بلد « حماة » ، في سنة خمس وستمائة ، فسير الملك الظاهر من حلب ، نجدة من عسكره .

ونزل الملك العادل على « قدس » ، وغارت خيله على طرابلس ، وخربوا حصونها ، وشتى « بحماة » الى ان انقضى فصل الربيع .

وعاد الى دمشق ، وعاد ابنه « الأشرف » ، الى بلاده ، من خدمة ابيه ، فعبر في حلب ، فالتقاء الملك « الظاهر » ، واحتفل به ، وانزله في داره بقلعة حلب ، وقدم له تحفا جليلة من السلاح ، والخيول ، والذهب ، والجوهر ، والممالك ، والجواري ، والثياب ، بما قيمته خمسون ألف دينار ، وودعه بعد سبعة أيام الى قرا حصار ، وعاد الى حلب .

وقصد كيخسرو بن قلج أرسلان بلاد « ابن لاون » ، وطلب نجدة من السلطان الملك الظاهر ، فأرسل إليه عسكرا مقدمه سيف الدين ابن علم الدين ، وفي صحبته أبيك فطيس ، فاجتمعوا بمرعش ، ونزلوا على برتوس (٣) في سنة خمس وستمائة ، فافتتحوها ، وافتتحوا حصونا عدة من بلد ابن لاون .

فراسل « لاون » الملك العادل ، والتجأ اليه ، فأرسل الملك العادل الى كيوخسرو وإلى الملك الظاهر ، فابتدر كيوخسرو ، وصالح « ابن لاون » على ان يرد حصن « بفراس » إلى « الداوية » ، وأن لايعرض لانطاكية ، وأن يرد ماله الذي تركه عنده ، في حياة أخيه ركن الدين .

وكان قد خاف من أخيه ، فقدم حلب ، وأقام عند الملك الظاهر مدة ، وخاف الملك الظاهر من أخيه ركن الدين ، وأن يتغير قلبه عليه بسببه ، وأنه ربما يطلبه منه ، فلا يمكنه تسليمه إليه ، فأعرض عنه . فدخل إلى « ابن لاون » ، ثم خاف منه ، الهدنة . ودفع إليه جميع الأسرى من المسلمين ، الذين كانوا في بلاده ، وأن لايعرض لبلاد السلطان الملك الظاهر . ووصلت نجدة حلب إلى حلب .

وخرج العادل من دمشق ، في سنة ست وستمائة ، وطلب من الملك الظاهر نجدة ، تكون معه إلى الشرق ، ليمضي الى خلاط ، لدفع « الكرج » عنها ، فسير إليه نجدة ، وعبر « الفرات » .

فلما وصل الى « رأس عين » ، رحل « الكرج » عن خلاط ، ووصل اليه صاحب « آمد » ، فسار في العسكر الى « سنجار » ، واقطع بلد الخابور ، ونصيبين .

ونزل على « سنجار » محاصرا لها ، وشفع اليه مظفر الدين بن زين الدين ، في صاحب سنجار ، فلم يقبل شفاعته . وقال : « لايجوز لي في الشرع ، تمكين هؤلاء من أخذ أموال بيت المال في الفساد ، وترك خدمة الأجناد ، في مصلحة الجهاد » ، وضايق سنجار ، وقتالتها في شهر جمادى الآخرة .

وقام نور الدين بن عز الدين - صاحب الموصل - في نصرة ابن عمه صاحبها ، واتفق مع « مظفر الدين » ، وتحالفا ، وافسدا جماعة من عسكر « الملك العادل » ، وراسلا « الملك الظاهر » ، على ان يجعلاه السلطان ، ويخطبوا له ، ويضربوا السكة باسمه .

وجعل « الملك الظاهر » يداري الجهتين ، والرسل تتواتر اليه من البلدان ، وهو في الظاهر في طاعة عمه ، وعسكره معه ، وفي الباطن في النظر في حفظ سنجار ، ومداخلة المواسلة ، وهو يظهر لعمه أنه متمسك بيمينه له ، الى ان ارسل أخاه « الملك المؤيد » ، ووزيره « نظام الدين الكاتب » الى عمه ، معلما له أن رسول الموصل ، ومظفر الدين ، وصلا يطلبان منه الشفاعة اليه ، في اطلاق سنجار ، وتقرير الأمر على حالة يراها .

وتوسط الحال عند قدومه ، على ان شفع فيهم الملك الظاهر ، واطلق لهم « سنجار » ، واستنزلهم عن « الخابور » و« نصيبين » .

وعاد « الملك المؤيد » ، من حضرة عمه بالبر الوافر ، فلما وصل « رأس عين » ، دخل إليها في ليلة باردة كثيرة الثلج . فنزل في دار فيها منزل مجصص ، فستر بابه ، وسد ما فيه من المنافس ، واوقد فيه نار في منقل ، وعنده ثلاثة من أصحابه ، فاختنق ، وواحد من أصحابه ، وحمل الى « حلب » ميتا في شعبان ، من سنة ست رستمائة ، وجرى على الملك الظاهر منه ما لا يوصف من الحزن والأسف .

ووصل الملك العادل الى « حران » ، وخافه صاحب الموصل والجزيرة ، فراسل الملك الظاهر ، وطلب منه أن يخلي بينه وبين ملوك الشرق ، وأن يحتكم في ما يطلبه منه ، وراسله صاحب الموصل وصاحب اربل ، وصاحب الجزيرة ، يعتضدون به وهولا يؤيسهم ، فخرج السلطان الى « حيلان » بعسكره ، ثم رحل الى « السموقة » لوراسل عمه في مهادنتهم ، وتطبيب قلوبهم ، وهو مخيم على « السموقة » على نهر قويق - وطلب منه أن تكون كلمة المسلمين كلهم متفقة .

وكذلك تدخل في الصلح ملك الروم ، وأن يقصدوا الفرنج

بجملتهم ، فان الفرنج في نية التحرك ، وخامر جماعة من عسكر الملك العادل ، ووصل ابن كهدان الى السلطان الملك الظاهر ، فأكرمه ، فتخاذل عسكر الملك العادل ، فاتفق الحال بينهم على الصلح ، وبخول ملوك الاسلام فيه .

وتمت المصاهرة بين « الملك العادل » و « الملك الظاهر » ، على ابنته الخاتون الجليلة « ضيفة خاتون » - بنت الملك العادل - وشرع السلطان في عمل « قناة حلب » وفرقها على الأمراء والخواص . وحرر عيونها وكلس طريقها جميعه ، حتى كثر الماء بحلب . وقسم الماء في جميع محال حلب . وابتنى القساطل في المحال . ووقف عليها وقفاً لاصلاحها ، وذلك في سنة سبع وستمائة .

وتوفي وزير السلطان الملك الظاهر « نظام الدين محمد بن الحسين » بحلب ، بعله الدوسنطاريا ، في صفر سنة سبع وستمائة .

وكان - رحمه الله - وزيراً صالحاً ، مشفقاً ناصحاً ، واسطة خير عند السلطان ، لا يشير عليه إلا بما فيه مصلحة رعيته ، والاحسان اليهم . وقام بعده بكتابة الانشاء والاسرار « شرف الدين أبو منصور ابن الحصين » ، و « شمس الدين بن ابي يعلى » كان مستوفي الدواوين . فلما مات أبو منصور بن الحصين استقل بالوزارة ، وأضيف اليه ديوان الانشاء مع الاستيفاء .

وعمر السلطان باب قلعة حلب ، والدكاره ، وأوسع خندقها وعمل « البغلة » من الحجارة الهرقلية ، وعمق الخندق ، الى أن نبغ الماء في سنة ثمان وستمائة .

وخرجت من مصر ، في هذه السنة ، الملكة الخاتون ، « ضيفة خاتون » بنت الملك العادل الى حلب ، مع « شمس الدين بن التنبى » . والتقاها الملك الظاهر بالقاضي بهاء الدين من دمشق ، ثم

بالعساكر الحلبية بعد ذلك « بقل السلطان » ، واحتفل في اللقاء .
وبالغ في العطاء ، ووصلت الى حلب في النصف من المحرم ، من سنة
تسع وستمئة .

وملك ابن التنبي قرية من قرى حلب ، من ضياع
« الأرتيق » (٤) يقال لها تلح ، وأعطاه عطاء وافرا ، وحظيت عنده
حظوة ، لم يسمع بمثلا .

ووقعت النار في مقام ابراهيم - عليه السلام - وهو الذي فيه
المنبر ، ليلة الميلاد ، وكان فيه من الخيم والالات والسلاح ما لا
يوصف ، فاحترق الجميع ، ولم يسلم غير الجرن الذي فيه رأس
يحيى بن زكريا - عليه السلام - واحترقت السقوف والأبواب ،
فجده السلطان الملك الظاهر ، في اقرب مدة أحسن مما كان .

وتوفي شرف الدين عبد الله بن الحصين كاتب السلطان ، واستقل
شمس الدين عبد الباقي بن ابي يعلى بالوزارة ، في سنة تسع
وستمئة .

وشرع الملك الظاهر في هدم « باب اليهود » وحفر خندقه
وتوسعته ، وبناء بناء حسنا ، وغيره عن صورته التي كان عليها ،
وبنى عليه برجين عظيمين ، سماه « باب النصر » . وأتم بناءه ،
في سنة عشر وستمئة .

وولد للسلطان الملك الظاهر ولده الملك العزيز ، من ابنة عمه
الخاتون « ضيفة خاتون » ، في يوم الخميس خامس ذي الحجة من
سنة عشر وستمئة ، فضربت البشائر ، وزينت مدينة حلب ، وعقدت
القباب .

وفي اليوم السابع عشر ، من ميلاده ، ختن السلطان أخاه الملك
الصالح ، واحتفل بختانه ، ونصب الزورق ، من قلعة حلب إلى
المدينة ، ونزل فيه الرجال ، وعملوا من الات والتماثيل التي

- ٧٣٢٢ -

ركبوها ، حالة النزول انواعا ، وطهر اولاد الاكابر من أهل المدينة ،
وشرفهم ، وخلع عليهم .

وبخلت سنة احدى عشرة وستمائة

فجدد السلطان الملك الظاهر « باشورة » حلب ، من « باب الجنان » الى « برج الثعابين » ، وبنى لها سورا قويا ظاهرا عن السور العتيق ، فيه ابرجة كالقلاع ، وعزم على ان يفتح بالقرب من « برج الثعابين » بابا للمدينة ، ويسميه « باب الفرائيس » ، وكان يباشر الاشراف على العمارة بنفسه .

وامر في هذه السنة بتجديد ربض الظاهرية ، خارج « باب قدسرين » ، فيما بينه وبين النهر ، فذسب إليه ، لذلك ، وخربت « الياروقية » ، وانتقل معظم أهلها إليه .

ووثب الاسماعيلية على ابن الابرذس ، « بكنيسة انطرسوس » ، فقتلوه ، فجمع الابرذس جموع الفرنج ، ونزل على حصونهم ، وقتل وسبى ، وحصر « حصن الخوابي » فكتبوا الى السلطان ، يستغيثون به ، ويستنجدون ، فاستخدم السلطان مائتي راجل . وسير جماعة من عسكر حلب ، يحفظونه ، ليخلوا الى « حصن الخوابي » ، ويمنعوا الفرنج من الاستيلاء عليه .

وجرد عسكرا من حلب ، مع سيف الدين بن علم الدين ليشغل الفرنج من جهة « اللاذقية » ليتمكن الرجالة من الدخول الى الحصن ، فلما سمع الفرنج بذلك ، كمدوا كميناً للرجالة والخيالة ، الذين يحفظونهم ، فأسروا الرجالة ، وقتلوه ، وقبضوا ثلاثين من الخيالة ، وذلك في حادي عشر شهر رجب .

فعند ذلك خرج الملك المعظم بن العادل ، من دمشق ، بعسكره ، وبخل غائرا في بلد « طرابلس » فلم يترك في بلدها قرية الا نهبها ، وخربها ، واستاق الغنائم والأسرى ، فدخلوا عن « الخوابي » ، وأطلقوا الأسرى الذين أسروهم من أصحاب السلطان الملك

الظاهر ، وراسلوه ، معذرين ، متلطفين ، وافترقوا عن غير زبنة
حصلت لهم .

وتمت الباشورة ، والباب والابرجة ، في سنة اثنتي عشرة
وستمئة . ولم يتم فتح الباب . وسنه طغرل الأتابك ، لما مات الملك
الظاهر ، الى أن فتحه السلطان الملك الناصر - أعز الله نصره -
على ما نذكره ، في سنة اثنتين وأربعين وستمئة .

ودخلت سنة ثلاث عشرة وستمائة

ووقعت المراسلة بين السلطان الملك الظاهر ، وبين السلطان « كيكائوس بن كيخسرو » ، واتفقا على أن يمضي السلطان الى خدمته ، ويتفق معه خوفا من عمه ، فأجابه « كيكائوس » الى ذلك ، وخرج بنفسه الى اطراف البلاد .

وندم السلطان على ما كان منه ورأى أن حفظ بيته أولى ، وأن اتفاه مع عمه أجمل ، فسير القاضي بهاء الدين - قاضي حلب - الى عمه الى مصر برسالة ، تتضمن الموافقة : أنه قد جعل ابنه الملك العزيز محمدا ، ابن ابنة الملك العادل ، ولي عهده . وطلب من الملك العادل أن يحلف له على ذلك .

فسار الى مصر فرتب السلطان خيل البريد ، تطالعه بما يتجدد من أخبار عمه ، لينظر في أمره ، فان وقع منه ما يستشعر منه ، خرج بنفسه الى « كيكائوس » ، وهو مع هذا كله في همّة تجهيز الجيوش ، والاستعداد للخروج الى « كيكائوس » ، والاجتماع معه على قصد بلد ابن « لاون » أولا ، وكان « ابن لاون » قد ملك أنطاكية ، وضاق ذرع السلطان بمجاورته ، ولعلمه بانتمائه الى عمه .

فوصلت الأخبار من « القاضي » من مصر ، ان الملك العادل أجاب الملك الظاهر إلى كل ما اقترحه ، وسارع الى تحصيل أغراضه ، ولم يتوقف في أمر من الامور .

وجعل كيكائوس يحث السلطان على الخروج ، ويذكر أنه ينتظره ، ونشب السلطان به وضاق صدره ، وبقي مفكرا في أن عمه قد وافقه ، ولا يرى الرجوع عنه الى ملك الروم ، فيفسد ما بينه وبين عمه ، ويغض عليه ، وبقدره بالخروج اليه ، ويفكر في حاله مع ملك الروم ، وفي كونه وعده

بالخروج اليه والاجتماع به اذا خرج ، وأنه إن رجع عن ذلك فسد ما بينه وبين ملك الروم ، والعسكر قد برز ، وهو مهتم في ذلك الامر . وطلب الاعتذار الى ملك الروم بوجه يجل ، فاشد فكره ، وضيق صدره ، هجم عليه مرض حاد في جمادى الآخرة في سنة ثلاث عشرة وستمائة . واعتبرته أمراض شتى وماشيرا (٥) واشتد به الحال ، وجمع مقدمي البلد وأمرأه ، واستحلهم لابنه الملك العزيز محمد ، ثم من بعده لابنه الملك الصالح أحمد ، ثم من بعده لابن أخيه ، وزوج ابنته : الملك المنصور محمد بن الملك العزيز . وجعل الامير سيف الدين بن علم الدين مقدم العسكر ؛ وشهاب الدين طغرل الخادم والي القلعة ، ومتولي الخزانة ، وتربية أولاده ، والنظر في مصالح الدار والنساء .

وأنزل « بدر الدين ايدمر » والي قلعة حلب منها ، واقطعه زيادة على ما كان في يده من الاقطاع « قلعة نجم » ، بنخاثرها وعددها ، و « زرينا » ، مع تسع ضياع آخر من أمهات الضياع . وحالف إخوة السلطان على ذلك .

واستشعر السلطان من أخيه الملك الظاهر « خصر » - وكان مقيما « بالباروقية » - فأقطعه « كفرسود » ، وتقدم اليه بالتوجه اليها ، فسار اليها ، فسبقه الملك « الزاهر » ، فاستولى عليها ، وعلى « البيرة » و « حروص » و « المرزبان » و « نهر الجوز » و « الكرزين » و « العمق » .

ومات السلطان الملك الظاهر - رحمه الله - بقلعة حلب ، في الخامس والعشرين ، من جمادى الآخرة من سنة ثلاث عشرة وستمائة ، وكنتم خبر موته ذلك اليوم ، حتى دفن في الحجرة ، الى جانب الدار الكبير ، التي انشأها بقلعة حلب .

ثم أركب في اليوم الثاني من موته ولداه: الملك العزيز ، والملك الصالح ، وانزلا بالثياب السود الى أسفل جسر القلعة ، وصعد اكابر البلد اليهما .

وأصيب أهل حلب بمصيبة فتت في أعضائهم ، وكان له - رحمه الله - في كل دار بها مأتم وعزاء ، وفي كل قلية (٦) نكبة وبلاء :
والناس مأتمهم عليه واحد في كل دار أنة وزفير .

ووصل « القاضي بهاء الدين » من الرسالة ، في اليوم الثالث ،
والوزير ابن أبي يعلى ، قد استولى على التدبير ، وحكم على
الصغير والكبير ، فصعد الى القلعة ، واجتمع « بشهاب الدين
طغرل » ، وصرفه عن اضافة الامور الى الوزير .

وقرر أن الامراء يجتمعون ، ويتشاورون فيما يدبرونه ، وأن
لا يخرج الأمر عن رأي « شهاب الدين » أيضا ، فاجتمعوا « بدار
العدل » ، واتفقت آراؤهم على أن يكون « الملك المنصور بن
العزیز » ، أتابك العسكر ، وأمر الاقطاع اليه ، وأمر المناصب
الدينية يكون راجعا الى « شهاب الدين طغرل » ؛ وحلفوه على
ذلك ، وركب ، والامراء كلهم في خدمته .

ونزل الملك العزيز ، والملك الصالح ، وجلسا في دار العدل ، والملك
العزيز في منصب ابيه ، وأخوه الى جانبته ، والملك المنصور ، الى
جانبيهما ثم اضطربت الحال ، ولم يرض إخوة « الملك الظاهر » ،
بولاية المنصور .

ووصل في اثناء ذلك رسول الملك الرومي كيكاوس - وكان مخيما
بالقرب من البلاد ينتظر وصول السلطان « الملك الظاهر » اليه -
فسير رسولا معزيا ، ومشيرا بالموافقة معه ، وأن يكون « الملك
الأفضل » أتابك العسكر ، فإنه عم الملك العزيز ، وهو أولى بتربيته
وحفظ ملكه .

ومال الامراء المصريون مثل : « مبارز الدين يوسف بن
خطلخ » ، و « مبارز الدين سزقر الحلبي » ، و « ابن أبي ذكرى
الكردي » ، وغيرهم ، الى هذا الرأي ، وقالوا : « إن هذا ملك

كبير ، ولا ينتظم حفظ الملك الا به ، واذا صار أمر حلب راجعا اليه كان قادرا على أخذ ثاره من عمه ، وأخذ الملك به .

ورأى القاضي « بهاء الدين » ، وسيف الدين بن علم الدين ، وسيف الدين بن قلج ، وغيرهما ، غير ذلك ، وقالوا : « إن هذا اذا فعل ، كان الملك العزيز على خطر من الجانبيين ، لأن الملك العادل ملك عظيم ، وصاحب الديار المصرية ، فاذا قبلنا ذلك خرج من أيدينا ، فإن كانت الغلبة له انتزع الملك من أيدينا وإن كانت عليه فلا نأمن ان الملك الأفضل ، يتغلب على ابن اخيه وينتزع الملك منه ، ويستقل به ، كما فعل الملك العادل بسابن العزيز ، والملك العادل قد حلف للملك الظاهر ، ولابنه الملك العزيز من بعده ، وهو ابن ابنته ، وابنته بقلعة حلب ونحن نطالبه بالوفاء بالعهد ، وهو يذب عن حلب كما يذب عن غيرها من ممالكه ، وأمور الخزائن هي راجعة الى شهاب الدين طغرل ، وهو متولي القلعة ، والرأي أن يقع الاتفاق عليه ، فإن المال عنده بالقلعة ، وهو فيها ينتصف ممن خالفه ، وقد وقع اعتماد الملك الظاهر عليه .

فاتفق رأيهم كلهم عليه ، وعملت نسخة يمين ، حلف بها جماعة الأمراء والمقدمين من أهل البلد ، على الموالاة ، والطاعة للملك العزيز ، ثم من بعده لأخيه الملك الصالح ، وعلى الموالاة لاتباعه « شهاب الدين طغرل » وانقاد الجميع له طائعين ومكرهين .

وأبعد الوزير ابن أبي يعلى ، وصرف ، واستقر الأمر على ذلك ، في أواخر شعبان ، من السنة .

وسار ابن أبي يعلى عن حلب ، في شهر رمضان من السنة واستقل طغرل بترتيب البلاد والقلاع وتفريق الأموال والاقطاع ، ولا يخرج في ذلك كله ، عن رأي القاضي بهاء الدين ، وسيف الدين بن علم الدين ، وسيف الدين بن قلج .

وأقطع علم الدين قيصر « دربساك » ، وابن أمير التركمان ،
« اللاذقية » ، وسير علم الدين الى الملك الزاهر ، أولا ، يعاتبه على
استيلائه على البلاد ، فاعتقله ، وقال : « أنا أحق بذلك ، فإني
كنت ولي العهد لأخي ، وقد حلف لي الناس » . وطمع بملك حلب ،
ثم انقاد الى الطاعة والخطبة ، وشرط أن تبقى البلاد ، التي
استولى عليها بيده ، فأجيب الى ذلك .

ولما استقر أمر الأتابكية لشهاب الدين طغرل ، كره ذلك جماعة
من المماليك الظاهرية ، فعمد « عز الدين ايبك الجمدار » الظاهري ،
واستضاف اليه جماعة من المماليك الظاهرية ، والأجناد . وكاتب
« الاسد أقطغان » - وكان والي حارم - واتفق معه على أن يأتي
إليه ، الى « حارم » بالجماعة الذين وافقهم ، ويفتح له القلعة فاذا
حصلوا بها انضم اليهم جماعة غيرهم ، وكان لهم شأن حينئذ .

وكان العسكر المقيم « بحارم » قد أصدع الى القلعة ، ورتب
بها ، وفيهم « المبارز أيوب بن المبارز أقجا » ، فأحسوا باختلال
أمر « الاسد » الوالي ، وانكروا عليه اشياء فاستيقظوا لأنفسهم ،
واتفقوا على حفظ القلعة ، والاحتياط عليها .

وسار ايبك الجمدار الى حارم ، ووقف تحت القلعة ، ورام
الصعود اليها ، فمنعه الأجناد والأمراء ، الذين في القلعة من ذلك ،
ولم يمكنوا الوالي من التحرك فيها بحركة ، واحتسبوا عليه فسار
ايبك الى « دربساك » ، وطمع أن يتسم له فيها حيلة أيضا ، فلم
يستتب له ذلك ، وعصى « الطنبغا » بقلعة بهسنى ، وانضاف الى
ملك الروم « كيكاوس » . وانتظم الأمر بعد ذلك ، وسكنت الفتنة ،
في أواخر شوال من السنة .

ونزل « الملك العادل » من مصر الى الشام ، وارسل الى « اتسابك »
بما يطيب نفسه ، وسير خلعة للملك العزيز ، وسنجا ، وحلف له
على ما أوجب السكون والثقة .

واتفق خروج الفرنج من البحر ، وتجمعوا في أرض عكا ،
وأغساروا على « الغور » ، واندفع « الملك العادل » بين أيديهم
إلى « عجلون » ، ثم إلى « حوران » ، ثم نازل الفرنج « الطور » ،
وزحفوا عليه ، فكانت النصر للمسلمين ، وقتل منهم جمع كثير ،
وانهزموا عنها ، وهدمها الملك العادل .

وسار الفرنج إلى « دمياط » ، ونزلوا عليها ، وبينها وبينهم
« النيل » والملك « الكامل » في مقابلتهم ، واستدعى الملك « العادل »
ابنه « الملك الأشرف » ، فسار في عسكره إلى « حمص » ، وبذل
بلاد الفرنج ، ليشغلهم عن محاصرة « دمياط » فدخل إلى
« صافيتا » ، فخرّبوا ربضها ، ونهبوا رستاقها ، وهدموا ما حولها
من الحصون ، وبذلوا إلى ربض « حصن الأكراد » ، فنهبوه ،
وحاصروا القلعة ، حتى أشرفت على الأخذ ، والملك العادل مقيم في
« عالقين » .

ودخلت سنة خمس عشرة وستمئة

وتحرك ملك الروم « كيكاوس » ، ومعه « الملك الأفضل » ، طالباً أن يملك حلب ، ويطمع « الأفضل » أن يأخذها له ، ليرغب الأمراء في تملكه عليهم ، وكاتب جماعة من الأمراء ، وكتب لهم التوقيع ، ومن جملة من كاتبه « علم الدين قيصر » . وكتب له توقيعاً « بأبلاستان » . واغتنما شغل قلب « الملك العادل » بالفرنج ، ووافقهما الملك الصالح - صاحب آمد - وكان « كيكاوس » ، يريد الملك لنفسه ، ويجعل « الأفضل » ذريعة للتوصل إليه ، وكاتبه أمراء حلب الذين كانوا يميلون إلى « الأفضل » . فجمع العساكر ، واحتشد ، واستصحب المناجيق ، وسار في شهر ربيع الأول ، فنزل رعبان وحصرها ، وفتحها .

فسير « الاتابك شهاب الدين » « زين الدين ابن الاستاذ » رسولا إلى « الملك العادل » ، يستصرخه على « الرومي » ، و « الأفضل » . فكتب إلى ولده « الملك الأشرف » ، يأمره بالرحيل إلى أنجاد حلب بالعساكر ، وسير إليه خزانة ، وجعل « الملك المجاهد » - صاحب حمص - في مقابلة الفرنج .

وسار « الملك الأشرف » ، حتى نزل حلب « بالميدان الأخضر » ، وخرج الأمراء إلى خدمته واستدأفهم ، وخلع عليهم ، وأتاه « مانع » أمير العرب بجموعه المتوافرة ، وعات العرب في بلد حلب ، و « الملك الأشرف » يداريهم لحاجته اليهم .

وسار علم الدين قيصر إلى ملك الروم من « دربساك » وجاهر بالعصيان ، ونزل « نجم الدين الطنغشا » إليه من « بهسنى » .

وتسلم الرومي « المرزبان » ، وسار إلى « تل باشر » وهي في يد ولد « بدر الدين دلدرد » ، فنازلها ، وحصرها ، وفتحها . ولم يعط الملك الأفضل شيئاً من البلاد التي افتتحها فتدقق « الملك الأفضل » فساد

نيته ، وسار الى منبج ، ففتحها بتسلم اهلها ، وكان قد صار في
جملته رجل يقال له « الصارم المنبجي » ، وله اتباع بمنبج فتولى له
أمر « منبج » وشرع في ترميم سورها ، واصلاحه .

وسار « الملك الاشرف » نحوه من حلب الى « وادي بزاعا » على
عزم لقائه ، وجماعة من الأمراء المخاضرين في صحبته ، فنزل في
وادي بزاعا ، وسير « الرومي » ألف فارس ، هم نخبة عسكره
ومقدمهم « سوباشي سيواس » ، فوصلوا الى « تل قباسين » فوق
عليهم العرب واحتدوا عليهم ، وعلى سوادهم .

وركب « الملك الاشرف » ، فوصل اليهم ، وقد استباحوهم قتلا
واسرا ، وسيروا الاسرى الى حلب ، وبخلوا بهم والبشائر تضرب
بين أيديهم ، واودعوا السجن .

ولما سمع « كيكاوس » ذلك ، سار عن منبج هاربا ، ورحل
« الملك الاشرف » من منزلته ، واتبعه يتخطف أطراف عسكره ،
حتى وصل الى « تل باشر » ، فنزل عليها ، وحاصرها حتى
افتتحها ، وسلمها الى نواب الملك العزيز ، وقال : « هذه كانت ،
اولا ، للملك الظاهر - رحمه الله - وكان يؤثر ارتجاعها اليه ، وأنا
أردتها الى ولده » . وذلك في جمادى الاولى ، من سنة خمس عشرة
وستمائة . ثم انه ملكها للاتابك شهاب الدين طغرل ، في سنة ثمان
عشرة وستمائة ، بجميع قراها . ثم سار « الملك الاشرف » الى
« رعبان » و « تل خالد » فافتتحهما وافتتح « برج الرصاص » ،
واعطى الجميع « الملك العزيز » . وأقطعت « رعبان » لسيف الدين
ابن قلع . وعاد منكفئا الى حلب ، ونزل على « باندقوسا » . وكان
الخبر قد ورد بموت « الملك العادل » - رحمه الله - وكان مريض
على « عالقين » ، فرحل الى دمشق ، فمات في الطريق ، في جمادى
الآخرة من سنة خمس عشرة . فكتب الاتابك شهاب الدين بذلك الى
الأمراء ، و « الملك الاشرف » قد قارب « مدينة حلب » ، فأعلموه
بذلك ، فجلس في خيمته للعزاء وخرج اكابر البلد والأمراء الى

خدمته ، وأنشد الشعراء مراثي الملك العادل ، وتكلم الوعاظ بين يديه .

ولما انفصل العزاء ، سير « الأتابك شهاب الدين » الى « الملك الأشرف » ، وتحدث معه في أن يكون هو السلطان موضع أبيه ، وأن يخطب له في البلاد ، وتضرب السكة باسمه ، وأن تكون العساكر الحلبية في خدمته . فقال : « لا والله لا أغير قاعدة قررها أبي ، بل يكون السلطان أخي « الملك الكامل » ، ويكون قائما مقام أبي » ، فاتفق الحال بين « أتابك » وبينه ، برأي القاضي « بهاء الدين » ، وسيف الدين بن علم الدين ، وسيف الدين بن قلج ، على أن يخطب بحلب وأعمالها « الملك الكامل » وبعده للملك الأشرف ، ثم للملك العزيز وضرب اسم « الملك الكامل » والملك العزيز ، على السكة . وجعل أمم الأجناد والأقمار طاع في

عسكر حلب الى « الملك الأشرف » ، وخليت له دار « الملك الظاهر » بالياروقية ، فنزل فيها ، ورتب له برسم المعونة ، من أعمال حلب « سمرين » و« بزاعا » و« الجبول » ، ووصلت اليه رسل البلاد ، من جميع الجهات ، ومالوا اليه ، وصاروا أتباعا له ، وأمر ونهى ببلد حلب ، في الأجناد والأقمار لا غير ، وتردد أكابر الحلبيين إلى خدمته ، وخلع عليهم ، وانقضى فصل الشتاء .

ودخلت سنة ست عشرة وستمائة

فأقطع الأقطاع لأجناد حلب ، ورتب أمور أمرائها ، ولا يفعل شيئا من ذلك إلا بمراجعة « الأتابك شهاب الدين » ، وبدأ من الأمراء المصريين تحرك في أمره ، وكرهوا أمره ونهيه في حلب ، وخافوا من استيلائه عليها ، وانتقامه منهم ليلهم الى « الملك الأفضل » . وبلغه عنهم أشياء عزموا عليها ، وهو ثابت لذلك كله .

ووصلته رسل أخيه « الملك الكامل » ، يطلب منه النجدة الى « دمياط » . وكان « ابن المشطوب » قد أراد الوثوب عليه وتمليك « الفائز » أخيه ، فأخرجه من الديار المصرية ، بعد أن رحل من منزلته ، التي كان بها في قبالة الفرنج ، وعبروا الفرنج اليها ، ونهب الخيم ومنازلة « دمياط » وقطعهم المائة عنها ، فاتفق رأي « الملك الأشرف » على تسيير الأمراء ، الذين كانوا يضمرون له الغدر ، فسيرهم نجدة الى أخيه ، وهم المبارزان : « ابن خـطـلـخ » و « سنقر » الحلبيان ، وابن كهـدان ، وغيرهم ، وخاف ابن خطلخ منه ، فاستحلفه على أن لا يؤنـيه ، فحلف له ، وسيرهم الى أخيه « الملك الكامل » ، فأقاموا عنده بالكلية .

وتوفي نور الدين - صاحب الموصل - في هذه السنة . وترك ابنا صغيرا قام « بدر الدين لؤلؤ » ، مملوك جده بتربيته . وخطب للكمال والأشرف .

وقام زنكي بن عز الدين ، فأخذ « العمادية » - وهي قلعة حصينة فيها أموال الموصل - بمواطاة من أجنادها ، وعزم على أخذ الموصل ، وقال : « أنا أولى بكفالة ابن أخي » . وساعده « مظفر الدين » صاحب « إربل » على ذلك ، فسير لؤلؤ رسولا الى « الملك الأشرف » إلى حلب ، يطلب إنجاده ، فسير اليه عز الدين أيبك الأشرفي .

وكان عماد الدين بن سيف الدين علي المشطوب ، لما نفي من الديار المصرية ، قد وصل الى « حماة » ، وأقام عند صاحبها ، وكاتب « الملك الأفضل » ، وجمع جموعا كثيرة من الاكراد ، وارباب الفساد ، وساعده الملك المنصور - صاحب حماه - بالمال والرجال على ذلك وعزم على أن يمضي ، بمن جمعه من العساكر الى الأفضل ، وأن يقوم معه ويساعده صاحب حماه ، وسultan الروم . ثم سار ابن المشطوب ، بغتة ، وخاض بلد حلب ، وكان الزمن زمن الربيع ، وخيول الاجناد متفرقة في الربيع ، فوصل الى « قنشرين » ونفذ منها الى « تل أعرن » (٧) وبلغ « الساجور » ، واستاق في طريقه ما وجد من الخيل ، وغيره .

وبلغ خبره الى الملك الاشرف ، فأركب من كان بحضرته من العساكر ، خلفه ، وكان فيهم ابن عماد الدين صاحب « قرقيسيا » ، فلحقوه على « الساجور » ، وفي صحبته « نجم الدين بن أبي عصرون » ، فقبضوا عليه واتوا به الى « الملك الاشرف » ، فعفا عنه و« عن ابن أبي عصرون » ، واقطع ابن المشطوب « رأس عين » وأقام عنده مخيما « بالياروقية » ، إلى أن دخل شعبان ، من السنة المذكورة . وسار « الملك الاشرف » الى بلاده الشرقية ، لاصلاح أمر الموصل ، وكان صاحب اربل وزنكي ، قد كسرا « لؤلؤ » و« أيبك الاشرفي » ، على الموصل . فنزل الملك على حران ، وفي صحبته عسكر حلب .

ومات « كيكاوس » ، ملك الروم ، وملك بعده أخوه كيقيباذ ، فراسل الملك الاشرف ، واتفق معه . وخربت القدس في أوائل هذه السنة . وخرج الى الفرنج المنازلين « دمياط » نجدة من البحر ، ووقع الوباء في أهل « دمياط » ، وضعفوا عن حفظها ، فهجمها الفرنج على غفلة من أهلها ، في عاشر شهر رمضان ، والملك الكامل ، مرابط حولها بالعساكر ، وابتنى مدينة سماها « المنصورة » ، وأقام فيها في مقابلة الفرنج .

ودخلت سنة سبع عشرة وستمائة

والملك الأشرف في « حران » ، و « ابن المشطوب » في اقطاعه « رأس عين » ، وقد داخل صاحب « ماربين » ، وقرر الأمر معه على العصيان على « الملك الأشرف » ، وجمع جماعة من الاكراد ، فذمى الخبر الى الملك الأشرف ، وخاف ابن المشطوب ، فسار الى سنجار ، فاعترضه والي « نصيبين » ، من جهة الملك الأشرف ، وقاتله فهزمه ، واستباح عسكره ، وسار الى سنجار ، فأجاره قطب الدين صاحبها . وأرسل « الملك الأشرف » اليه ، في طلبه ، فلم يجبه الى ذلك ، فسار الملك الأشرف نحوه ، فترك « سنجار » ، ومضى الى « تلعفر » ، فعصى بها ، فوصل اليه « ابن صبره » وعسكر الموصل . ووصل « الملك الأشرف » الى « سنجار » ، وفتحها ، وعوض صاحبها « بالركة » عنها ، وفتح لؤلؤ « تلعفر » ، وسلمها الى « الملك الأشرف » ، واستجار « ابن المشطوب » بلؤلؤ ، فأجاره على حكم الملك الأشرف ، فيه ، وسلمه الى الملك الأشرف ، فقيده ، وسجنه بسنجار . وسار الملك الأشرف الى الموصل ، ومعه عسكر حلب ، فاقام مخيما على ظاهرها ، حتى اصلى أمرها مع صاحب « اربل » ، وهادنه .

ووصل الملك « الفائز » ، من الديار المصرية ، مستصرخا ، وطالبا للنجد ، ووصل الى حلب ، وأنزل « بالميدان الأخضر » ، وسار الى الموصل ، الى أخيه « الملك الأشرف » ، فأقام عنده ، بظاهر الموصل ، شهرا ومات . وانفصل الملك الأشرف عن الموصل ، بعد اصلاح أمورها ، وشتى « بسنجار » ، وقبض على « حسام الدين بن خشتين » - وكان أميراً من أمراء حلب - لغدر بلغه عنه ، وقيده ، وسيره ، وابن المشطوب الى قلعة « حران » ، فحبسهما فيها الى أن ماتا . وقبض على ابن عماد الدين - صاحب « قرقيسيا » - ، وأخذها ، « وعانة » والبلاد التي كانت معه من يده ، وقدم حران ، فوصل اليه أخوه « الملك المعظم » في محرم سنة

وفي سنة تسع عشرة وستمائة

توجه « الملك الصالح » ابن « الملك الظاهر » الى « الشجر » و « بكاس » وأضيف اليه « الروج » و « معرة مصرين » . ورتب جماعة من الحجاب والمماليك في خدمته ، وذلك في جمادى الاولى .

وفي ذي الحجة - من سنة تسع عشرة وستمائة - خرج الملك الناصر صاحب حماه الى الصيد ، فبلغ ذلك « الملك المعظم عيسى » ، صاحب دمشق ، فخرج مجدا من دمشق ، ليسبق ، صاحبها اليها فيملكها ، فانتهى الخبر الى « الناصر » ، فسبق اليها . ووصل الملك المعظم الى حماة ، فوجد الملك الناصر قد وصلها ، وفاته ما أراد فسار الى « معرة النعمان » ، واحتوى على مغللاتها ، وسير أتاك شهاب الدين إليه ، تقدمه مع مظفر الدين بن جريدك ، الى المعرة ، فقبلها ، واعتذر بأنه إنما جاء لكتاب وصله من « الملك الكامل » ، يأمره أن يقبض على خادم هرب منه ، وأنه خرج خلفه ليدركه ، فلما قرب من « حماة » ، بدا من صاحبها من الامتهان ، وعدم النزول والاقامة ما لا يليق . وتجنى عليه نذوبا لا أصل لها ، والملك الكامل ، والملك الأشرف ، حينئذ بمصر .

ودخلت سنة عشرين وستمائة

فرحل « الملك المعظم » الى « سلمية » ، بعد أن رتب « بالمعرة » واليا ، ورتب « سلمية » واليا من قبله ، وعزم على حصار « حماة » ، واستعد صاحبها للحصار ، ووكل الملك المعظم العرب ، لقطع الميرة عن حماة ، ومنع من يقصدها من الأجناد للانجاد ، وحول طريق القافلة على سلمية .

وارجف الناس بأن حسام الدين ابن أمير تركمان ، قد وافق الملك المعظم ، وأنه قد صاهر صاحب « صهيون » ، وكان سيف الدين ابن قلج ، هو الذي أشار بتربيته في اللاذقية وضمه ، فسار اليه ، فلم يمتنع من تسليمها ولم يكن لما ذكر عنه صحة ، فترك سيف الدين ابن قلج بها أخاه عماد الدين ، واستصحب حسام الدين ، معه الى حلب ، فأقام الى ان زال الاستشعار من جهة « الملك المعظم » ، ورتب إليه .

ووصل حسام الدين الحاجب علي - نائب الملك الأشرف في بلاده الى حلب - واجتمع بأتابك شهاب الدين ، وأعلمه أن الملك الأشرف ، كتب اليه أن يرحل الى « الملك المعظم » ، ويرحله عن بلاد « الناصر » ، ويعلم « أتابك » أن هذا الذي وقع ، لم يكن بعلم « الملك الكامل » ، ولا « الملك الأشرف » ، وأنهما لا يوافقانه على ذلك ، وسار الحاجب اليه في هذا المعنى .

ووصل « الناصح أبو المعالي الفارسي » - أحد أمراء حلب - برسالة « الملك الكامل » من مصر ، وكان قد صعد اليها الى خدمته « الملك الأشرف » ، وكان هو الحاجب بين يديه إذ ذاك ، والأمور كلها راجعة اليه ، فقال له الناصح : « الملك الكامل يأمر المولى بالرحيل ، وترك الخلاف » ، فأجاب الى ذلك ، وقرر الصلح بين صاحب حماه وبينه ، ورحل الى دمشق ، وعاد الناصح الى مصر .

ونقل السلطان الملك الظاهر ، من الحجرة التي دفن بها بالقلعة ، الى القبة ، بالمدرسة التي ابتناها له أتابك ، ودفنه بها في أول شعبان من سنة عشرين وستمائة .

ونزل الملك الأشرف من مصر ، ووصل الى حلب في شوال من سنة عشرين ، والتقاءه « الملك العزيز » ، ونزل في خيمته ، قبلي « المقام » شرقيه ، بالقرب من « قرنبيا » ، وكان قد صاحبه خلعه للملك العزيز من « الملك الكامل » وسنجد ، وخرج « الملك العزيز » وأهل البلد ، في خدمته ، بعد ذلك وبخل الناس الى الخيمة ، في خدمة السلطان الملك العزيز ، ومد « الملك الأشرف » السمامط ، في ذلك اليوم للناس ، فلما أكلوا ، وخرج الناس من الخيمة أحضر « الخلع الكاملية » ، وأفاضها على الملك العزيز . ووقف قائما في خدمته . ثم أحضر المركوب فأركبه . وحمل الغاشية بين يديه ، حتى خرج من الخيمة ، وركب الى القلعة .

وأقام « الملك الأشرف » ، مقدار عشرة أيام ، واتفق رأيه مع الأمراء على اخاب قلعة « اللاذقية » فصار العسكر اليها ، وخبروها في هذه السنة .

وتوجه الملك الأشرف الى حران ، وعصى الملك المظفر « شهاب الدين غازي » أخوه ، عليه باخلاط « وكان أخوه « الملك المعظم » ، هو الذي حملة على ذلك ، وحسنه له ، لاجل ما سبق من « الملك الأشرف » ، في نصرة صاحب حماه . فاستدعى « الملك الأشرف » عسكرا من حلب ، فصار اليه عسكر قوي فيهم : سيف الدين بن قلج ، وعلم الدين قيصر ، وحسام الدين بلدق ، في سنة احدى عشرين وستمائة ، وسار الى « اخلاط » ، واتفق « مظفر الدين » - صاحب اربل - والملك المعظم صاحب دمشق ، على أن يخرج هذا الى جهة « الموصل » ، وهذا الى جهة « حمص » ، ليشغلا « الملك الأشرف » عن اخلاط ، فسير « الملك الأشرف » ، وطلب طائفة من عسكر حلب ليقم بسنجان ، خوفا من أن يغتالها

صاحب « أربل » . وخرج « الملك المعظم » ، وأغار على بلد حمص ، وبارين ، ووصل الى « بحيرة قدس » وعاد .

ووصل الملك الأشرف الى « اخلاط » ، فخرج أخوه وقاتله ، فهزمه الى « اخلاط » ، وفتحها أهلها للملك الأشرف . واحتسمى الملك « المظفر » بالقلعة ، حتى عفا عنه أخوه الملك الأشرف ، وخرج اليه ، وابقى عليه « ميافارقين » . وعاد عسـكر حلب والملك الأشرف ، في رمضان ، وشتى الملك الأشرف بسنجار .

وانهدم في هذه السنة من سور قلعة حلب الأبراج التي تلي « باب الجبل » ، من حد المركز وهي عشرة أبراج ، وتساقطت مع ابدانها ، في سلخ ذي القعدة . ووافق ذلك شدة البرد في الاربعينات ، فاهتم « أتابك شهاب الدين » بعمارتهما ، وتحصيل الاتها ، من غير أن يستعين فيها بمعاونة أحد ، ولازمها بذفسه ، حتى أتمها في سنة اثنتين وعشرين وستمائة .

ومات الملك الأفضل ، « بسميساط » ، في هذه السنة في صفر ، وحمل الى حلب ، فدفن في التربة ، التي دفن فيها أمه قبلي « المقام » .

ودخلت سنة ثلاث وعشرين وستمائة

ووصل « محيي الدين ابو المظفر ابن الجوزي » ، الى حلب
بخلعة من « الامام الظاهر » ، الى « الملك العزيز » ، وكان قد تولى
الخلافة ، في سنة اثنتين وعشرين ، بعد موت أبيه « الامام
الناصر » ، فألبسها السلطان « الملك العزيز » ، وركب بها ، وكانت
خلعة سنية ، واسعة الكم ، سوداء ، بعمامة سوداء ، وهي مذهب ،
والثوب بالزركش . وكان قد أحضر الى « الملك الاشرف » خلعة ،
ألبسه أياها ، وسار بخلعة أخرى الى « الملك المعظم » ، وخلعة
أخرى ، الى « الملك الكامل » .

وكتب « الملك المعظم » خوارزمشاه ، وأطمعه في بلاده أخيه
« الملك الاشرف » ، ونزل الملك المعظم من دمشق ، ونازل حمص ،
وكان سير جماعة من الاعراب ، فنهبوا قراها ؛ ووصل « مانع » ،
في جموع العرب لانجاد حمص ، من جهة الملك الاشرف ، فانتهبوا
قرى « المعرة » و « حماة » ، وقسموا البيادر ، ولم يؤدوا عدادا
(٨) ، في هذه السنة ، لاحد .

ولما وصل « الملك المعظم » الى حمص ، اندفع « مانع » وعرب
حلب ، والجزيرة ، الى قدسرين ، ثم نزلوا قرا حصار ، ثم تركوا
اظعانهم ، بمرج دابق ، وساروا جريدة الى نحو حمص ، فتواقع
« مانع » وعرب دمشق ، وقعات ، وجرد عسكر من حلب الى
حمص ، فوصلوا اليها ، قبل ان ينازلها الملك المعظم ، فحين
وصلوها اتفق وصول عسكر دمشق فاقتتلوا ، ثم دخلوا الى مدينة
حمص .

وكان « الملك الاشرف » ، على « الرقة » فجاءه الخبر بحركة
« كيقباز » وخروجه الى بلاد صاحب « آمد » ، وأخذ « حصن
منصور » ، و « الكفتا » (٩) ، فسير « الملك الاشرف » نجدة

الى آمد ، فالتقاهم جيش « الرومي » ، وهزمهم ، فعاد الملك الاشرف الى « حران » وخرج من بقي من عسكر حلب الى حاضره « قنسرين » لانجاد صاحب حمص .

ووقع الفناء في عسكر « الملك المعظم » وماتت دوابهم ، وكثر المرض في رجالهم ، فرحل عن حمص ، في شهر رمضان من السنة وسار « الملك الاشرف » ، عند ذلك بذفسه الى دمشق ، واجتمع باخيه « الملك المعظم » قطعاً لمائة شرّه ، وزينت دمشق لقدم الملك الاشرف ، وعقدت بها القباب ، وأظهر الملك المعظم السرور بقدومه ، وحده كـمـه في مـهـاله ، وبـهـاطـنـه ليس كظاهره ، ورسله تتردد إلى « خوارزمشاه » في الباطن ، وجاءته خلعة من « خوارزمشاه » فلبسها .

وكانا لما انقضى شهر رمضان ، قد خرجا عن دمشق ، إلى « المرح » ، وورد عليهما رسولا حلب : القاضي زين الدين ابن الاستاذ نائب القاضي بهاء ، ومظفر الدين بن جورديك ، يطلبان تجديد الايمان « للملك العزيز » ، و« أتابك » .

فوجد « الملك الاشرف » ، وقد أصبح مع « الملك المعظم » ، بمنزلة التابع له ، ويطلب مداراته بكل طريق ، وهو لا يتجاسر أن يذفرد بهما في حديث ، دون الملك المعظم ، « الملك المعظم » يشترط شروطاً كثيرة ، والمراجعات بينهما وبين أتابك إلى حلب مستمرة مدة شهرين .

إلى أن وردت الأخبار بنزول « خوارزمشاه » على « اخلاط » ، ومحاصرتها ، وفيها « الحاجب علي » - نائب الملك الاشرف - فهجم بعض عسكره اخلاط ، وقام من بها من اهلها وجندها ، وأخرجوهم منها ، كرها .

فوافق الملك الأشرف أخاه ، على ماطلبه منه ، واستدعى رسولي حلب ، وحلفا لهما ، ورحل خوارزمشاه عن « خلاط » .

وشتى الملك المعظم ، والملك الأشرف « بالغور » ، ووضحى « الملك الأشرف » كالأسير في يدي أخيه « الملك المعظم » ، لايتجاسر على أن يخالفه في أمر من الأمور ، وهو يتلون معه ، وكلما أجابه « الملك الأشرف » إلى قضية ، رجع عنها إلى غيرها ، وأقام عنده ، إلى أن دخلت سنة أربع وعشرين وستمائة .

وانقطعت مراسلة الملك الأشرف إلى حلب ، لكثرة عيون أخيه عليه ، وكونه لا يأمن من جهته من أمر يكرهه ، لانه أصبح في قبضته .

واتفق وصولي من الحج ، في صفر من هذه السنة ، فاستدعاني « الملك الأشرف » ، وحملني رسالة إلى أتابك شهاب الدين ، مضمونها ماقد وقع فيه مع أخيه .

« وأنه يتلون معه ، تلون الحرباء ، ولايثبت على أمر من الأمور ، وإن آخر ماقد وقع بيني وبينه ، أنه التمس مني أن يحلف له أتابك على مساعدته ومعاذته ، وأن لايوافق الملك الكامل عليه ، وأنه متى قصده الملك الكامل ، كان عوناً له على الملك الكامل » .

فلما أبلغت « أتابك » ما قال ، امتنع من الموافقة على ذلك ، وقال : « أنا حلفني الملك الأشرف للملك الكامل ، وفي جملة يمينه : أنني لأهابن أحدا من الملوك على قضية إلا بأمره ، فإذا أراد هذا مني فليأتني بأمر من الملك الكامل ، حتى أساعده على ذلك » .

وحين رأى « الملك الأشرف » وقوعه في أنشودة أخيه ، وأن لا مخلص له إلا بما يريده ، ساعده على كل ماطلبه منه ، واستحلفه على الملك الكامل ، وصاحبي حماة وحمص ، فاطمأن الملك المعظم إلى ذلك ، ومكن الملك الأشرف من الرحيل ، فسار إلى « الرقة » ، في جمادى الآخرة من السنة ،

فرجع « الملك الأشرف » عن جميع ماقرره مع أخيه ، تأول في أيمانه التي حلفها ، بأنه كان مكرها عليها ، وأنه علم لاينجيه من يدي أخيه إلا موافقته فيما طلب ، وندم « الملك المعظم » على تمكنه من الانفصال عنه ، وسير العربان إلى بلد حمص وحماة ، فعاثوا فيهما ، ونهبوا .

وخرج عسكر الأذربور - ملك الفرنج - إلى عكا ، في جموع عظيمة ، فطمع صاحب حماة ، وصاحب حمص في « الملك المعظم » حينئذ وأرسل إليه يطلبان العوض عما أخذه من بلادهما ، فلاطف حينئذ ، أخاه « الملك الأشرف » ، وأرسل إليه يطلب موافقته ، فعذفه على أفعاله التي عامله بها ، وقرعه على ما اعتمد في حقه وحق أهله . ومرض « الملك المعظم » بدمشق ومات سلخ ذي القعدة .

وفي هذه السنة ، سلمت عين تاب ، والراوندان ، والزوب ، الى « الملك الصالح » ابن الملك الظاهر ، وأخذ منه « الشغرة » و« بكاس » ، وما كان في يده معها .

وبذل الحاجب ، في هذه السنة ، وجمع من قدر عليه من العساكر ، إلى بلد أذربيجان ، وافتتح « خوي » ، و« سالماس » ، وأخذ زوجة أزبك - وكانت في خوي - وهي التي سلمت خوي إليه ، وكانت قد تزوجت بخوارزمشاه .

وخرج الملك الكامل من مصر حين سمع بموت أخيه . وسير الملك الناصر ، إلى عمه الملك الأشرف ، يعتضد به ، ويستمسك بذيوله ، مع ابن موسك . فوصل إليه إلى سنجار ، وطلبه ليأتي الى دمشق ، فسار إليه إلى دمشق .

ونزل « الملك الكامل » ، فخيم بقل العجول في مقابلة الفرنج ، وسير الملك الأشرف إليه ، « سيف الدين بن قلج » يطلب منه ابقاء دمشق على ابن أخيه ، ويقول له : « إننا كلنا في طاعتك ، ولم نخرج عن موافقتك » . فخاطبه بما أطمع الملك الأشرف في دمشق .

وأما الملك العزيز ، فإنه في هذه السنة ، جلس في « دار العدل » في منصب أبيه ، ورفعت إليه الشكاوى ، فأجاب عنها ، وأمر ونهى ، وكان يحضر عنده الفقهاء ، في ليالي الجمع ليلا ، ويتكلمون في المسألة بين يديه .

وحضر عيد الفطر ، فخلع على كافة الأمراء ومقدمي البلد ، وأرباب المناصب ، وعمل عيدا عظيما ، احتفل فيه ، ولم يعمل بحلب عيد منذ مات « الملك الظاهر » ، قبل هذه السنة .

ووصل « الانبرور » إلى عكا ، وخيم الملك الكامل « بالعوجا » . وتوجه الملك الأشرف ، إليه من دمشق ، فجدد الايمان فيما بينهما ، وسارت النجدة من حلب ، في آخر سنة ست وعشرين وستمائة ، فنزلت في « الغور » .

وصالح « الملك الكامل » الفرنج على أن أعطاهم مدينة « القدس » - سوى الصخرة والمسجد الأقصى - وليس لهم في ظاهرها حكم وأعطاهم « بيت لحم » ، وضياعا في طريقهم إلى القدس ، من عكا .

وعاد الملك الأشرف ، واجتمع بعسكر حلب ، وبالمالك الناصر ابن الملك المعظم ، فسال له : « إنني قد جددت في أمرك بالملك الكامل ، فلم يرجع عن قصد دمشق ، وكان آخر ما انتهى إليه أن قال : يعطى الملك الناصر البلاد الشرقية ، وتأخذ أنت دمشق .

فعلم الملك الناصر ، أنهما قد توافقا على أخذ دمشق ، وكان أيبك المعظمي معه ، فأشار عليه بالرحيل الى دمشق ، ففوض خيامه ، وسار ، ولم يمكن الملك الأشرف منعه ، ومضى إلى دمشق ، وشرع في تحصينها ، فسار الملك الأشرف بجيوش حلب ، ونزل على دمشق ، وقطع عنها الماء ، فخرج عسكر دمشق ، وقاتلوا أشد

القتال ، حتى أعادوا الماء إليها ، ووصل الملك الكامل ، في جمادى الأولى ، بالعساكر المصرية ، وخيموا جميعا على دمشق .

وسار القاضي بهاء الدين ، وفي صحبته أكابر حلب وعدولها إلى دمشق ، لعقد المصاهرة بين « الملك العزيز » و « الملك الكامل » .
ووصل إلى ظاهر دمشق من ناحية « ضمير » ،

وخرج الملك الكامل من المخيم ، والتفاه ، وأنزله في المخيم ،
بالقرب من «مشهد القدم» . وأحضره إلى خيمته ، وقدم ماكان وصل
على يده ، للملك الكامل . ثم نقله بعد ذلك الى جوسق الملك العزيز
«بالمزة» .

وكان يتردد إليه « الملك الكامل » ، في بعض الأوقات ، إلى أن اتفق الأمر ، على أن حمل الذهب الواصل ، لتقديمه المهر ، والجواري ، والخدم ، والدراهم ، والمتاع . وعقد العقد بحضور الملك الأشرف ، في «مسجد خاتون» ، وتولى عقد الزكاح «عماد الدين ابن شيخ الشيوخ» عن الملك الكامل ، لابنته «فاطمة خاتون» ، على صداق مبلغه خمسون ألف دينار وقبل القاضي « بهاء الدين » العقد عن الملك العزيز ، وذلك في سحرة يوم الأحد سادس عشر شهر رجب . وخلع « الملك الكامل » على القاضي ، وعلى جميع أصحابه ، وعلى الحاجي بشر أمير لالا الملك العزيز ، بعد أن فتحت دمشق . وعاد القاضي ومن في صحبته إلى حلب .

واستقر أن يأخذ الملك الكامل من الملك الأشرف ، عوضا عن دمشق : حران ، والرها ، والرقه ، وسروج ، ورأس عين ، وسار الملك الأشرف إلى بعلبك ، فحصرها إلى أن أخذها من صاحبها .

وسار العسكر الى حماة ، بأمر الملك الكامل ، فحصرها ليسلمها صاحبها إلى الملك « المظفر ابن الملك المنصور » ، فنزل إليه صاحبها

الملك الناصر - وكان نازلا بمجمع المروج - فحبسه عنده الى أن سلمها إلى أخيه ، وأعطاه « بارين » . وسار الملك الكامل إلى الرقة .

ونزل خوارزمشاه على « أخلاط » ، ووافقه ابن زين الدين ، في الباطن ، وصاحب آمد في الظاهر ، وخطب له ، وضاق الأمر بأهل « أخلاط » ، فطلبوا الأمان فلم يجيبهم إلى ذلك ، وافتتحها في ثامن وعشرين من جمادى الأولى ، من سنة سبع وعشرين وستمئة ، ووضع السيف في أهلها ، وسبى النساء والصبيان .

وفي ثامن جمادى الأولى ، ولد للسلطان « الملك العزيز » ، مولود من جارية ، وسماه باسم أبيه ، ولقبه بلقبه « الملك الظاهر غازي » ، وزين المدينة ، وعقد القباب ، ولبس العسكر في أتم زينة وهيئة ، وعمل الزورق من القلعة إلى المدينة ؛ ونزل الناس فيه ، وانقطعت بكرة برجل منهم ، فوقع في سفح القلعة ، فمات ، فبطل الملك العزيز الزورق .

وولد له أيضا في هذه السنة ، ولد آخر لقبه « بالملك العادل » . وولد له أيضا في هذه السنة ، « السلطان الملك الناصر » وهو الذي أوصي له بالملك ، بعد أن مات الولدان المتقدمان .

واتفق الملك الكامل ، والملك الأشرف ، وملك الروم كيقيباذ ، على خوارزمشاه وطلب الملك الأشرف نجدة من حلب ، فسير الملك العزيز وأتابك ، عسكرا يقدمه « عز الدين بن مجلي » ، فدخل الملك الأشرف ، واجتمع بملك الروم ؛ وسار إلى ناحية « أرزنكان » ؛ واصطفت العساكر للقتال ، فكسر الخوارزمي في التاسع والعشرين من شهر رمضان ، وهبت ريح عاصفة في وجهه عساكره ، وانهزموا ، وصادفوا شقيفا ، في طريقهم ، فوقع فيه أكثر الخوارزمية فهلكوا ، وصار « الملك الأشرف » إلى « أخلاط » ، فاستعادها ، وهادن الخوارزمي .

ودخلت سنة ثمان وعشرين وستمائة

وكان للفرنجة حركة ، وخرج عسكر حلب مع بدر الدين بن الوالي ، وأغاروا على ناحية « المرقب » ، ونهبوا حصن بانياس ، وخرّبوه ، وسيروا أسرى إلى حلب ، ثم تواقع المسلمون والفرنجة وقعة أخرى ، قتل من الفريقين فيها جماعة ، وكان الربيع فيها للمسلمين ، وسيرت العساكر من حلب في النصف من شهر ربيع الآخر .

واحتبس الغيث في حلب ، وارتفعت الأسعار فيها ، وخرج الناس ، واستسقوا على « باندقوسا » ، فجاء مطر يسير ، بعد ذلك ، وانحطت الأسعار قليلا .

واستقرت الهدنة بين عسكر حلب والداوية ، والاسبطار ، في العشرين من شعبان من السنة .

واستقل السلطان الملك العزيز بملكه ، في هذه السنة ، وتسلم خزائنه من « أتابك شهاب الدين » ، ورتب الولاة في القلاع ، واستحلف الأجناد لذفسه ؛ وخرج بذفسه ، ودار القلاع والحصون ، وركب أتابك شهاب الدين ، في نصف شهر رمضان ، من هذه السنة ، ونزل من القلعة ، وركب الناس في خدمته ، ولم ينزل منها ، منذ توفي الملك الظاهر ، إلا هذه المرة ثم عاد إلى القلعة ، وكان يركب منها في الأحايين ، إلى أن دخل السلطان « الملك العزيز » بابنة الملك الكامل ، وبقي « أتابك » مدة في القلعة ، ثم نزل منها ، وسكن في داره ، التي كانت تعرف بصاحب عين تاب ، تجاه باب القلعة .

واستوزر الملك العزيز ، في هذه السنة ، خطيب القلعة وابن خطيبها « زين الدين عبد المحسن بن محمد بن حرب » ، ومال إليه بجملة .

وسير الملك العزيز القاضي بهاء الدين ، في هذه السنة في شوال ، إلى مصر ، لاحتضار زوجته بنت الملك الكامل ، فأقام بمصر مدة ، إلى أن قدم في صحبتها والدها « الملك الكامل » ، إلى دمشق ، وسيرها من دمشق صحبتته ، وأصحابها من جماعته : فخر الدين البانياسي ، والشريف قاضي العسكر ، وخرج وزيره ، وأعيان دولته ، فالتقوها من حماة ، وأكابر أهل حلب أيضا ، والتقتها والدة السلطان عمتها من « جباب التركمان » ، والتقاها بقية العساكر ، « بتل السلطان » ، والتقاها أخو السلطان « الملك الصالح » ، في عسكره ، وتجمله ، وعادت العساكر في تجميلها ، واصطففت أطلابا طلبا بعد طلب ، في « الوضيحي » . وخرج السلطان إلى « الوضيحي » .

وبخل مع زوجته ، ليلا إلى القلعة المنصورة ، في شهر رمضان ، من سنة تسع وعشرين وستمائة .

وكانت العامة بحلب ، قد ثاروا على محتسبها « مجد الدين بن العجمي » ، لأن السعر كان مرتفعا ، وقد بلغ الرطل من الخبز إلى عشرة قراطيس ، ثم انحط السعر كان في تقايم الغلة ، إلى أن بيع الرطل بخمسة ونصف ، فركب نائب المحتسب وسعره ، وهموا بقتل نائبه ، وخرّبوا الدكة ، ومضوا إلى دار المحتسب ، لينهبوها ، فنزل والي البلد ، والامير « علم الدين قيصر » ، وسكذوا الفتنة ، بعد أن صعد جماعة إلى السلطان ، واستغاثوا على المحتسب ، فظفروا بأخيه نائب الحشر « الكمال بن العجمي » ، فرجموه بالحجارة ، فانهزم ، واختفى في بعض دروب حلب ، ثم هرب إلى المسجد الجامع ، فهموا به مرة ثانية ، في الجامع ، فحماه مقدم الأحداث ، وكان ذلك ، في يوم الثلاثاء سابع عشر شعبان ، من سنة تسع وعشرين وستمائة .

وداوم « الملك العزيز » الخروج إلى الصيد ، ورمي البندق بنواحي « العمق » وغيرها ، وحسن له جماعة من أصحابه ، أن يسير إلى قلعة « تل باشر » ، ويستولي عليها ، وينزعها من نواب أتاكه

« شهاب الدين طغرل » ، وأن يبقي عليه رستاقها ، وأن لا يكون شيء من القلاع إلا بيده ، فذمى الخبر إلى « أتابك » ، فسير إلى الوالي ، وأمره أن لا يعارضه في القلعة ، وأن يسلمها إليه ، وكان له بها خزانة ، فاستدعها ، وخرج السلطان إلى « عزان » ، وكانت في يد والدته أخت « الملك الصالح » ، وأولادها بني « الطنبغا » ، عوضهم بها « أتابك » عن « بهسنى » ، بعد قتل الرومي كيكاوس الطنبغا ، فصعد إلى قلعتها ، وولى بها واليا من قبله ، وأبقى عليهم ما كان في أيديهم من بلدها .

ثم سار السلطان من « عزان » إلى « تل باشا » ، وصعد إلى القلعة ، وولى فيها واليا من جهته ، وانتزعها من أيدي نواب أتابكه . وبلغه أخذ الخزانة ، من « تل باشا » ، فسير من اعترض أصحاب « أتابك » في الطريق ، فأخذ الخزانة منهم ، وكان يظن أن بها مالا طائلا ، فلم يجد الأمر كما ذكر ، فأعادها على أتابك ، فامتنع من أخذها ، وقال : « أنا ما ابخرت المال إلا لك » ، ثم دخل السلطان إلى حلب ، وكان ذلك كله ، في شهر رمضان ، من سنة تسع وعشرين وستمئة .

ثم إن السلطان « الملك العزيز » ، خرج في خرجاته ، لرمي البندق الى « حارم » ، وتوجه منها الى « دركوش » ثم إلى « أفامية » ، في سنة ثمانين وستمئة ، فلم يحتفل بـه صاحب « شيزر » شهاب الدين يوسف بن مسعود بن سابق الدين .

وأنفذ إليه إقامة يسيرة - وهي شيء من الشعير على حمير ، سخرها من بلد شيزر - فشوق عليه ذلك . فلما دخل حلب استدعى « سيف الدين علي بن قلج الظاهري » ، وسيره إلى الملك الكامل ، ليستأنه في حصار « شيزر » ، وأخذها ، وكانت مضافة إلى حلب ، وإنما خاف أن يلقى صاحبها نفسه على « الملك الكامل » ، فيشفع إليه في أمره ، فلا يتم له ما يريد ، فصعد « سيف الدين » إلى دمشق ، وقرر مع الملك الكامل ، الأمر على ما اختاره « الملك العزيز » ؛ وسير

إلى السلطان الملك العزيز ، وأعلمه بذلك ، فأخرج العسكر ،
والزربخانة ، ونزل العسكر على « شيزر » ، واحتاط الديوان ،
على مافي رستاق « شيزر » من المغلات .

ووصل « سيف الدين بن قلع » من دمشق ، وخرج السلطان
بذفسه ، فنصب عليها المناجيق ، من جهة الجبل ، وترك المنجنيق
المغربي ، قبالة بابها ، وسير إلى صاحبها ، وقال له : « والله لئن
قتل واحد من أصحابي ، لاشدقك بدله » . فتقدم إلى الجرخية
بالقلعة ، أن لايرمي أحد بسهم ، وتبدل ، وأسقط في يده .

وأرسل « الملك الكامل » إلى السلطان نجابين ، ومعهما خمسة
الاف دينار مصرية ، ليستخدم بها رجالة ، يستعين بهم على حصار
« شيزر » .

وقدم اليه الى شيزر « الملك المظفر محمود » - صاحب حماه -
وأرسل اليه صاحب شيزر ، يبذل له تسليهما ، على أن يبقي عليه
أمواله ، التي بها ، ويحلف له على أملاكه ، بحلب ، فأجابه إلى ذلك
ونزل من شيزر إلى خدمة السلطان ، وسلمها اليه ، ووفى له
السلطان بما اشترطه ، وصعد السلطان الى القلعة ، وأقام أياما
بشيزر ، ثم دخل إلى مدينة حلب .

ومرض أتابك « شهاب الدين طغرل بن عبد الله » في أواخر هذه
السنة ، ودام مرضه ، إلى أن مات ، ليلة الاثنين الحادية عشرة ،
من محرم سنة إحدى وثلاثين وستمائة وحضر السلطان الملك العزيز ،
ومحمد ابن الملك الظاهر ، جنازته ، صبيحة الليلة المذكورة .
ومشى خلف جنازته ، من داره إلى أن صلي عليه خارج « باب
الأربعين » ودفن بقربته ، التي أنشأها « بتل قيقان » ، ووقفها
مدرسة على أصحاب الامام أبي حنيفة - رضي الله عنه - وبكى
السلطان عليه بكاء عظيما ، وحضر عزاءه ، يومين بعد موته ،
بالمدرسة التي أنشأها « أتابك » وجعل فيها تربة للسلطان الملك
الظاهر - رحمهم الله - وفي هذه السنة :

فرجع « الملك الكامل » ، وخرج إلى طرف بلد « بهسنى » ، ونزل على بحيرة أنزنيت ، ووصل إليه صاحب خرتبرت ، ودخل في طاعته ، وأشار عليه بالدخول من جهته ، فسار إلى ناحية « خرتبرت » .

ووقعت طائفة من عسكر الروم ، على طائفة من عسكر الملك الكامل ، وفيهم الملك المظفر - صاحب حماة - وشمس الدين صواب ، فكسر العسكر الكاملى ، واعتصم من نجا منهم « بخرتبرت » . فحاصروهم ملك الروم إلى أن نزلوا بالأمان ، وأطلقهم - واستولى « كيقباز » على « خرتبرت » ، وعفا عن صاحبها ، وعوضه عنها بأقطاع في بلاده .

ومرض « الملك الزاهر » في العسكر ، فحمل مريضا إلى « البيرة » ، وقوي مرضه ، وطمع بعض بعض أولاده بملكها ، وشرع في تحصينها وتقويتها ، وبلغ « الملك الزاهر » ذلك ، فسير إلى السلطان « الملك العزيز » ، واستدعاه إليه ، وأصعده إلى القلعة ، وأوصى اليه بالقلع التي في يده ، والخزائن وعين لأولاده شيئا من ماله ، « بالبيرة » ، والسلطان بها عنده ، في أوائل صفر ، من سنة اثنتين وثلاثين وستمائة .

وأقام السلطان بها يرتب أحوالها ، وأقام فيها واليا من قبله ، فاتفق وفاة القاضي بهاء الدين بحلب ، في يوم الأربعاء الرابع عشر من صفر ، من سنة اثنتين وثلاثين وستمائة .

وطلب « الكمال ابن العجمي » قضاء حلب ، وكاتب السلطان في ذلك فلم يجبه إلى ذلك . وسار السلطان من « البيرة » إلى « حارم » ، فخرج ابن العجمي إليه ، إلى « حارم » ، فمنعه الدخول إليه ، وبذل له في قضاء حلب ستين ألف درهم ، وأن يحمل في كل سنة ، للسلطان ، من فواضل أوقاف الصدقة ، ومن كتابة الشروط ، خمسين ألف درهم ، فلم يصغ السلطان إلى شيء من ذلك ، وكتب

إلى القاضي زين الدين ، كتابا يأمره بأن يحكم بين الناس ، على جاري عادته ، إلى أن يدخل إلى المدينة ، فلما دخل السلطان اجتهد « ابن العجمي » في قبول ما بذله ، وبذل شيئا كثيرا غير ذلك ، لخواص السلطان ، وحسنوا للسلطان قبول ما بذله ، وإجابته إلى ما سأله ، فجرى على مذهب أبيه وجده في الاحسان ، ولم يبيع منصب النبي - صلى الله عليه وسلم - بالأثمان ، ونظر في مصلحة الرعية ، وأرضى الله ونبيه ، وقلد القضاء بمدينة حلب وأعمالها ، في يوم الجمعة ، الرابع عشر ، من شهر ربيع الأول من سنة اثنتين وثلاثين وستمائة ، القاضي زين الدين أبا محمد عبد الله ابن عبد الرحمن بن علوان - المعروف بابن الأستاذ - وكان نائب القاضي بهاء الدين في الحكم .

وأما الملك الكامل ، فإنه عاد في تلك الجيوش العظيمة ، ولم يحظ بطائل ، ودخل فصل الشتاء ، وحال بين الفريقين ، وعاد كل إلى بلاده ، ولما خرج فصل الشتاء ، خرج « علاء الدين كيقباز » إلى الجزيرة ، والرها ، والرقه ، وسبى عسكره أهل البلاد كما يسبى الكفار ، وذلك في ذي الحجة ، من سنة اثنتين وثلاثين وستمائة ، وسار « الملك الكامل » نحوها ، فاندفع ملك الروم ، فعاد « الملك الكامل » ، واستولى على البلاد ، وخرّب قلعة الرها وبلدها ، وسير إليه السلطان العسكر إلى الشرق ، والزبدخاناه ، وذلك في الجماديين ، سنة ثلاث وثلاثين وستمائة .

ودام « الملك العزيز » ، في ملكه بحلب ، وسمت همته إلى معالي الأمور ، ومال إلى رعيته ، وأحسن إليهم إلى أن دخلت سنة أربع وثلاثين وستمائة .

فغضب على وزيره « زين الدين بن حرب » ، وألزمه داره بقلعة حلب ، وولى الديوان مكانه ، الوزير « جمال الدين الأكرم أبا الحسن علي بن يوسف القفطي الشيباني » .

وخرج في أواخر شهر صفر إلى « الذقرة » ، ثم توجه منها إلى

حارم ، ، وحضر في الملقه (١٠) ، لرمي البندق ، واحتاج الى أن اغتسل بماء بارد ، فحم ، وبخل إلى حلب ، فالتقاه الناس ، وهو موعوك ، ودامت به الحمى ، الى أن قوي مرضه ، واستحلف الناس لولده الملك « الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز » . وسيرني إلى أخيه « الملك الصالح » إلى عين تاب ، يستحلفه له ، ولابنه « الملك الناصر » ، وعدت ، وقدمات ، في شهر ربيع الأول ، من سنة أربع وثلاثين وستمئة .

وتولى تدبير دولته الأميران : شمس الدين لؤلؤ الأميني ، وعز الدين عمر بن محلى ووزير الدولة القاضي « جمال الدين الأكرم » و« جمال الدولة إقبال الخاتوني » ، يحضر بينهم في المشورة .

واذا اتفق رأيهم على شيء ، دخل جمال الدولة إقبال الخاتوني ، إلى جدة السلطان « الملك الناصر » ، والدة « الملك العزيز » ، وعرفها ما اتفق رأي الجماعة عليه ، فتأذن لهم في فعله ، والعلامات على التوافق ، والمكاتبات إلى الستر العالي الخاتوني ، والدة الملك العزيز . فاتفق رأيهم ، على أن سيروا القاضي زين الدين - قاضي حلب - والأمير بدر الدين بدر بن أبي الهيجاء ، إلى مصر ، رسولين إلى « الملك الكامل » ، ليحلفاه « للملك الناصر » ، ويتوثقا من جهته ، واستصحبهما معهما كزاغند السلطان الملك العزيز ، ورربيته ، وخوذته ، ومركوبه .

فلما وصلا إليه ، أظهر الألم والحزن لموته ، وقصر في إكرامهما وعطائهما ، وحلف للملك الناصر ، على الوجه الذي اقترح عليه ، وخطب الرسولين بما يشيران به ، عنه ، من تقدمه « الملك الصالح ابن الملك الظاهر » ، على العسكر ، وأن تكون تربية « الملك الناصر » إليه ، فلم ير الجماعة ذلك .

واتفق بعد ذلك بمدة ، أن سير الملك الكامل خلعة للملك الناصر ، بغير مركوب ، وسير عدة خلع لامراء الدولة ، وسير مع رسول مفرد

خلعة « للملك الصالح » ، على أن يجيء إليه إلى « عين تاب » ، فاستشعر أرباب الدولة التدبير من ذلك ، وحصل عند جدة السلطان وحشة من ذلك . واتفق رأيهم ، على أن لبس السلطان خلعته ، ولم يخلع على أحد من الأمراء شيء ، مما سيره لهم ، وردوا الرسول الوارد إلى الملك الصالح بخلعته ، ولم يمكذوه من الوصول إليه ، واستودحشوا من جهة « الملك الكامل » .

وكان « الملك الأشرف » ، قد تتابعت من أخيه ، « الملك الكامل » أفعال أوجبت ضيق صدره ، وكان يغض على نفسه ، ويحتملها ، فمنها أنه أخذ بلاده الشرقية ، حين أعطاه دمشق ، وأخذ من مضافات دمشق ، مواضع متعددة .

واتفق أن « كيقباز » ملك الروم ، أخذ « خلاط » ، فضاقت ما في يد « الملك الأشرف » جدا ، وكان ينزل إليه في كل سنة إلى دمشق ، في عبوره إلى الشرق ، فيقيم بدمشق مدة ، فيحتاج « الملك الأشرف » ، في ضيافته إلى جملة .

وقبض على أملاكه التي كانت له بحران ، والرقعة ، وسروج ، والرها ، ورأس عين ، وعلى جميع تمليكاته التي ملكها بتلك الناحية ، وفتح آمد ، وهو في صحبته ، فلم يطلق له من بلاده شيئا ، وخذله في انتزاع « خلاط » من يد « الرومي » ، فاتفق هو ، والملك المجاهد - صاحب حمص - والملك المظفر - صاحب حماة - وعزموا على الخروج عليه ، وعين لكل واحد منهم شيء من بلاده ، وأرسل إلى الملكة « الخاتون » والأمراء بحلب ، وطلبوا موافقتهم على ذلك ، وخوفوهم من جهته ، وذكروا ما تمتد أطماعه إليه فوافقوهم . وتحالفوا عليه ، وسيروا رسلا من جهتهم إلى ملك الروم « كيقباز » ؛ يطلبون منه مثل ذلك . فوصلوا إليه ومات « كيقباز » ، قبل اجتماعهم به فذكروا رسالتهم لابنه « كيخسرو » ، فحلف لهم على ذلك .

واتفقوا كلهم على أن أرسلوا رسلا من جهتهم ، إلى « الملك

الكامل ، الى مصر ، ومعهم رسول من حلب ، وقالوا له : « إننا قد اتفقنا كلنا ، ونطلب منك أنك لاتعود تخرج من مصر ، ولاتنزل إلى الشام » ، فقال لهم : « مبارك أنتم قد اتفقتم ، فما تطلبون من يميني ، احلفوا أنتم أيضا لي : أن لاتقصدا بلادني ، ولاتتعرضوا لشيء مما في يدي وأنا أوافقكم على ما تطلبون » . ونزل رسوله ، ومرض « الملك الأشرف » ، واشتغل بمرضه ، وطال الى أن مات - على ماذكره - .

ومما تجدد في حلب ، في سنة أربع وثلاثين وستمئة : أن « شهاب الدين » « صاحب شيزر » ، و« كمال الدين عمر بن العجمي » ، اتفقا ، على أن سيرا من جهتهما رجلا ، يقال له « العزابن الاطغاني » إلى دمشق إلى « الملك الأشرف » ، وحدثاه في أن يقصد حلب ، وأنهما يساعداه بأموالهما ، وأوهمه صاحب « شيزر » أن معظم الأمراء بحلب ، يوافقونه على ذلك ، وأوهمه ابن العجمي أن أقاربه ، وجماعة كبيرة من الحلبيين ، يتابعونه ، ويشايعونه ويوافقونه ، على ذلك ، واشترط على « الملك الأشرف » ، أن يوليه قضاء حلب .

فمضى رسولهما إلى « الملك الأشرف » ، واجتمع ببعض خواصه ، وذكر له الأمر الذي جاء فيه ، فلم يحضره اليه ، وأجابهما بأنه : « لاتتصور أن يبدو مني غدر ، ولا قبيح في حق أحد ذرية الملك الظاهر » ، وأخبرني « فلك الدين بن المسيري » أنه هو الذي كان المتكلم بين « الملك الأشرف » ، وبين رسولهما .

ونمي هذا الخبر إلى الملكة ، والأمراء ، فسيروا من يوقف الرسول واتفق وصوله إلى حلب « فقبض في « باب العراق » ، وأصعد إلى القلعة ، وسئل عن ذلك ، فأخبرهم بالحديث على فسه ، فحبس الرسول ، وحلقت لحيته ، وسير إلى « دريساك » ، وحبس بها ، وأصعد « ابن العجمي » ، وصاحب شيزر ، واعتقلا بالقلعة ، وأخذت أموال صاحب شيزر جميعها ، ولم يتعرض لأموال ابن

العجمي ، تطييبا لقلوب أهله . وداما في الاعتقال ، من جمادى ، من سنة أربع وثلاثين الى أن مات الملك الكامل ، في سنة خمس وثلاثين وستمائة وأطلقا .

ومما حدث أيضا ، في سنة أربع وثلاثين ، أن أميرا من التركمان ، يقال له « قنغر » جمع إليه جمعا من التركمان ، بعد موت « الملك العزيز » ، وعاث في أطراف بلاد حلب ، من ناحية « قورس » ، وغيرها ، ونهب ضياعا متعددة ، وكان يغاز (١١) ، ويدخل الى بلد الروم ، فخرج اليه عسكر من حلب ، فكسر ذلك العسكر ، ونهبه .

وتخوف أمراء حلب ، أن يكون ذلك بأمر « ملك الروم » ، فسيروا رسولا إلى ملك الروم ، في معناه ، فأذكر ذلك ، وأمر برد ماأخذه ، من بلد حلب ، فرد بعضه ، واذكف عن العيث والفساد .

وبذل « ملك الروم » من نفسه الموافقة ، والنصرة « للملك الناصر » وكف من يقصد بلاده بأذى ، فسير له تقدمه سنوية ، من حلب على يد « شرف الدين بن أمير جاندار » ، فأكرم الرسول إكراما كثيرا ، وسيرا إليه رسول في الباطن ، وهو أوحدا الدين - قاضي خلاط - فاستحلفه على الموالاة « للملك الناصر » ، والذب عن بلاده ودفع من يقصدها .

واتفق أيضا ، في هذه السنة ، تحرك الداوية ، من « بغراس » ، وأغاروا في بلد « العمق » ، واستاقوا أغناما للتركمان ، ومواشي لغيرهم كثيرة . فخرج « الملك المعظم بن الملك الناصر » يقدم عسكر حلب ، ونزلوا على « بغراس » وحصروها مدة ، حتى ثفروا مواضع من سورها ، ونفذ ما فيها من الذخائر ، وأشرفت على الأخذ ، فسير البردس - صاحب أنطاكية - وشفع فيهم ، بعد أن كان مغاضبا لهم ، فرأوا المصلحة في إجابته الى ذلك ، وعقدوا الهدنة مع الداوية ، على « بغراس » ورحلوا عنها ، ولوا أقاموا عليها يومين آخرين ، لما استطاع من فيها الصبر على المدافعة

وسار العسكر عن « بغراس » ، بعد أن أخربوها ، وبلدها ،
خرابا شنيعا ، ونزل العسكر الاسلامي بالقرب من « دربساك » ،
فجمع « الداوية » جموعهم ، واستنجدوا بصاحب « جبيل » وغيره ،
من الفرنج ، وجمعوا راجلا كثيرا ، وساروا من جهة حجر « شغلان »
إلى « دربساك » ، ظنا منهم أن يكبسوا الربض ، على غرة من
اهله ، وأن ينالوا منه غرضا ، فاستعد لهم من بالربض من
الأجناد ، ونزل جماعة من أجناد القلعة ، وقاتلوهم في الربض ،
قتالا شديدا ، وحموه منهم ، واشتغلوا بقتالهم ، إلى أن وصل
الخبر إلى عسكر حلب ، فركبوا ، ووصلوا إليهم ، وقد تعب
الفرنج ، وكلت خيولهم ، فوقعوا عليهم ، فانهزم الفرنج هزيمة
شنيعة ، وقتل منهم خلق عظيم ، واستولى المسلمون على فارسهم
وراجلهم ، وكان فيهم جماعة من المقدمين واختبأ منهم جماعة من
الخيالة ، وغيرهم ، خاف الأشجار في الجبل ، فأخذوا ، ولم ينج
منهم إلا القليل ، وبخلوا بالرؤوس والأسرى إلى حلب ، وكان يوما
مشهودا وحبسوا في القلعة ، ثم أنزلوا إلى الخندق . وفقت هذه
الوقعة في أعضاد « الداوية » ، بالساحل ، ولم ينتعشوا بعدها ،
وكانوا قد استطالوا على المسلمين والفرنج .

ومات في هذه السنة « علاء الدين كيقباز » - ملك الروم -
بقيصرية ، في أوائل شوال ، من سنة أربع وثلاثين وستمائة ،
وسيرت رسولا إلى ابنه « غياث الدين كيخسرو » ، القائم في الملك
بعده ، بالتعزية ، وتجديد الأيمان عليه ، على القاعدة التي كانت مع
أبيه ، فحلفه على ذلك ، في ذي القعدة .

وكان قد قبض على « قيرخان » - مقدم الخوارزمية - فهرب من
بقي منهم ، من بلاد الروم ، ونهبوا في طريقهم ما قدروا عليه ،
وعبروا الفرات ، واستمالهم الملك الصالح بن الملك الكامل ،
واقطعهم مواضع في الجزيرة .

وتوفي « الملك الأشرف » بدمشق ، لأربع خلون من المحرم ، من

سنة خمس وثلاثين وستمئة . وأوصى بها لأخيه « الملك الصالح اسماعيل » ، وجدد الايمان مع الجماعة ، الذين كانوا وافقوا أخاه « الملك الأشرف » .

فخرج « الملك الكامل » من مصر ، وقصد دمشق ، وسير من حلب نجدة الى دمشق وكذلك سير « الملك المجاهد » ولده « المنصور » اليها ، ونزل « الملك الكامل » على دمشق ، وحصرها مدة ، فرجع « الملك المظفر » - صاحب حماة - عن موافقة الجماعة وداخل الملك الكامل ، وأطلع على جميع الأحوال ، ووقع بينه وبين صاحب حمص اختلاف ، وطلب من صاحب حمص « سلمية » ، لتجري الموافقة على ماكان عليه .

فسيرت من حلب ، ومعى الأمير « علاء الدين طيغا الظاهري » ، ليوفق بين صاحب حمص وصاحب حماة ، فأبى كل واحد منهما ، أن يجيب صاحبه إلى مايريد . وكان مطلوب صاحب حماة أن يعطيه صاحب حمص « سلمية » والقلعة التي جردها « الملك المجاهد » المعروفة « بشميميس » (١٢) . فقال « الملك المجاهد » : « هذه ثمينة لي ، وقد حلف لي على كل مابيدي » ، وأبى أن يجيبه إلى ذلك .

فعدنا إلى « حماة » ، وذكرنا لصاحبها مقالة « الملك المجاهد » ، وأن في مايحاوله نقضا للعهد ، فقال : هو قد نقض عهدي ، واستفسد جماعة من عسكري ، وعد له نذوبا لا أصل لها ، وقال : لا بد من قصده ، وإذا نزل الملك الكامل على حمص ، نزلت معه عليها وفعلت ما يصل إليه جهدي . ولكن حلب ، أبذل نفسي ومالي دون الوصول إلى قرية منها ، ولا أرجع عن اليمين التي حلفت بها للستر العالي ، والملك الناصر » .

فقلت : « فالولى يعلم ماجرى بيننا وبين صاحب حمص ، من الايمان ، وما نقض منها عهدا ، وإذا وصل عسكري من حلب لنجدته ، فكيف يفعل المولى » ؟ فتلجلج ، وقال : « أنا أقاتله ، ومن

قاتلني قاتلته » . فكتبنا بذلك إلى حلب ، فجاء الأمر بالتوجه إلى حلب ، فسرنا في الحال من غير توبيع ، حتى وصلنا العبادي ليلة الاثنين ، مستهل جمادى الأولى ، من سنة خمس وثلاثين وستمئة ، فلحقنا «المهماندار» (١٣) بالخلع والتسفير ، فلم نقبل منه شيئا ، ووصلنا إلى حلب يوم الثلاثاء ، فتحقق أنه قد داخل «الملك الكامل» ، وأنه يطالعه بالمتجددات جميعها .

وأما دمشق ، فإن «الملك الكامل» ، لازم حصارها ، حتى صالحه «الملك الصالح» ، على أن أبقى له بعلبك ، وبصرى ، وأخذ منه دمشق ، في تاسع عشر جمادى الأولى ، من السنة ، ولم يتعرض لنجدة حلب ، وحمص بسوء ، وخرجوا من دمشق إلى مستقرهم . ووصل «الناصر» ، وعسكر حلب ، إلى حلب ، واستدعى «الملك المعظم» ، وأقارب السلطان والأمراء ، وحلفوا للسلطان «الملك الناصر» ، و«الخاتون الملكة» ، على طبقاتهم ، ثم حلف بعد ذلك أكابر البلد ، ورؤساؤها . ثم حلف الأجناد والعمامة ، واستعد الناس للحصار بالذخائر ، والأقوات ، والحصطب ومايجري مجراه ، ونقلت أحجار المناجيق إلى أبواب البلد ، واستخدم جماعة من الخوارزمية ، وغيرهم .

ووصل «قنغر التركماني» ، فاستخدم بحلب ، وقدم على التركمان . وقفز جماعة من العسكر الكامل إلى حلب ، فاستخدموا ، وتتابع الرسل إلى «ملك الروم» ، لطلب نجدة ، تصل إلى حلب ، من جهته ، فسير نجدة من أجود عساكره ، وعرض عليهم أن يسير غيرها ، فاكتفوا بمن سيره .

وسير ملك الروم رسولا إلى «الملك الكامل» ، يخاطبه في الامتناع عن قصد حلب ، فأمر بالتبريز من دمشق ، لقصد حلب ، وأخرج الخيم والأعلام ، فمرض ، ومات بدمشق ، في قلعتها ، في حادي وعشرين ، شهر رجب ، من سنة خمس وثلاثين وستمئة ، ووصل خبر موته ، فعمل له العزاء بحلب ، وحضره السلطان «الملك

الناصر » ، يومين ، وأمر العسكر في الحال ، بالخروج إلى معرة النعمان ، فخرج ، نازل معرة النعمان ، مع « الملك المعظم » ، ووصل رسول « الملك المظفر » - صاحب حماة - يتلطف الحال ، فلم يلتفت إليه ، ولم يستحضر . وسيرت المجانيق ، ونصبت على قلعة المعرة .

ووصل في أثناء ذلك ، رسول من السلطان « غياث الدين كخسرو » يطلب الوصلة الى « الخاتون » ، بأن تزوجه بنت السلطان « الملك العزيز » ، أخت السلطان « الملك الناصر » ، وأن يزوج السلطان الملك الناصر ، أخت السلطان « غياث الدين » ، واستقر الأمر على ذلك ، واجتمع الناس في دار السلطان ، بالقلعة ، وعقد عقد السلطان « غياث الدين » على الست « غازية خاتون » . وتوليت عقد الزكاح ، على مذهب الامام أبي حنيفة - رضي الله عنه - لصغير الزوجــــــــــــة ، على خمســـــــــــــــــين ألف دينار ، وقبل الزكاح ، عن السلطان « غياث الدين » الرسول الواصل من جهته ، « عز الدين » - قاضي دوقات (١٤) - حينئذ - ونثر الذهب ، عند الفراغ من العقد .

ووصل ، عند ذلك ، الخبر بفتح « معرة النعمان » ، في تلك الساعة ، على جناح طائر - وضربت البشائر للأميرين ، وذلك في تاسع شعبان (١٥) من سنة خمس وثلاثين وستمئة .

وسار العسكر فنازل « حماة » ، وابتنى صاحبها سورا من اللبن على حاضرها ، من جهة القبلة ، ونهب عسكر حلب بلد « حماة » ورستاقها .

ووصل رسول من الملك « الصالح بن الملك الكامل » ، يشفع في صاحب حماة ، فلم يجب إلى سؤاله فيه ، واعتذر إليه بما بدا منه ، وطلب الرسول ، عن صاحبه ، الموافقة والمعاضدة ، وأن يسفروا في الصلح ، بينه وبين « ملك الروم » ، فأجيب جوابا ، لم يحصل منه على طائل .

ووردت الرسل من مصر ، من الملك العادل ، والملك الكامل ، يطلبون منه الموافقة ، بينه وبين صاحب حلب ، وأن يجروا منه ، على عادة أبيه ، في الصلح ، وإقامة الدعوة له بحلب ، فلم يجب الى شيء من ذلك ، ورجعت الرسل بغير طائل .

وفي هذه السنة ، قبض على « قنغر التركماني » ، وحبس بقلعة حلب ، ونهبت خيمه ودوابه .

وسمع السلطان كيخسرو بوصولي ، وكان في عزم « كيخسرو » التوجه إلى ناحية « قونية » ، فتعوق بسببي ، وسير بولقا إلى « أقجا » دربند ، قبل وصولي « ابلستان » يستحثني على الوصول ، ويعرفني تعويقه بسببي ، ثم سير بولقا آخر ، فوصل إلى تحت « سمندو » يستحثني على الوصول .

فأسرعت السير ، حتي وصلت إلى « قيصرية » ، والسلطان في « الكيقبانية » ، فاستدعاني إليه ، ولم أنزل « بقيصرية » ، واجتمعت به ، عند وصولي ، يوم الثلاثاء ، سادس عشر شوال ، من سنة خمس وثلاثين وستمائة ، ووقعت الاجابة إلى عقد العقد . ووكّل السلطان « كمال الدين كاميار » ، على عقد العقد معي ، على أخته « ملكة خاتون بنت كيقبان » . ودخلنا في تلك الساعة إلى « قيصرية » ، وأحضر قاضي البلدة ، والشهود ، وعقدت العقد مع « كاميار » ، على خمسين ألف دينار سلطانية ، مثل صداق « كيخسرو » ، الذين كتب عليه لأخت السلطان « الملك الناصر » .

وأظهر في ذلك اليوم من التّجمل ، وآلات الذهب ، والفضة ، مالا يمكن وصفه . ونثرت الدنانير الواصلة ، صحبتي ، وكانت ألف دينار ، ونثر في دار السلطان من الذهب ، والدراهم ، والثياب ، والسكر ، شيء كثير . وضربت البشائر في دار السلطان ، وأظهر من السرور والفرح ، مالا يوصف .

وسيرت ، في الحال ، بعض أصحابي إلى حلب ، مبشرا بذلك

كله ، فضربت البشائر بحلب ، وأفيضت الخلع على المبشر ،
وعدت إلى حلب ، فدخلتها يوم الخميس ، تاسع ذي العقدة ،
والتقاني السلطان « الملك الناصر » - أعز الله نصره - يوم
وصولي .

هذا كله ، والعسكر الحلبي محاصر « حماة » . وكان قبل هذا
العقد ، سير السلطان « كيخسرو » الأمير « قمر الدين » الخادم -
ويعرف بملك الأرمن - رسولا إلى حلب ، وعلى يده توقيع من
السلطان « الملك الناصر » ، بالرها ، وسروج . واتفق الأمر معه ،
على أن خطب له الملك « المظفر شهاب الدين غازي » - ابن الملك
العادل - وأقطعه حران ، وأقطع « الملك المنصور » - صاحب
ماربين - سنجار ، ونصيبين ، و« الملك المجاهد » - صاحب
حمص - عانة ، وغربا من بلد الخابور ، وكانت هذه البلاد في يد
الملك الصالح بن الملك الكامل . واتفق الأمر ، على أن يأخذ
السلطان « كيخسرو » أمد ، وسميساط ، وأعمالها .

وكان « الخوارزمية » ، قد خرجوا على « الملك الكامل » ،
واستولوا على البلاد ، وهرب « الملك الصالح » منهم . فأنعم على
الرسول الواصل إلى حلب ، وأعطى عطاء وافرا ، وقبل التوقيع
منه .

ولم تر الملكة « الخاتون » مضايقة ابن أخيها في البلاد ، ولم
تتعرض لشيء منها . وبلغه ذلك فسير إليها ، وعرض عليها تلك
البلاد ، وغيرها ، وقال : « البلاد كلها بحكمك » ، وإن شئت إرسال
نائب يتسلم هذه البلاد ، وغيرها ، فأرسله لاسلم إليه مائتا مريد
بتسليمه . فشكرته ، وطيبت قلبه .

واتفق بعد ذلك مع « الخوارزمية » . وأقطعهم : حران ، والرها ،
وغيرهما ، بعد أن كانوا اتفقوا مع « الملك المنصور » - صاحب
ماربين - وقصدوا بلاد « الملك الصالح أيوب » ، وأغاروا عليها ،
ونزلوا على حران ، وأجفل أهلها .

وخاف « الملك الصالح » ، فاخترى ، ثم ظهر « بسنجان » ؛ وحصره « بدر الدين لؤلؤ » - صاحب الموصل - وكان قد ترك ولده الملك « المغيث » « بقلعة حران » ، فخاف من الخوارزمية ، وسار مختفيا نحو « قلعة جعبر » ، فطلبوه ، ونهبوه ومن معه ، وأفلت في شرملة من أصحابه ، ووصل إلى « منبج » مستجيرا بعمته . فسير إليه من حلب ، ورد عن الوصول إليها بوجه لطيف ، وقيل له : « نخاف أن يطلبك منا سلطان الروم ، ولا يمكننا منعك منه » ، فعاد إلى حران ، ووصله كتاب أبيه يأمره بموافقة « الخوارزمية » والوصول إليه بهم لدفع « لؤلؤ » ، ففعل ذلك ؛ وسار « بالخوارزمية » ، طالبين عسكر الموصل ، فانهزموا وأفرجوا عن سنجان ، وأدركهم الخوارزمية فقتلوا منهم ونهبوا أثقالهم ، وقوي الملك الصالح بهم

ووصل عسكر « الروم » إلى آمد ، ونازلها ، وأخذ بعض قلاعها ، وتوجه عسكر « الخوارزمية » ، إلى جهتهم ، فرحلوا عن آمد . ولم ينالوا منها زبدة .

ووصل رسول « السلطان كيخسرو » عز الدين - قاضي دوقات - إلى حلب في هذه السنة ، وتحدث في إقامة الدعوة « للسلطان كيخسرو » ، وضرب السكة باسمه . وكان الأمراء والعسكري محاصرين « حماة » ، فتوقفت الملكة في ذلك ، وأشير عليها بموافقته على ماطلب ، فأجابت وخطب له في يوم الجمعة « ... » (١٦) من سنة خمس وثلاثين وستمائة ، على منبر حلب .

وحضر في ذلك اليوم ، الأمير « جمال الدولة إقبال » ، وصعد الرسول إلى المنبر ، ونثر الننانير عند إقامة الدعوة ، ونثر « جمال الدولة » ننانير ودراهم ، وخلع على الدعاء ، وأظهر من السرور ، والاحتفال في ذلك اليوم ، شيء عظيم ، في مقابلة ماأظهر « بقيصرية » من الاحتفال يوم عقد الملك الناصر .

وطال الحصار على « حماة » ، ولم تكن « الملكة الخاتون » تؤثر
أخنها من ابن أختها ، وإنما أرادت التضيق عليه ، لينزل عن طلب
« معرة النعمان » . وضجر العسكر ، فاستدعي إلى حلب
المحروسة ، فوصل إليها في «...» (١٧) من سنة ست وثلاثين
وستمئة .

وكان الملك « الجواد يونس بن مودود بن الملك العادل » ، بعد
موت « الملك الكامل » ، قد استولى على « دمشق » ، وعلى
الخرائن ، التي كانت في صحبة « الملك الكامل » ؛ وأظهر الطاعة
للملك العادل وأرسل إلى حلب ، رسولا يطلب منهم معاضدته ،
وانتماءه . فلم يصفوا إلى قوله ، وامتنعوا أن يدخلوا بينه وبين
الملك العادل .

وخاف من « الملك العادل » ، فراسل الملك « الصالح أيوب ابن
الملك الكامل » ، واتفقا على أن يسلم إلى « الملك الصالح » دمشق ،
ويعوضه عنها « بالركة » ، « سنجار » و « عانة » ، فسار « الملك
الصالح » من الشرق ، و « الخوارزمية » في صحبته ، في جمادى
الاولى . وتقدم الملك الصالح إلى دمشق ، وتسلمها من « الملك
الجواد » ، في جمادى الآخرة من سنة ست وثلاثين ، وأرسل إلى
عمته الى حلب ، يعرفها بذلك ، ويبذل من نفسه الموافقة على
ماتريده ، ويطلب المساعدة له ، والمعاوضة على أخذ مصر ، فأجابته
بأنها : « لا تدخل بينه وبين أخيه ، وأنكما ولداً أخى » ، ولم تجبه إلى
ما اقترح .

وسار « الملك الجواد » إلى « الرقة » ، فأخرجه « الخوارزمية »
منها ، وسار إلى « سنجار » ، فأقام بها مدة ، وخرج إلى « عانة » ،
فسار بدر الدين لؤلؤ إلى سنجار ، بعملية كانت له فيها ، فاستولى
عليها ، في شهر ربيع الأول ، من سنة سبع وثلاثين .

وأما الملك الصالح ، فإنه صعد إلى « نابلس » ، وأقام بها ،

وكاتب الأمراء المصريين ، وعثر الملك على قضيتهم ، فقبض النين كاتبوه ، ولم يتفق للملك الصالح ما أراد .

وساق عمه « الملك الصالح اسماعيل » ، من بعلبك ، « والملك المجاهد » - صاحب حمص - منها ، وبخلا « دمشق » ، وملكها « الملك الصالح » ، وحصر القلعة يوما أو يومين ، وفتحها ، وذلك في شهر ربيع الأول ، من سنة سبع وثلاثين وستمئة . وقبض على « الملك المغيث » بن الملك الصالح ، وسجنه « بقلعة دمشق » .

وسمع الملك الصالح بن الكامل بذلك ، فتوجه نحو دمشق ، حتى وصل إلى « العقبة » ، فلم يجد معه من عسكره من ينصحه ، فعاد إلى « نابلس » ، فسير « الملك الناصر » - صاحب الكرك - وقبض عليه ، وحمله مقيدا إلى « الكرك » وسجنه بها .

وتجددت الودشة بين « الملك الناصر » ، وبين « الملك الصالح » عمه ، بسبب استيلائه على دمشق . واتفق الملك العادل وعمه الملك الصالح ، فاستودش « الملك الناصر » من الملك العادل لذلك ، حتى آل الأمر به إلى أن أخرج الملك الصالح بن الكامل من سجن « الكرك » ، وخرج معه ، وكاتب الأمراء بمصر ، فقبضوا على « الملك العادل » ببلييس ، في ليلة الجمعة ، الثامن من ذي القعدة ، من سنة سبع وثلاثين وستمئة ، ووصل الملك الصالح أيوب ، فدخل « القاهرة » ، بكرة الأحد الرابع والعشرين من الشهر المذكور .

وكنت إذ ذاك بالقاهرة ، رسولا إلى « الملك العادل » ، أهنته بكسر عسكره الافرنج على « غزة » ، وأطلب أن يسير عماته بنات « الملك العادل » ، معي إلى أختهن « الملكة » إلى حلب ، فاستحضرني « الملك الصالح أيوب » ، يوم الثلاثاء حادي عشر ذي الحجة ، وقال لي : « تقبل الأرض بين يدي الستر العالي ، وتعرفها أنني مملوكها ، وانها عندي في محل « الملك الكامل » ، وأنا أعرض نفسي لخدمتها ، وامتنال أمرها فيما تأمر به » ، وحملني مثل هذا القول إلى « السلطان الملك الناصر » .

ونزلت من مصر ، فاجتمعت بالملك الصالح اسماعيل بن الملك العادل ، في رابع محرم سنة ثمان وثلاثين ، وحملني رسالة الى « الملكة الخاتون » ، يطلب منها معاضدته ، ومساعدته ، على « الملك الصالح » - صاحب مصر - إن قصده ، فلم تجبه إلى ذلك في ذلك الوقت .

وكان « الخوارزمية » ، في سنة سبع وثلاثين ، قد وضعوا أيديهم على « أوشين » - من بلد البيرة - وطمعوا في أطراف بلد « البيرة » ، واستولوا على قلعة « حران » ، حين كان « الملك الصالح » محبوسا « بالكرك » ، وامتدت أطماعهم إلى البلاد المجاورة لهم ، وكثر تثقيلهم على الملك « الحافظ أرسلان بن الملك العادل » ، بناحية « قلعة جعبر » ، وهو يداريهم ، ويبذل لهم الأموال ؛ وأطماعهم تشتت .

واتفق أنه فلج ، وخاف من ولده ، فأرسل إلى أخته « الملكة » بحلب يطلب منها أن تقايضه « بقلعة جعبر » و« بالاس » إلى شيء تعمل له ، بمقدار « قلعة جعبر » « بالاس » . فاتفق الأمر على أن تعويضه « بعزاز » ، ومواضع تعمل بمقدار ذلك . وسير من حلب من تسلم « قلعة جعبر » ، في صفر من سنة ثمان وثلاثين وستمائة .

ووصل « الملك الحافظ » إلى حلب ، في هذا الشهر ، وصعد في المحفة إلى القلعة ، واجتمع بأخته « الملكة » ، وأنزل في الدار المعروفة « بصاحب عين تاب » - تحت القلعة - وسلمت إلى نوابه « قلعة عزاز » .

فخرج الخوارزمية ، عند ذلك ، وأغاروا على بلد « قلعة جعبر » ، ووصلوا إلى « بالاس » ، فأغاروا عليها ، ونهبوها ، ولم يسلم منها إلا من كان خرج عنها إلى حلب وإلى منبج .

وفي هذا الشهر ، توفي القاضي « جمال الدين أبو عبد الله ، محمد ابن عبد الرحمن بن علوان » - قاضي حلب - وولي قضاءها بعده

نائبه ابن أخيه « كمال الدين أبو العباس ، أحمد ابن القاضي زين الدين أبي محمد » .

وخرج عسكر حلب إلى جهة « الخوارزمية » ، ومقدمهم « الملك المعظم تورانشاه » بن الملك الناصر ، فنزلوا « بالنقرة » ، ورحلوا منها إلى « منبج » ، وأقاموا بها مدة .

وتجمع « الخوارزمية » في حران ، والحلبيون غير محتفلين بأمرهم ، وعسكر حلب بعضه في نجدة « ملك الروم » في مقابلة « التتار » ، وبعضهم في « قلعة جعبر » ، وبعضهم مفرقون في القلاع ، مثل « شيزر » ، « وحارم » ، وغيرهما .

وسار الخوارزمية ، بجملتهم ، في جمع عظيم ، ومعهم « الملك الجواد بن مودود بن الملك الحافظ » ، و« الملك الصالح » بن الملك المجاهد - صاحب حمص - وكان جمعهم يزيد على اثني عشر ألفا ، وانضم اليهم الأمير « علي » حديثه في جموعه من العرب ، وكان استودش من أهل حلب ، لتقريبهم الأحلاف .

وعبروا بجملتهم من « جسر الرقة » ، وساروا ، حتى وصلوا نهر « بوجبار » ، وسمع بهم من بمنبج ، من عسكر حلب ، فدخلوا من منبج ، ونزلوا في وادي « بزاعا » ، وأصبح كل واحد من الفريقين ، يطلب صاحبه ، وعسكر حلب لايزيدون عن ألف وخمسمائة فارس .

وتعبأ كل فريق لقتال صاحبه . وأقبل الخوارزمية - ومقدمهم « بركة خان » - ومعه « صاروخان » ، « بردى خان » و« كشلوخان » وغيرهم ، من أمرائهم ، والملك الجواد ، وابن الملك الحافظ ، وابن صاحب حمص ، وعسكر « مارين » نجدة معهم وعبروا « نهر الذهب » . والتقى الفريقان ، على البيرة - قرية بالوادي - في يوم الخميس رابع عشر ، من شهر ربيع الآخر ، من سنة ثمان وثلاثين وستمائة ، فصددهم عسكر حلب على قتلته ، صدمة ، ترحزحوا لها ، وتكاثر الخوارزمية عليهم .

وجاء « علي بن حديثة » ، وخرج من بين البساتين ، وجاء من وراء عسكر حلب ، ووقع في الغلمان ، و« الركابدارية » ، وأحاطوا بهم ، من جميع الجهات ، وانهزموا وهم مطبقون عليهم ، وجعلوا طريقهم على « رصيف الملكة » ، الذي يأخذ من « بزاعا » إلى حلب ، حتى خرجوا فيما بين « ربانا » ، و« تلفيتا » . والخوارزمية في آثارهم يقتلون ، ويأسرون ، ونزلوا من جهة « الاعرابية » ، و« فرفارين » وهم في آثارهم ، فقبضوا على « الملك المعظم » ، بعد أن ثبت في المعركة ، وجرح جراحات مثنى ، وعلى أخيه « نصره الدين » ، وقبضوا على عامة الأمراء ، ولم يسلم من العسكر إلا القليل . وقتل في المعركة « الملك الصالح » بن الملك الأفضل ، وابن الملك الزاهر ، وجماعة كثيرة . واستولوا على ثقل العسكر ، ونهب الأحلاف من العرب أكثر ثقل العسكر ، وكانوا أشد ضررا على العسكر ، في انتهاب أموالهم من أعدائهم . ونزل « الخوارزمية » حول « حيلان »

وامتدوا على النهر ، إلى « فافين » ، وقطعوا على جماعة من العسكر أموالا أخذوها منهم ، وابتاعوا بها أنفسهم ، وشربوا تلك الليلة ، وقتلوا جماعة من الأسرى صبورا ، فخاف الباقون ، وقطعوا أموالا على أنفسهم ، وزدوها فممنهم من خلص ، ومنهم من أخذوا منه المال ، وغدروا به ، ولم يطلقوه .

واختبأ بلد حلب ، وتقدم إلى مقدمي البلدة بحفظ الأسوار ، والأبواب ، وجفل أهل « الحاضر » ، ومن كان خارج المدينة إلى المدينة ، بما قدروا على نقله من أمتعتهم ، وبقي في البلد الأميران : « شمس الدين لؤلؤ » ، و« عز الدين ابن مجلى » ، في جماعة ، لا تبلغ مائتي فارس يركبون ، ويخرجون إلى ظاهر المدينة ، يتعرفون أخبارهم .

وبثوا سراياهم ، في أعمال حلب يشذون الغارة فيها ، فبلغت خيلهم إلى بلد «عزان» ، و«تل باشر» و«برج الرصاص» ، و«جبـل سمعان» ، و«بلد الحوار» وطرف العمق ، وجاؤوا أهل هذه الدواحي على غفلة ، فلم يستطيعوا أن يهربوا بين أيديهم ، ومن أجفل منهم لحقوه ، فأخذوا من المواشي ، والامتعة ، والحرم ، والصبيان ، مالا يحد ولا يوصف ، وارتكبوا من الفاحشة مع المسلمين ، ما لم يفعله أحد من الكفار ، إلا ما سمع عن القرامطة .

ثم رحلوا إلى « منبج » ، وقد استعصم أهلها بالسور ، ودربوا المواضع التي لا سور لها ، فهاجموها بالسيف ، في يوم الخميس الحادي والعشرين ، من شهر ربيع الآخر ، من سنة ثمان وثلاثين ، وقتلوا من أهلها خلقا كثيرا ، وخرّبوا دورها ، ونبشوها ، فعثروا فيها على أموال عظيمة ، وسبوا أولادهم ونساءهم ؛ وجأهروا الله تعالى بالمعاصي في حرمهم ، والتجأ لمة من النساء إلى « المسجد الجامع » ، فدخلوا عليهن ، وفحشوا ببعضهن في المسجد الجامع ، وكان الواحد منهم يأخذ المرأة ، وعلى صدرها ولدها الرضيع ، فيأخذها منها ، ويضرب به الأرض ، ويأخذها ، ويمضي .

ووصل الخبر بكسرة عسكر حلب إلى حمص إلى « الملك المنصور ابراهيم بن الملك المجاهد » ، وقد عزم على الدخول إلى بلد « الفرنج » للغارة ، وعنده من عسكره وعسكر دمشق مقدار ألف فارس ، فساق بمن معه من العسكر . ووصل إلى حلب في يوم السبت الثالث والعشرين ، من شهر ربيع الآخر . وخرج السلطان وأهل البلد ، والتقوه إلى « السعدي » ، ونزل « الهزاز » ، ثم أخليت له في ذلك اليوم دار « علم الدين قيصر الظاهري » . بمصلى العيد العتيق - خارج « بابا الرابية » - فأقام بها ، واستقر الأمر معه على أن يستقدم العساكر ، وتجمع ، ووقع التوثق منه ، وله ، بالإيمان والعهود .

وسيرت رسولا إلى الملك « الصالح اسماعيل بن الملك العادل » لتحليفه ، فسرت ، ووصلت إلى دمشق ، وحلفته في جمادى الآخرة من السنة ، وطلبت منه نجدة من عسكره ، زيادة على من كان منهم بحلب ، فسير نجدة أخرى ، وأطلق الأسرى « الداوية » ، الذين كانوا بحلب استكفاء لشركهم .

وحين سمع « الخوارزمية » تجمع العساكر بحلب ، عادوا من أقطاعاتهم ، وتجمعوا « بحران » ، وعزموا على العبور إلى جهة حلب ، ومعاجلتهم قبل أن يكثر جمعهم ، وظنوا أنهم يبادرون إلى صلحهم

وكان « علي بن حديثة » ، قد انفصل عن « الخوارزمية » وظاهر ابن غنام ، قد خدم بحلب ، وأمر على سائر العرب ، وزوجته « الملكة الخاتون » بعض جواريتها ، وأقطعت أقطاعا ترضيه .

فسار « الخوارزمية » ، من « حران » ، في يوم الاثنين سادس عشر شهر رجب ، من سنة ثمان وثلاثين وستمائة ، وتتابعوا في الرحيل ، ووصلوا إلى « الرقة » ، وعبروا « الفرات » ، وبلغ خبرهم إلى حلب ، فبرز « الملك المنصور » خيمته ، وضربها شرقي حلب ، على أرض « النيرب » و« جبرين » وخرجت العساكر ، بخيمها حوله . ووصل « الخوارزمية »

ووصل « الخوارزمية » إلى « الفايا » ثم إلى « دير حافر » ثم إلى « الجبول » ، وامتدوا في أرض « النقرة » . وأقام « الملك المنصور » ، والعسكر معه ، في الخيم ، ويزك الخوارزمية في « تل عرن » ، ويزك الملك المنصور على « بوشلا » ، والعربان يناوشون « الخوارزمية » .

وعاث الخوارزمية في البلد ، وأحرقوا الأبواب التي في القرى ، وأخذوا ما قدروا عليه ، وكان الفساد في هذه المرة ، أقل من المرة الأولى . وكان البلد قد أجفل ، فلم ينتهبوا إلا ما عجز أهله عن حمله ، وتأخر لقاء العسكر الخوارزمية ، لأنهم لم يتكلموا العدة ،

ورحل الخوارزمية ، فنزلوا بقرب « الصافية » ، ومضوا إلى « سرمين » ، ونهبوها ، وبخلوا « دار الدعوة » ، وكان قد اجتمع فيها أمتعة كثيرة للناس ، ظنا منهم أنهم لا يجسرون على قربانها ، خوفا من « الاسماعيلية » ، فدخلوها قهرا ، ونهبوا جميع ما كان فيها ، ورحلوا إلى « معرة النعمان » ، ونزل العسكر مع « الملك المنصور » على « تل السلطان » ثم رحلوا إلى « الحيار » .

ورحل « الخوارزمية » إلى « كفرطاب » ، وجفل البلد بين أيديهم ، وأحرقوا « كفرطاب » ، وساروا إلى « شيزر » ، وتحيز أهلها إلى المدينة التي تحت القلعة ، فهجموا الرض ، واحتمت المدينة التي تحت القلعة يوما ، ثم هجموها في اليوم الثاني ، ونهبوا ما أمكنهم نهبه .

وأرسل عليهم أهل القلعة الجروج ، والحجارة ، فقتلوا منهم جماعة وافرة ، وبلغهم استعداد عسكر حلب ، للقائهم ، وأنهم قد وقفوا بينهم وبين بلادهم ، للقائهم : فطلبوا ناحية « حماة » ، وجاوزوها إلى جهة القبلية .

فسارت العساكر الحلبية ، لقصدهم ، فقصدوا ناحية « سلمية » ، ثم توجهوا إلى ناحية « الرصافة » ، وبلغ خبرهم عسكر حلب ، فركبوا ، وطلبوا مقاطعتهم ، ووقع جمع من العرب بهم ، بقرب « الرصافة » ، وقد تعبت خيولهم ، وضعفت لقوة السير ، وقلة الزاد والعلف ، فآلقوا أثقالهم كلها ، والغنائم التي كانت معهم من البلاد ، وأرسلوا خلقا ممن كانوا أسروه من بلد حلب ، وشيزر وكفرطاب وساروا ، طالبي « الرقة » مجدين في السير ، واشتغل العرب ، ومن كان معهم من الجند ، بنهب ما ألقوه ، ووصل « الخوارزمية » إلى الفرات ، مقابل « الرقة » - غربى البليل وشماله - بكرة الاثنين خامس شعبان .

وأما الملك المنصور وعسكر حلب ، فإنهم وصلوا إلى « صفين » ،

وساقوا سوقا قويا ، ليسبقوا الخوارزمية إلى الماء ، ويدولوا بينهم وبين العبور إلى « الرقة » فوصلوا بعد وصول الخوارزمية بساعة ، فوجدوا الخوارزمية قد احتموا في « بستان البليل » ، وأخذوا منها الأبواب ، وجعلوها ستائر عليهم ، وحفروا خندقا عليهم ، فقاتلوهم إلى بعد العشاء ، وأخذوا من الأغنام ، التي لهم ، شيئا كثيرا ، ولم يكن عندهم علوفة لدوابهم ، ولا زاد لأنفسهم ، فعادوا في الليل إلى منزلتهم « بصفين » ، ونام جماعة من الرجال في « البليل » ، فوقع عليهم « الخوارزمية » فقاتلوهم ؛ وعبر الخوارزمية إلى « الرقة » ، وقد هلكت دوابهم إلا القليل ، وأكثرهم رجالة ؛ وسروا إلى « حران » ، وأحضروا لهم دواب ركبوها ، وتوجهوا إلى « حران » .

وأراد « الملك المنصور » العبور من جسر « قلعة جعبر » ، فلم يمكنه لقلة العلوفة ، فسار بالعساكر إلى « البيرة » ، وعبر من عبرها بالعسكر والجموع . وسار حتى نزل ما بين « سروج » و « الرها » .

ووصل الخوارزمية ليكبسوا اليك ، فعلموا بهم ، وتاهوا في الليل ، وركب العسكر ، فعادوا والعسكر في آثارهم ، إلى « سروج » ، ولم ينالوا زينة ، ووصلوا إلى « حران » ، وجمعوا جمعا كثيرا ، حتى أخذوا عوام « حران » ، وألزموهم بالخروج معهم ، ليكثروا بهم السواد ، ووصلوا إلى قرب « الرها » إلى جبل يقال له « جلهمان » واجتمعوا عليه ، ورتبوا عسكرهم ، وكثروا سوادهم بالجمال ، وعملوا رايات من القصب ، على الجمال ليلقوا الرعب في قلوب العسكر ، بتكثير السواد .

وركب العسكر من منزلته ، بعد أن وصل رسول ، من عسكر « الروم » ، يخبر بوصوله في النجدة ، بعد حط الخيم للرحيل ، فلم يتوقفوا وساروا ، إلى أن وصلوا إلى « الخوارزمية » ، يوم الأربعاء الحادي والعشرين ، من شهر رمضان ، سنة ثمان وثلاثين وستمائة ، والتقوا ، وكسر « الخوارزمية » ، واستبيح عسكرهم ،

وهربوا ، والعساكر في آثارهم ، إلى أن حال الليل بينهم وبينهم ، فعاد العسكر ، ووصل الخوارزمية إلى « حران » ، وأخذوا نساءهم ، وهربوا ، ورتبوا في قلعة « حران » واليا من جهة « بركة خان » ، وساروا ، ووصل « الملك المنصور » والعساكر إليها ، فوكل بالقلعة من يحصرها ، وساروا خلف الخوارزمية إلى « الخابور » ، والخوارزمية منهزمون ، وألقوا أثقالهم ، وبعض أولادهم ، ونزلوا في طريقهم على « الفرات » ، فجاءهم السيل في الليل ، فأغرق منهم جمعا كثيرا ، وبخلوا إلى بلد « عانة » واحتموا فيه لأنه بلد الخليفة .

وزينت مدينة حلب أياما لهذه البشوى. وضربت البشائر ، ووصلت أعلامهم وأسراؤهم ، إلى حلب . واعتصمت القلعة « بحران » أيما ، ثم سلمت إلى الحلبيين ، وأخرج من كان بها من الأمراء ، من أمراء حلب وأقارب السلطان ، وبادر « بدر الدين لؤلؤ » إلى « نصيبين » ، وإلى « دارا » فاستولى عليهما ، واستخلص من « دارا » عم السلطان الملك « المعظم تورانشاه » ، واستدعاه إلى الموصل ، وقدم له مراكب ، وثيابا ، وتحفا ، كثيرة ، وسيره إلى العسكر ، واستولى العسكر الحلبي ، على « حران » ، « وروج » ، « الرها » ، و« رأس عين » ، و« جملتين » و« الموزر » و« الرقة » ، وأعمال ذلك ، واستولى « الملك المنصور » على بلد « الخابور » و« قرقيسيا » .

واستولى نواب « صاحب الروم » على « السويداء » ، بعد استيلاء عسكر حلب عليها ، لكونها من أعمال « آمد » . ووصل نجدة ملك الروم ، بعد الكسرة ، فسيرت إليهم الخلع ، والذفقات ، وساروا إلى « آمد » ، والتفوا بعساكر الروم ، وحاصروها إلى أن اتفقوا مع صاحبها ولد « الملك الصالح » على أن أبقوا بيده « حصن كيفا » وأعماله ، وسلم إليهم « آمد » . وأقام « الخوارزمية » ببيلاد الخليفة ، إلى أن دخلت سنة تسع وثلاثين وستمائة .

وخرجوا إلى ناحية «الموصل» ، واتفقوا مع صاحبها ، إلى أن أظهر إليهم المسألة ، وسلم إليهم « نصيبين » ، واتفقوا مع الملك « المظفر شهاب الدين غازي » بن الملك العادل - صاحب ميافارقين - وسير إلى حلب ، وأعلمهم بذلك ، وطلب موافقته ، واليمين له ، على أنه إن قصده « سلطان الروم » دافعوا عنه ، وكان قد استشعر من جهته ، فلم يوافقهم الحلبيون على ذلك ، ووصل إليه « الخوارزمية » واتفقوا على قصد « أمد » ، فبرزت العساكر من حلب ، ومقدمها الملك « المعظم تورانشاه » ، وخرجت إلى « حران » في صفر ، من سنة تسع وثلاثين ، وساروا بأجمعهم إلى أمد ، ودفعوا الخوارزمية عنها ، ورحلوا عنها إلى « ميافارقين » ، فأغاروا على رستاقها ، ونهبوا بلدها ، واعتصم الخوارزمية بحاضرها ، خارج البلد .

ووصلت العساكر وأقامت قريبا من « ميافارقين » ، وجرت لهم معهم وقعات ، إلى أن تهاذوا ، على أن يقطع ملك « الروم » الخوارزمية ، ما كان أقطاعا لهم في بلاده ، وأنهم يكونون مقيمين في أطراف بلاده ، وعلى أن المالكة « الخاتون » بحلب ، تعطي أخاها الملك المظفر ، ماتختاره ، من غير اشتراط عليها ، وعلى أن يكونوا « شهاب الدين غازي » سلما ، لم هو داخل في هدينتهم - وكان صاحب ماردين قد حلف للملك الناصر - ، ورجع العسكر الحلبي ، فلم ينتظم من الأمر الذي قرروه شيء ، ووصل رسل الملك « المظفر » ، ورسل « الخوارزمية » . وعادوا عن غير اتفاق . وأطلق أسرى « الخوارزمية » من حلب .

وخرج الملك المظفر والخوارزمية ، ووصلوا إلى بلد « الموصل » . وعاد صاحب « ماردين » إلى موافقتهم ، ونزلوا على « الموصل » ، ونهبوا رستاقها ، واستاقوا مواسيها ، ثم توجهوا إلى ناحية « الخابور » .

واتفق الأمر على أن ورد « الملك المنصور » - صاحب حمص -

إلى حلب . وخرج السلطان « الملك الناصر » ، وأكابر المدينة ،
والتقوه إلى « الوضيحي » . ووصل إلى ظاهر حلب ، في « »
(١٨) ، ونزل بدار « علم الدين قيصر » ، وجمع العساكر ، وتوجه
إلى بلاد « الجزيرة » .

ووصل « الملك المظفر » و « الخوارزمية » - بعد أن عبر « الملك
المنصور » الفرات - إلى « رأس عين » ، واعتصم أهلها ، مع
العسكر الذي كان بها ، وكان معهم جماعة ، من الرماة ،
والجرحية ، من الفرنج ، فأخذوا أهلها ، وبخلوها ، وأخذوا من
كان بها من العسكر . ورحل « الملك المنصور » والعسكر من
الفرات إلى « حران » ، فعاد الملك المظفر والخوارزمية إلى
ميفارقين ، وأطلقوا من كان بها ، في صحبتهم ، من العسكر
الذين أخذوهم من « رأس عين » ، ثم توجه « الملك المنصور »
والعسكر إلى آمد ، واجتمعوا بمن كان بها من عسكر الروم ،
وأقاموا ينتظرون وصول عساكر « الروم » ، مع الدهليز ، لئلا
ميفارقين .

وتوفي « الملك الحافظ أرسلان شاه » ، ابن الملك العادل ، بقلعة
عزاز ، ونقل تابوته إلى مدينة حلب . وخرج السلطان « الملك
الناصر » ، وأعيان البلدة ، وصلوا عليه ، ودفن في « الفردوس » ،
في المكان الذي أنشأته أخته « الملكة الخاتون » . وتسلم نواب
الملك الناصر قلعة « عزاز » ، من نوابه من غير ممانعة ، وذلك كله ،
في ذي الحجة ، من سنة تسع وثلاثين وستمائة .

واتفق أن خرج « التتار » إلى « أرزن الروم » ، واشتغل « الروم »
بهم ، وأغاروا إلى بلد « خرتبرت » ، وخاف « الملك المنصور »
والعسكر ، من إقامتهم في تلك البلاد ، وأنهم لا يأمنون من كبسة
تأتي من جهة « التتار » ، فعادوا إلى « رأس عين » ، فخرج « الملك
المظفر » ، « الخوارزمية » ، إلى « ننيسر » ، فخرج « الملك المنصور »
إلى « الجرجب » ، وساروا إلى جهتهم . فوصلهم الخبر أنهم قد

نزلوا « الخابور » ، فساروا إلى جهتهم ، ونزلوا « المجدل » ، وكان قد انضاف إلى « الخوارزمية » جمع عظيم ، من « التركمان » ، يقدمهم أمير يقال له « ابن دودي » ، حتى بلغ من أمره أنه قال للملك المظفر : أنا أكرهم بالجوابنة النين معي . وكان عدتهم سبعين ألف « جوبان » غير الخيالة من التركمان .

ورحل « الملك المظفر » ، حتى نزل قريبا من « المجد » ، فعلم به « الملك المنصور » ، فأشار الأمير « شمس لؤلؤ الأميني » بمبادرتهم ، والرحيل اليهم في تلك الساعة ، فرحلوا ، ووافوهم ، وقد نزلوا ، في يوم الخميس ، الثالث والعشرين ، من صفر ، من سنة أربعين وستمائة ، فركبوا ، والتقى الصفان ، فما هو إلا أن التقوا ، وولى « الملك المظفر » منهزما ، « والخوارزمية » ، وحالت الخيم بينهم وبينهم ، فسلموا ، وقتل منهم جماعة ، ووقع العسكر في الخيم ، والخركاها ، وبها الأقمشة والنساء ، فنهبوا جميع ما في العسكر ، وأخذوا النساء وجميع ما كان معهن من الأموال ، والحلي ، والذهب ، ولم يفلت من النساء أحد .

ونزل « الملك المنصور » ، في خيمة « الملك المظفر » ، واستولى على خزانته ، وعلى جميع ما كان في وطاقه ، وغنم العسكر من الخيل ، والبغال ، والجمال ، والآلات ، والأغنام ، مالا يحصى ، وبلغت الأغنام المنهوبة إلى « الموصل » و« حلب » و« حماة » و« حمص » ، بحيث بيع الرأس من الغنم في العسكر ، بأبخص الأثمان ، وضربت البشائر بحلب ، وزينت أياما سبعة ، وتوجه « الملك المنصور » ، والعساكر إلى حلب ، وخرج السلطان « الملك الناصر » إلى « قلعة جعبر » . وتوجه إلى « منبج » للقائهم ، واجتمع بهم ، فوصلوا إلى حلب ، يوم الأربعاء مستهل جمادى الأولى ، من سنة أربعين وستمائة .

وطلع « للخاتون الملكة » قرحة في مرق البطن ، وازداد ورمها ، وحدث لها حمى بسببها ، وسار « الملك المنصور » ليلة الجمعة ثالث

الشهر . وتوجه في صحبته نجدة من حلب ، لتقصد بلاد الفرنج بناحية « طرابلس » ، وقوي مرض « الملكة الخاتون » ، إلى أن توفيت الى رحمة الله تعالى ، ليلة الجمعة الحادية عشرة ، من جمادى الاولى ، من سنة أربعين وستمائة . ودفنت في الحجرة بالقلعة ، تجاه الصفة ، التي دفن فيها ولدها الملك العزيز - رحمهما الله - وكان مولدها بقلعة حلب ، حين كانت في ولاية أبيهما « الملك العادل » ، إما في سنة إحدى أو اثنتين وثمانين وخمسمائة ، وبلغني أنه كان عنده ضيف ، فلما أخبر بولادتها ، سماها « ضيفة » لذلك . وأمر السلطان « الملك الناصر » في ملكه ، ونهى بإشارة وزيره « جمال الدين الأكرم » والأمير « جمال الدولة اقبال الخاتوني » .

وعلم السلطان في التواقيع ، وأشهد عليه بتمليك الأمير « جمال الدولة » نصف الملوحة ، والحصنة الجارية ، في ملك بيت المال « بالناعورة » . وأقر على نفسه بالبلوغ ، وملك الوزير الحصنة ، التي بأيدي نواب بيت المال « ثقيل » ورحاها ، وجعل يجلس في « دار العدل » ، في كل يوم اثنين وخميس ، بعد الركوب ، وترفع إليه المظالم ، وخلع على أمرائه وكبراء البلد ، وأقطع الأمير « جمال الدولة » « عزان » وقلعتها وما كان في يد « الملك الحافظ » بن الملك العادل ، وجميع ما كان من الحواصل ، في الأماكن المذكورة ، وذلك في الحادي والعشرين ، من جمادى الاولى من سنة أربعين وستمائة .

وعاشت « الخوارزمية » و « التركمان » على بلاد « الجزيرة » ، فخرج عسكر حلب ، ومقدمهم الأمير « جمال الدولة » في جمادى الآخرة ، وساروا ، واجتمعوا في « رأس عين » . فتجمع الخوارزمية ، وانضوا إلى صاحب « مارين » ، واحتموا بالجبل ، فوصل عسكر حلب ، ونزلوا مقابلتهم ، تحت الجبل ، وخندقوا حولهم ، وجرت لهم معهم وقعات ، وتضرر عسكر حلب ، بالمقام ، لقلة العلوفة ، إلى أن ورد « نائب المملكة بالروم » وهو « الأمير شمس الدين الأصهباني » إلى « شهاب الدين غازي » - وإلى

صاحب ماردين - والخوارزمية ، وأصلح بينهم على أن يعطى صاحب « ماردين » « رأس عين » . وأرضى « ملك الروم » الخوارزمية « بخرتبرت » ، وشيء من البلاد ، والملك المظفر غازي « بخلاط » ،

وتوجهت العساكر ، - و« النائب الاصبهاني » ، في جملتها - وخرج السلطان « الملك الناصر » ، وتلقاهم إلى « منبج » ، ودخل « النائب » إلى حلب ، يوم السبت التاسع عشر من شوال .

ودخل السلطان والعسكر ، يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من شوال ، وورد مع « النائب » أموال عظيمة ، لتستخدم بها العساكر للقاء « التتار » ، ويطلب نجدة من البلاد عليهم ، فسير من حلب نجدة ، ومقدمها « الناصح الفارسي » ، في ذي الحجة ، من سنة أربعين وستمئة ، فالتقاهم السلطان « غياث الدين » ، « بسيواس » أحسن لقاء ، وأعطاهم عطاء سنيا ، وفوض تدبير العسكر إلى « الناصح أبي المعالي الفارسي » ، وفرح أهل « بلاد الروم » وقويت قلوبهم بنجدة حلب .

وسار « السلطان من « سيواس » إلى « أقشهر » (١٩) ، ووصله الخبر بوصول « التتار » ، فسير بعض أمرائه ، وعسكر حلب ، ليكشفوهم . فوصلوا إليهم ، ونشب القتال بينهم ، ووقعت بينهم حملات ، فانهزم « التتار » ، بين أيديهم ، ثم تكاثروا ، وحملوا عليهم ، فانكسر عسكر « الروم » وثبت الحلبيون ، وجرى بينهم كرات ، وخرج عليهم كمينان ، من اليمين واليسار فأحدقوا بهم ، فلم يسلم منهم إلا من حمل ، وخرج من بينهم ، وذلك ، في يوم الخميس ، الثالث عشر من المحرم ، سنة إحدى وأربعين وستمئة .

وانهزم ملك « الروم » في الليل ، ليلة الجمعة ، وأجفل أهل بلاد الروم ، إلى حلب وأعمالها ، وعاث « التركمان » في أطراف الروم ، ونهبوا من خرج إلى الشام . (٢٠)